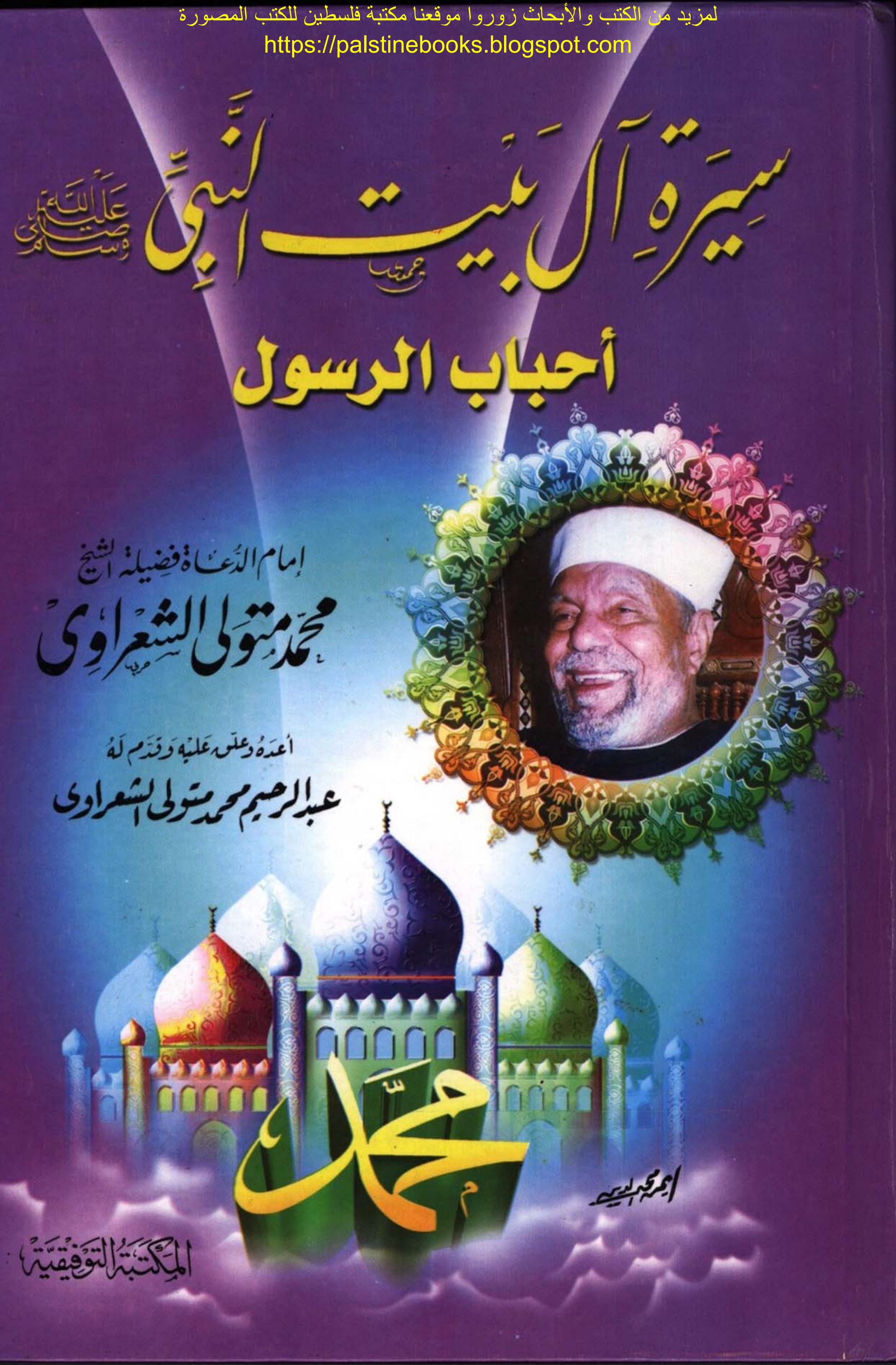

سيرة آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم
أحباب الرسول
إمام الدعاة فضيلة الشيخ
محمد متولي الشعراوي
أعده وعلق عليه وقدم له
عبد الرحيم محمد متولي الشعراوي
محمد
المكتبة التوفيقية

سيرة آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم

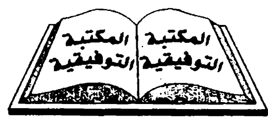
أحباب الرسول

إمام الدعاة فضيلة الشيخ

محمد متولي الشعراوي

أعده وعلق عليه وقدم له

عبد الرحيم محمد متولي الشعراوي



أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين

٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠

المكتبة التوفيقية

القاهرة - مصر
العنوان: أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
تليفون: ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠ (٠٠٢٠٢)
فاكس: ٦٨٤٧٩٥٧

Al Tawfikia Bookshop

Cairo-Egypt
Add.: In Fornt of the Green Door Of El Hussen
Tel. : (٠٠٢٠٢) ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠
Fax : ٦٨٤٧٩٥٧

إشراف
توفيق شعلان

رقم الإيداع بدار الكتب: ٢٠٠٤/٣٤٠١

الترقيم الدولي: 977-323-082-1

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمدك ربى كما علمتنا أن نحمدك، وأصلى وأسلم على خير خلقك سيدنا محمد، وبعد،،

إخوتى المؤمنين...

وكفى بذلك الوصف تعريفًا، تجتمع فيه أقدار الناس فى الحياة، أحييكم تحية الإسلام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وأسأله سبحانه وتعالى أن يحييكم ويحييهم عنى، فإنى عاجزٌ على أن أرد على تحاياهم بمثلها، فضلاً عن خيرٍ منها.

وحين ترد التحية إلى الله تكون أبلغ التحية، وأشملها، وأكرمها.

أسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يربط على قلوبنا، وأن يوحد كلمتنا، وأن يرد ساستنا إلى منطق الحق والصواب، وأن يجعل كل غيرةٍ، وكل إعدادٍ فى حسابها كلمة الله لتكون هى العليا.

عبد الرحيم محمد متولى الشعراوى

تطهير آل البيت الكرام

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب:٣٣].

الرجس بالسين هو ليس الرجز بالزاى، والرجس هو القذارة، فقد تكون القذارة حسية مثل: الجيفة العفنة، ومثل الخمر، وقد تكون قذارة معنوية، وقد بين ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:٩٠].

فالميسر ليس قذارة حسية، ولكنها معنوية؛ وكذلك النفاق والمرض.

وقول الله تعالى: ﴿أهل البيت﴾، كلمة ﴿أَهْلَ﴾ هى لعشيرة الرجل، لكنها تطلق فى عرف الاستعمال على المرأة، أى زوجته؛ ولذلك من بقية هذه الاصطلاحات، أن واحدًا يقول لك: فلان سيجىء لزيارتك، فتقول له: وهل معه أحد؟ يقول لك: نعم، معه أهله. فهنا أهله معناه زوجته، لأن الزوجة مبنية على الستر.

ومرة تقول: فلان جاء ومعه أولاده، أو جماعته، وتقصد زوجته. وهذا يعنى أن اسم المرأة مبنى على الستر، كذلك هى فى أكثر تكليفات الله مبنية على الستر أيضًا، ومن النادر أن يأتى بحكم إلا إذا كان خاصًا بالمرأة.

ولذلك السيدة أسماء بنت عُميس رضى الله تعالى عنها وكانت من المهاجرات السابقات إلى الحبشة مع زوجها جعفر بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه، لما عادوا ذهبت أسماء إلى بيت رسول الله ﷺ، وسألت أزواجه قائلة لهن: أأُنزل للمرأة شىء فى غيبتى؟

قالوا لـها: لا . . فذهبـت إلى رسول الله ﷺ، وقالت: يا رسـول الله ما أعظم خسـارتنا، فليس لنا فى الأحكام شىء!! فـقال لهـا الرسول ﷺ: «إنكن مطمورات فى الرجال»[1] .

وقيل إن قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ الخطاب موجه للنساء، فلماذا لم يقل: «ليذهب عنكن وليطهركن» قالوا: إما لأن الأسلوب عاد إلـى الستر، وإمـا لأن الله أراد بالخطاب أهل بيت النبوة جـميـعًا رجالاً ونساء.

(١) لا أصل له.

التعريف بآل البيت الكرام

اختلف السلف والخلف فى تحديد المراد بأهل البيت، فقال بعضهم:

هم علىٌّ، وفاطمة، والحسن، والحسين، رضى الله عنهم أجمعين، وممن ذهب إلى ذلك أبو سعيد الخدرى، وجماعة من التابعين منهم: مجاهد، وقتادة، وغيرهما.

واستندوا فى ذلك إلى أنه لما نزلت هذه الآية على النبى -ﷺ-:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب:٣٣].

فى بيت أم سلمة، فدعا فاطمة وحسنًا، وحُسينًا، فجلَّلهم بكساءٍ وعلىٌّ خلف ظهره فجللهم بكساءٍ، ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً».

قالت أم سلمة: وأنا معهم يا نبى الله؟

قال: «أنت على مكانك، وأنت إلى خيرٍ»[1].

وفى رواية أخرى، فقلت وأنا عند عتبة الباب: يا رسول الله، وأنا معهم؟

قال: «إنك بخيرٍ، وإلى خيرٍ»[2].

وقد توسطت طائفة ثالثة بين الطائفتين فجعلت هذه الآية شاملة للزوجات، ولعلى، وفاطمة، والحسن، والحسين، وأما الزوجات فلكونهن المرادات فى سياق

---

(١) حديث صحيح. أخرجه الترمذى (٣٢٠٥)، (٣٧٨٧).

(٢) حديث صحيح. أخرجه الترمذى (٣٧٨٧)، والطبرانى (٢٣/ ٣٣٣) فى الكبير وله طرق كثيرة.

هذه الآيات كما قدمنا، ولكونهن الساكنات في بيوته -ﷺ- النازلات في منازله، ويعضد ذلك ما روى عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنها نزلت في أزواج النبي -ﷺ-.

وأما دخول علي، وفاطمة، والحسن، والحسين، فلكونهن قرابته، وأهل بيته في النسب، ويؤيد ذلك ما ورد من الأحاديث المصرحة بأنهم سبب النزول.

فمن جعل الآية خاصة بأحد الفريقين أعمل بعض ما يجب إعماله، وأهمل ما لا يجوز إهماله، وقد رجح هذا القول جماعة من المحققين منهم القرطبي، وابن كثير وغيرهما.

وقد توسع زيد بن أرقم -رضي الله عنه- في فهم آل البيت، فقد سئل:

من أهل بيته؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟!

قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرم الصدقة بعده.

قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس -رضي الله عنهم-.

قيل: كل هؤلاء حرم الصدقة بعده؟

قال: نعم.

«أنت على مكانك وأنت على خيرٍ» يحتمل أن يكون معناه أنتِ خير، وعلى مكانك من كونك من أهل بيتي، ولا حاجة لك في الدخول تحت الكساء، كأنه منعها عن ذلك لمكان عليٍّ، أو أن يكون المعنى أنت على خيرٍ، وإن لم تكوني من أهل بيتي.

والاحتمال الأول هو الراجح بل هو المتعين[(١)] .

ومن حججهم الخطاب فى الآية بما يصلح للذكور لا الإناث، وهو قوله «عنكم»، و «ليطهركم» ولو كان للنساء خاصة لقال عنكن وليطهركن.

وقال ابن عباس، وعكرمة، وعطاء، والكلبى، ومقاتل، وسعيد بن جبير: إن أهل البيت المذكورين فى الآية، هم زوجات النبى -ﷺ- خاصة.

قالوا: والمراد بالبيت بيت النبى -ﷺ-، ومساكن زوجاته، وذلك بدلالة سياق الآيات الكريمة.

وأجابوا بأن التذكير فى الآية باعتبار لفظ الأهل كما قال سبحانه وتعالى:

﴿ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ [هود:٧٣].

وكما يقول الرجل لصاحبه: كيف أهلك؟ يريد زوجته، أو زوجاته، فيقول: هم بخير.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: الذى لا يشك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبى -ﷺ- داخلات فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ فإن سياق الكلام معهن، ولهذا قال تعالى بعد هذا كله:

﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ [الأحزاب:٣٤].

أى: واعملن بما ينزل الله تبارك وتعالى على رسوله -ﷺ- فى بيوتكن من الكتاب والسنة.

---

(١) تحفة الأحوذى (٩/ ٦٦، ٦٧).

قاله قتادة وغير واحدٍ: واذكرن هذه النعمة التى خصصتن بها من بين الناس أن الوحى ينزل فى بيوتكن دون سائر الناس، وعائشة الصديقة بنت الصديق - رضي الله عنها- أولاهن بهذه النعمة وأحظاهن بهذه الغنيمة وأخصهن من هذه الرحمة العميمة، فإنه لم ينزل على رسول الله -ﷺ- الوحى فى فراش امرأة سواها كما نص على ذلك صلوات الله وسلامه عليه.

قال بعض العلماء: لأنه لم يتزوج بكرًا سواها، ولم ينم معها رجل فى فراشها سواه -ﷺ-، ورضى الله عنها فناسب أن تخصص بهذه المزية، وأن تفرد بهذه المرتبة العلية، ولكن إذا كان أزواجه من أهل بيته فقرابته أحق بهذه التسمية.

وقال القاضى ابن عطية: الذى يظهر إلىَّ أن زوجاته لا يخرجن عن ذلك البتة فى (أهل البيت)، زوجاته، وبنته، وبنوها، وزوجها، وهذه الآية تقضى أن الزوجات من (أهل البيت) لأن الآية فيهن، والمخاطبة لهن.

أما أن أم سلمة قالت: نزلت هذه الآية فى بيتى فدعا رسول الله -ﷺ- عليًّا، وفاطمة، وحسنًا، وحسينًا، فدخل معهم تحت كساء خيبرى، وقال: «هؤلاء أهل بيتى» وقرأ الآية، قالت أم سلمة فقلت: وأنا يا رسول الله؟ فقال: «أنت من أزواج النبى وأنت إلى خيرٍ».

وقال الثعلبى: قيل هم بنو هاشم، فهذا على أن ﴿البيت﴾ يراد به بيت النسب، فيكون العباس، وأعمامه، وبنو أعمامه منهم[١] .

وقال ابن عساكر كما فى تهذيب تاريخ دمشق[٢] :

---

(١) تفسير ابن عطية (٤/ ٣٨٤).

(٢) تهذيب تاريخ دمشق (٤/٢٠٨).

اختلفوا فى المراد بأهل البيت على ثلاثة أقوال:

أحدها: عن ابن عباس أنه قال: أنزلت هذه الآية فى نساء النبى -ﷺ-، وبه قال سعيد بن جبير، وقال عكرمة:

ليس الذى يذهبون إليه ـ يعنى فى تفسير الآية ـ وإنما هى فى أزواج النبى -ﷺ- خاصة.

وكان عكرمة ينادى بهذا فى السوق، وهذا قول ابن السائب، ومقاتل.

واحتجوا لصحته بأن ما قبل الآية وما بعدها مختص بالأزواج الطاهرات، وإنما قال ليذهب عنكم بضمير الذكور لدخول رسول الله -ﷺ- معهن فى الخطاب.

وفى هذا دليل بين على أن نساء النبى -ﷺ- من أهل بيته.

القول الثانى: أن المراد بأهل البيت رسول الله -ﷺ-، وفاطمة، وعلى، والحسن، والحسين.

قاله أبو سعيد الخدرى، وعائشة، وأم سلمة.

ثم قال: والصحيح عندى أن المراد بأهل بيته نساؤه وآله، وهو قول الضحاك، واختيار الزجاج، لأن اللفظ صالح لهما عام فيهما، وظاهر القرآن والأحاديث يدل على صحة ما أخبرته.

وفى إفراد مسلم من حديث زيد بن أرقم أن النبى -ﷺ- قال: «أذكركم الله فى أهل بيتى» فقيل لزيد: أليس نساؤه من أهل بيته؟

فقال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرم الصدقة بعده.

قيل: ومن هم؟ قال: هم آل على، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس.

فهذا اعتراف من زيد بن أرقم أن نساءه من أهل بيته، ويطهرهم تطهيراً.

وهذا القول الذى أختاره، هو القول الثالث الذى لا ينبغى العدول إلى غيره، ومن قصره على علىٍّ، وفاطمة، والحسن، والحسين -رضي الله عنهم- يخالف نص القرآن.

وقوله: ﴿ويطهركم تطهيراً﴾ بإذهاب الرجس عنكم، وهو الشرك، والسوء، والإثم.

قال الزجاج: الرجس فى اللغة كل مستنكرٍ مستقذر من مأكول، أو عمل، أو فاحشة.

وهكذا نرى أن مفهوم آل البيت يشمل العديد من فروع البيت النبوى، وهم فرع على بن أبى طالب، وفرع العباس بن عبد المطلب، وفرع عقيل بن أبى طالب، وفرع جعفر بن أبى طالب.

❑❑❑

فضائل آل البيت فى القرآن الكريم والسنة النبوية

«القرآن الكريم» هو دستور المسلمين، فيه حُكم ما بينهم، ونبأ ما قبلهم، وخبر ما بعدهم، وهو القول الفصل، والنور المبين، والذكر الحكيم.

وقد مدح الله تعالى آل بيت النبى -ﷺ- فى القرآن الكريم، وأثنى عليهم.

قال عز وجل:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب:٣٣].

الرجس: اسمٌ يقع على الإثم، وما يشين صاحبه، وعلى العذاب، وعلى النجاسات، وعلى النقائص، وقد أذهب الله تعالى كل ذلك عن أهل بيت النبى عليه الصلاة والسلام.

فرضوان الله على أهل البيت، فقد أذهب الله عنهم السوء والفحشاء، وطهرهم من الأدناس، والمعاصى.

ورضوان الله على أهل البيت، فهم خاصة الرسول -ﷺ-.

ورضوان الله على أهل البيت، فهم أهل الطهر والعفاف، وأهل التقوى والصلاح.

ورضوان الله على أهل البيت، فقد أقاموا منار الدين، وأعلوا شأن الإسلام.

تقول عائشة -رضي الله عنها- :

خرج النبى -ﷺ- غداةً، وعليه مِرطٌ مُرحَّلٌ، من شعرٍ أسود، فجاء الحسن ابن على فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علىٌّ فأدخله(١) .

ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب:٣٣].

والمرط المرحل: المرط كساء، جمعه مروط، والمرحل هو الموشى المنقوش عليه صور رحال الإبل.

وكما تعرفنا على فضائل آل البيت فى القرآن، نتعرف الآن على فضائلهم فى السنة النبوية.

وعندما نتأمل فى السُّنة النبوية نجد الدعوة إلى العناية بشأن أهل النبى -ﷺ- واضحة جلية، والوصية بهم متأكدة.

فيروى زيد بن أرقم -رضي الله عنه- فيقول:

قام رسول الله -ﷺ- يومًا فينا خطيبًا بماءٍ يدعى خُمًا(٢) بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكر، وقال:

«أما بعد. . .

---

(١) حديث صحيح. أخرجه مسلم (٢٨٢٤)، والحاكم (٣/ ١٤٧)، وأحمد (٦/ ٢٩٢)، والنسائى (٩) فى الخصائص.

(٢) اسم لغيضة على ثلاثة أيام سيراً من الجحفة، وبها غدير مشهور يضاف إلى الغيضة، فيقال: غدير خم.

ألا أيها الناس، فـإنما أنا بشرٌ يوشك أن يأتى رسول ربى فـأجيب[١] ، وأنا تاركٌ فيكم ثقلين[٢] :

أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به».

«وأهل بيـتى أذكـركم الله فى أهل بيـتى[٣] ، أذكـركم الله فى أهل بيـتى، أذكركم الله فى أهل بيتى»[٤] .

قيل لزيد بن الأرقم: ومن أهل بيته؟

أليس نساؤه من أهل بيته؟!

قال: نساؤه من أهل بيته[٥] ، ولكن أهل بيته من حُرِم الصدقة بعده.

قال: ومن هم؟

قال: هم آل على، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس.

قال: كل هؤلاء حرم عليه الصدقة؟ قال زيد: نعم.

ويروى شداد أبو عمار ـ رحمـه الله ـ فيقول: دخلت على واثلة بن الأسقع -رضي الله عنه-، وعنده قوم، فقال: ألا أخبرك بما رأيت من رسول الله -ﷺ-؟

قال شداد: بلى.

---

(١) أى بالوفاة، وتلبية نداء الرفيق الأعلى.

(٢) ثقلين: يقال كل خطير نفيس ثقيل، فسماهما ثقلين إعظامًا لقدرهما وتفخيمًا لشأنهما.

(٣) أى: احفظونى.

(٤) حـديث صحـيح، أخـرجه مـسلم (٢٤٠٨)، وأحـمد (٤/ ٣٦٧)، والدارمى (٢/ ٤٣١)، والحـاكم (٣/ ١٤٨)، والطبرانى (٤٩٨٦) فى الكبير، والبيهقى (٢/ ١٤٨) فى سننه الكبرى.

(٥) المراد أنهن من أهل بيته يساكنونه ويعولهم، وأمر باحتـرامهم، وإكرامهم، وسماهم ثقلاً، ووعظ فى حقوقهم.

فقال: أتيت فاطمة أسألها عن علىٍّ، فقالت: توجه إلى رسول الله -ﷺ- فجلست أنتظره حتى جاء رسول الله -ﷺ-، ومعه على، وحسن، وحسين، آخذًا كل واحدٍ منهما بيده، حتى دخل فأدنى عليًّا وفاطمة فأجلسهما بين يديه، وأجلس حسنًا وحسينًا، كل واحدٍ منهما على فخذه، ثم لف عليهم ثوبه، ثم تلا هذه الآية:

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ ثم قال -ﷺ-: «اللهم هؤلاء أهل بيتى، وأهل بيتى أحق»[١] .

ومن فضائل آل البيت تخصيصهم بالصلاة والسلام فى آخر صلاة كل عبد مسلمٍ. والصلاة عليهم طلب الرفعة، وعلو الدرجة لهم، والرحمة، والمغفرة.

قال عبد الرحمن بن أبى ليلى رحمه الله:

لقيت كعب بن عجرة -رضي الله عنه- فقال: ألا أهديك هدية؟ خرج رسول الله -ﷺ- علينا، فقلنا: قد عرفنا كيف نُسَلِّمُ عليك، فكيف نُصلى عليك؟

فقال عليه الصلاة والسلام:

«قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمدٍ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبرهيم، إنك حميد مجيد.

اللهم بارك على محمدٍ، وعلى آل محمدٍ، كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد»[٢] .

(١) حديث صحيح. أخرجه أحمد (٤/١٠٧)، والحاكم (٣/١٤٧) وصححه، وأقره الذهبى.

(٢) حديث صحيح. أخرجه البخارى (٤/١٧٨)، ومسلم (٤٠٦)، وأبو داود (٩٧٦)، والترمذى (٤٨٣)، وابن ماجه (٩٠٤).

وروى أبو مسعود الأنصارى -رضي الله عنه-، فقال: أتانا رسول الله -ﷺ- ونحن فى مجلس سعد بن عبادة، فقال له البشير:

أمرنا الله عز وجل أن نصلى عليك يا رسول الله، فكيف نصلى عليك؟

قال: فسكت رسول الله -ﷺ- حتى تمنينا أنه لم يسأله.

ثم قال رسول الله -ﷺ-: «قولوا: اللهم صل على محمدٍ، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمدٍ، كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد، والسلام كما علمتم[١] »[٢] .

وروى أبو حميد الساعدى -رضي الله عنه- أنهم قالوا: يا رسول الله، كيف نصلى عليك؟

قال -ﷺ-: «قولوا: اللهم صل على محمد، وعلى أزواجه، وذريته، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمدٍ، وأزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد»[٣] .

وروى أبو سعيد الخدرى -رضي الله عنه- فقال: قلنا: يا رسول الله، هذا السلام، فكيف نصلى؟ قال: «قولوا: اللهم صل على محمدٍ عبدك ورسولك، كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمدٍ وآل محمدٍ، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم»[٤] .

---

(١) كما علمتم: يعنى قوله ـ -ﷺ- ـ: السلام عليك أيها النبى ورحمة الله إلى آخره.

(٢) حديث صحيح. أخرجه مسلم (٤٠٥).

(٣) حديث صحيح. أخرجه البخارى (٨/ ٩٥)، ومسلم (٤٠٧).

(٤) حديث صحيح. أخرجه البخارى (٨/ ٩٦).

خطورة أذية آل البيت

من تعرض لأحد من أهل البيت بالأذية فقد عرض نفسه للخطر العميم، والعذاب الأليم كما يتضح ذلك من الحديث التالى:

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن رسول الله -ﷺ- قال:

«يا بنى عبد المطلب، إنى سألت الله لكم ثلاثًا:

سألته أن يثبت قائمكم، وأن يعلم جاهلكم.

وسألته أن يجعلكم حوداء، نجداء، رحماء، فلو أن رجلاً صفن بين الركن، والمقام، وصلى وصام، ثم مات وهو مبغض لأهل بيت محمدٍ دخل النار»[(١)] .

فمن أذى أهل البيت، فقد أذى النبى -ﷺ-.

ومن أذى النبى -ﷺ-، فقد أغضب الله تعالى.

ومن أغضب الله تعالى، فقد حاق به العذاب.

ولذا يحرم تحريمًا شديدًا أذية أهل البيت بالقول أو الفعل، أحياءً كانوا أو أمواتًا.

---

(١) حديث حسن. أخرجه الحاكم (٣/١٤٨، ١٤٩)، وصححه على شرط مسلم، وأقره الذهبى، وأخرجه الطبرانى (١١٤١٢) فى الكبير.

مكانة آل البيت الكرام

ملايين الملايين من المسلمين فى غابر أزمانهم، ولاحق أعمارهم، وكل من ينطق بلا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ممتلىء قلبه حبًّا واعتزازًا لآل البيت النبوى الكريم: بما لهم من منزلة فى القلوب، ومكانة فى النفوس؛ لأنهم الدوحة الطيبة، والمنبت الأصيل، والفرع الكريم لشجرة النبوة، هم محط الرسالة، من أفواههم تتفجر ينابيع الحكمة، ومن قلوبهم تفاض الرحمة، إن نطقوا صدقوا، هم موضع سر النبى -ﷺ-، وملجأ أمره، ولهذا فهم أساس الدين، وعماد اليقين ـ خطب الإمام الحسن[1] -رضي الله عنه-، فقال: نحن أئمة المسلمين، وحجج الله على العالمين، وسادة المؤمنين، وقادة الغر المحجلين، وموالى المسلمين، وأهل البيت هم الذين يقول الحق سبحانه وتعالى فى شأنهم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب:٣٣]

وعن أم سلمة -رضي الله عنها-: أن النبى -ﷺ-، كان فى بيتها على منامة له، عليه كساء خيبرى، فجاءت فاطمة -رضي الله عنها- بطعام، فقال النبى -ﷺ-: «ادعى زوجك وابنيك حسنًا وحسينًا»[3] ، فدعتهم، فبينما هم، يأكلون إذ نزلت على النبى -ﷺ- الآية الكريمة فأخذ النبى -ﷺ- بفضلة كسائه فغشاهم إياها ثم أخرج يده من الكساء، وألوى بها إلى السماء ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتى وخاصتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»[4] . قالها ثلاثًا، قالت أم سلمة: فأدخلت رأسى فى الستر، فقلت: يا رسول الله، وأنا معكم، فقال: «إنك على خير»[5] . هؤلاء أهل البيت الذين تشرفت بهم الدنيا واستنارت بهم

---

(١) هو الإمام الحسن بن على -رضي الله عنهما-.

(٢) انظر الطبرى (٢١/ ٣).

(٣) حديث صحيح. أخرجه الترمذى (٣٢٠٥)، (٣٧٨٧)، والطبرانى (٢٣/ ٣٣٣) فى الكبير.

(٤) ، (٥) سبق تخريجهما.

القلوب. كان جبريل ينزل فى بيتهم، ويصعد من عندهم، يقول الإمام الحسن - رضي الله عنه -: «إنا أهل البيت أكرمنا الله بالإسلام، واختارنا واصطفانا وأذهب عنا الرجس وطهرنا تطهيراً، لم يفترق الناس فرقتين إلا جعلنا الله فى خيرهما من آدم إلى جدى محمد - ﷺ -، فلما بعثه الله للنبوة، واختاره للرسالة، وأنزل عليه كتابه، ثم أمره بالدعاء إلى الله عز وجل، كان أبى أول من استجاب لله ولرسوله، وأول من آمن وصدق الله ورسوله - ﷺ -. ولقد قال الله فى كتابه المنزل على نبيه المرسل: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود:١٧] يقول: «فجدى الذى على بينة من ربه. وأبى الذى يتلوه وهو شاهد منه» وآل البيت الذين أمرنا الله بمودتهم، وحسن معاملتهم قال الله لنا على لسان نبيه: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى:٢٣] فالنبى - ﷺ - لم يطلب على تبليغ الدعوة أى مال، ولم يتطلع إلى جاه وإنما طلب مودة قرباه ورعاية أمورهم، وهذه المودة مطلوبة من كل مسلم. وفى هذا السياق خطب النبى - ﷺ - فقال: «أذكركم الله فى أهل بيتى». قالها ثلاثًا ـ فقيل لزيد ابن أرقم راوى الحديث: من هم أهل البيت قال: من حرمت عليهم الصدقة. من اقترب منهم وعاش فى رحابهم وامتلأ قلبه بحبهم، وتخلق بأخلاقهم، وعمل بأعمالهم، حشر معهم.

روى الحاكم فى المستدرك أن أبا ذر أخذ بباب الكعبة، ثم قال: من عرفنى فأنا من عرفتم، ومن أنكرنى فأنا أبو ذر. سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «مثل أهل بيتى مثل سفينة نوح من ركبها نجا. ومن تخلف عنها غرق»[1] إن

---

(١) حديث ضعيف. أخرجه أبو الشيخ (٣٣٣) فى الأمثال، والحاكم (٢/ ٣٤٣)، (٣/ ١٥٠، ١٥١)، والطبرانى (١/ ١٣٩، ١٤٠) فى الصغير، و (٣/ ٤٥و ٤٦) فى الكبير، والبزار كما فى المجمع (٩/ ١٦٨)، وابن أبى شيبة (١/ ١٥١، ١٥٦)، وأبو نعيم (٤/ ٤٠٦) فى الحلية، وضعفه الهيثمى فى المجمع (٩/ ١٦٨)، والألبانى فى ضعيف الجامع (٥٢٥١).

تمثيلهم بسفينة نوح صريح فى وجوب اتباعهم، لأن من اتبع أهل البيت أصاب الحق ونجا من سخط الله وفاز برضوانه، ومن خالفهم هلك ووقع فى سخط الله. فمن لجأ إليهم فى الدين، وأخذ عنهم القواعد والأصول، فقد أخذ بالحق ومن أبغضهم، وترك العمل بهديهم والتخلق بأخلاقهم، فهو منافق.

خطب الإمام الحسين -رضي الله عنه- فقال: «نحن حزب الله الغالبون، ونحن عترة رسوله الأقربون، ونحن أهل بيته الطيبون، ونحن أحد الثقلين اللذين خلفهما جدى -ﷺ- فى أمته. ونحن ثانى كتاب الله فيه تفصيل كل شىء لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد». وهو يشير إلى قول رسول الله -ﷺ- فيما رواه زيد بن أرقم: «أنا تارك فيكم ثقلين، أولهما كتاب الله فيه الهدى، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به». فحث على كتاب الله، ورغب فيه، ثم قال: «وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى»[1] .

«إنى تارك فيكم أمرين لن تضلوا إن تبعتموهما، وهما كتاب الله وعترتى أهل بيتى، فلا تتقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا، ولا تعلوهم فإنهم أعلى منكم» يقول الإمام على ـ كرمَ الله وجهه ـ: «انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سمتهم واتبعوا أثرهم، فإنهم يخرجون بكم إلى هدى ولن يعيدوكم فى روى فإن لبدوا فالبدوا، وإن نهضوا فانهضوا، ولا تسبقوهم فتضلوا، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا» ومن كلامه ـ كرم الله وجهه ـ. يذكر أهل البيت: «هم عيش العلم وموت الجهل، يخبركم حلمهم وعلمهم، وظاهرهم عن باطنهم، وصمتهم عن حكم منطقهم، لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه، هم دعائم الإسلام، وولائهم الاعتصام، بهم عاد الحق إلى نصابه وانزاح الحق عن مقامه،

(١) حديث صحيح. أخرجه مسلم (٢٤٠٨)، وأحمد (٤/ ٣٦٧)، والدارمى (٢/ ٤٣١) فى سننه، والحاكم (٣/ ١٤٨).

وانقطع لسانه عن منبته، عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية، لا عقل نخاع ورواية. فإن رواة العلم كثير.. ووعاته قليل».

فالواجب على المسلم أن يمتلىء قلبه بحبهم، وأن يحسن إليهم، ويجعلهم فى الكلام ويذكرهم بالتقدير، فعن رسول الله -ﷺ-: «استوصوا بأهل بيتى خيراً، فإنى أخاصمكم عنهم غداً، ومن أكن خصيمه أخصمه الله، ومن أخصمه الله أدخله النار»[1] .

❑❑❑

(١) لا أصل له.

كل سبب ونسب ينقطع إلا آل البيت

ولقد توفى لصفية بنت عبد المطلب -رضي الله عنها- ولد، فبكت عليه فقال لها رسول الله -ﷺ-: «تبكين يا عمة، من توفى له ولد فى الإسلام كان له بيت فى الجنة» فلما خرجت لقيها زوجها، فقال لها: إن قرابتك محمداً لن تغنى عنك من الله شيئًا، فبكت فسمع النبى -ﷺ- صوتها ففزع من ذلك فخرج، وكان -ﷺ- مكرمًا لها يبرها ويحبها، فقال لها: «يا عمة تبكين، وقد قلت لك ما قلت». قالت: ليس ذلك أبكانى وأخبرته بما قال الرجل، فغضب -ﷺ- وقال: «ما بال أقوام يزعمون أن قرابتى لا تنفع!! إن كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة إلا حسبى ونسبى وأن رحمى موصولة فى الدنيا والآخرة»(١) . وهذا الذى دعا عمر بن الخطاب أن يتزوج بالسيدة أم كلثوم بنت الإمام على(٢) ، وكانت صغيرة السن. وقد ألح عمر على الإمام على. حتى رضى بذلك، وقد خطب عمر -رضي الله عنه- فقال: أيها الناس، والله ما حملنى على الإلحاح على علىٍّ فى ابنته إلا أنى سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: «كل حسب ونسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا حسبى ونسبى وصهرى»(٣) .

❑❑❑

(١) حديث حسن بطرقه. أخرجه الحاكم (٣/ ١٤٢)، وأحمد (٤/ ٣٢٢)، وابن سعد (٨/ ٤٦٣) فى الطبقات الكبرى، والطبرانى كما فى المجمع (١٠/ ١٧).

(٢) أم كلثوم بنت على بن أبى طالب: من زوجات الفاروق -رضي الله عنه-: أم كلثوم بنت على بن أبى طالب الهاشمية، شقيقة الحسن والحسين.

الجد هو النبى -ﷺ- والأم هى سيدة نساء العالمين، والوالد هو أمير المؤمنين، وهى من فواضل نساء عصرها.

ولدت فى حدود سنة ست من الهجرة، وشبت وترعرعت فى بيت الأبوين الفاضلين، فتعلمت من علمهما، وعبدت الله تعالى عبادة التقيات الصالحات.

(٣) سبق تخريجه.

زواج الفاروق من أم كلثوم

خطب عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أم كلثوم بنت أبى بكر وهى صغيرة، وأرسل فيها إلى عائشة، فقالت: الأمر إليك. فقالت أم كلثوم: لا حاجة لى فيه.

فقالت عائشة: ترغبين عن أمير المؤمنين؟!

قالت: نعم، إنه خشن العيش، شديد على النساء، فأرسلت عائشة إلى عمرو بن العاص فأخبرته، فقال: أكفيكِ، فأتى عمر فقال: يا أمير المؤمنين بلغنى خبر أعيذك بالله منه، قال: وما هو؟ قال: خطبت أم كلثوم بنت أبى بكر! قال: نعم، أفرغبت بى عنها أم رغبت بها عنى؟!

قال: لا واحدة، ولكنها حدثة نشأت تحت كنف أمير المؤمنين فى لينٍ ورفقٍ، وفيك غلظة، ونحن نهابك، وما نقدر أن نردك عن خلقٍ من أخلاقك، فكيف بها إن خالفتك فى شيءٍ، فسطوت بها؟!

كنت قد خلفت أبا بكر فى ولده بغير ما يحق عليك.

قال: فكيف بعائشة وقد كلمتها؟ قال: أنا لك بها، وأدلك على خير منها، أم كلثوم بنت على بن أبى طالب، تعلق منها بسبب من رسول الله -ﷺ-[1] .

النسب المبارك:

خطب عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أم كلثوم وهى صغيرة، فقيل له: ما تريد إليها؟ قال: إنى سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: «كُلُّ سببٍ، ونسبٍ منقطع

(١) تاريخ الطبرى (٤/ ١٩٩، ٢٠٠).

يوم القيامة إلا سببى ونسبى»[١] .

فقال عمر لـعلى: زوِّجنيها أبا حسن، فإنى أرصد من كرامتـها ما لا يرصد أحد، قال: فأنا أبعثها إليك، فإن رضيتها، فقد زوَّجتُكها ـ يعتلُّ بصغرها ـ قال: فبعثها إليه بِبُردٍ، وقال لها: قولى له، هذا البرد الذى قلت لك، فقالت له ذلك، فـقال: قـولى له: قد رضـيتُ ـ رضى الله عنك ـ، ووضع يده على سـاقهـا، فكشـفها، فـقالت: أتـفعل هذا؟ لولا أنك أمـير المومنين، لكسـرتُ أنفك، ثم مضت إلى أبيـها، فأخبـرته، وقالت: بعثـتنى إلى شيخ سوءٍ! قـال: يا بنية إنه زوجك.

تم الزواج، وجـاء عمـر بن الخطاب -رضي الله عنه- إلى مَجلس المهاجـرين فى الروضة، ثم جاء على، وعثمان، والزبيـر، وطلحة، وعبد الرحمن بن عوف -رضي الله عنهم- فقال عمر:

رفِّئونى ـ باركـوا لى ـ فقالوا: بمن يا أمير المؤمنـين؟ قال: تزوجت أم كلثوم بنت على، وكـان لى به ـ عليه الصـلاة والسلام ـ النسب والسـبب، فأردت أن أجمع إليه الصهر، فرفئوه.

ودخل بهـا فى ذى القعدة سـنة ١٧ هـ، وقد أمهـرها أربعين ألفًـا، وظلت عنده حتى قُتل -رضي الله عنه-.

ويُحكَى أن الإمام عليًـا ـ كرم الله وجهه ورضى عنه ـ أقـبل على قوم وقال لهم: أى آيةٍ فى كتاب الله أرْجَى عندكم؟

---

(١) حديثٌ حسنٌ: أخرجه الحاكم (٣/ ١٤٢)، وابن سعد (٨/ ٤٦٣) فى طبقاته، وأحمد (٤/ ٣٢٢).

أى: ما هى الآية التى تعطى الرجاء والطمأنينة والبشرى بأن الحق سبحانه يقبلنا ويغفر لنا ويرحمنا، فقال بعضهم: هى قول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء:١١٦].

فقال الإمام على: حسنة، وليست إياها، أى: أنها آية تحقق ما طلبه، لكنها ليست الآية التى يعنيها.

فقال بعض القوم: إنها قول الحق سبحانه:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء:١١٠].

فكرر الإمام على: حسنة، وليست إياها.

فقال بعض القوم: هى قول الحق سبحانه:

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر:٥٣].

فقال الإمام على: حسنة، وليست إياها.

فقال بعضهم: هى قوله سبحانه:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [آل عمران:١٣٥].

فقال الإمام على: حسنة، وليست إياها.

وصمت القوم وأحجموا، فقال الإمام على كرَّم الله وجهه: ما بالكم يا

معشر المسلمين؟ وكأنه يسألهم: لماذا سكتم؟. . فقالوا: لا شيء.

وهكذا جعل الإمام على التشويق أساسًا يبنى عليه ما سوف يقول لهم، واشرأبت أعناقهم، وأرهفوا السمع، فقال لهم الإمام على: سمعت حبيبى رسول الله ﷺ يقول: «أرْجَى آية فى كتاب الله هى قول الحق سبحانه:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴾ [هود:١١٤].

يا على إن أحدكم ليقوم من وضوئه فتتساقط عن جوارحه ذنوبه، فإذا أقبل على الله بوجهه وقلبه لا ينفتل ـ أى: لا يلتفت ـ إلا وقد غفر الله له كل ذنوبه كيوم ولدته أمه، فإذا أحدث شيئًا بين الصلاتين فله ذلك ـ ثم عدَّ الصلوات الخمس واحدة واحدة، فقال: ـ بين الصبح والظهر، وبين الظهر والعصر، وبين العصر والمغرب، وبين المغرب والعشاء، وبين العشاء والفجر»، ثم قال ﷺ: «يا على إنما الصلوات الخمس لأمتى كنهر جارٍ بباب أحدكم، أو لو كان على جسد واحد منكم درن ثم اغتسل فى البحر، أيبقى على جسده شيء من الدر؟ قال: فذلكم والله الصلوات لأمتى».

ولذلك لو نظرنا إلى الأعمال لوجدنا كل عمل له مجاله فى عمره إلا مجال الصلاة، فمجالها كل عمر الإنسان.

المؤمن يفرح حين ينتقل من الدنيا الفانية إلى الحياة الخالدة الباقية، ومن النعمة إلى المنعم، ومن الحياة بالأسباب إلى الحياة مع المسبِّب، فنحن فى الدنيا لابد أن نأخذ بالأسباب لنصنع ما نريد، والمثال: أنك إنْ أردت أن تأكل فلا بد من أن تطهو الطعام أو أن يُعدّه لك غيرك، وإنْ أردتَ أن تلبس فلابد لك ممن

يصنع لك القماش ويحيك الثوب. ووراء كل نتيجة توجد سلسلة طويلة من الأسباب، فهناك الذى يزرع، والذى يحصد، والذى ينقل إلى المطحن أو إلى المصنع، والذى يطحن الدقيق أو ينسج القماش، أما فى الآخرة فلا توجد أسباب، بل بمجرد أن يخطر الشىء على بالك تجده أمامك، أليست هذه حياةَ نعيمٍ؟

إذًا: فالذى تنفرج أساريره ساعة الموت هو المؤمن، والذى ينقبض وجهه ويتشنج عندما يأتيه مَلَكُ الموت هو الكافر والعاصى؛ لأنه سينتقل من نعيم حتى ولو كان نسبيًّا إلى عذاب رهيب.

وقد قيل للإمام على رضي الله عنه: يا إمام، أريد أن أعرف أأنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة؟ فقال الإمام علىّ: الله أرحم من أن يجعل جواب هذا السؤال عندى وجعل جواب السؤال عندك أنت، إن كنت تحب من يدخل عليك وهو يريد أن يأخذ منك أكثر مما تحب من يدخل عليك وهو يريد أن يعطيك هدية تكون من أهل الآخرة.

أى: إذا دخل عليك إنسان يطلب صدقة أو مالاً فاستقبلته بترحاب وتحية وتعطيه وأنت مسرور تكون من أهل الآخرة؛ لأنك تعرف أنه أخذ منك فى الفانية ما يحمله لك أجرًا فى الآخرة التى تعمل من أجلها، ولذلك تحبه.

□□□

علي بن أبى طالب وأقوى الأشياء

يقول الحق سبحانه:

﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾ [الإسراء: ٥٠].

أى: قُلْ ردًّا عليهم: إنْ كُنتم تستبعدون البعث وتستصعبونه مع أنه بعثٌ للعظام والرُّفات، وقد كانت لها حياة فى فترة من الفترات، ولها إلْف بالحياة، فمن السهل أن نعيدَ إليها الحياة، بل وأعظم من ذلك، ففى قدرة الخالق سبحانه أن يعيدكم حتى وإنْ كنتم من حجارة أو من حديد، وهى المادة التى ليس بها حياة فى نظرهم.

وكأن الحق سبحانه يتحدَّاهم بأبعد الأشياء عن الحياة، ويتدرج بهم من الحجارة إلى الحديد؛ لأن الحديد أشد من الحجارة وهو يقطعها، فلو كنتم حجارة لأعدناكم حجارة، ولو كنتم حديدًا لأعدناكم حديدًا.

ثم يترقى بهم إلى ما هو أبعد من ذلك، فيقول تعالى:

﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ [الإسراء: ٥١].

قوله تعالى: ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ﴾ [الإسراء: ٥١].

أى: هاتوا الأعظم فالأعظم، وتوغلوا فى التحدِّى والبُعْد عن الحياة، فأنا قادر على أن أهبَ له الحياة مهما كان بعيدًا عن الحياة على إطلاقها.

وقوله: ﴿ مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ﴾ [الإسراء: ٥١].

يكبر: أى يعظُم من كَبُر يكبُر. ومنه قوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف:٥] أى: عَظُمت: والمراد: اختاروا شيئًا يعظم استبعادُ أن يكون فيه حياة بعد ذلك، وغاية ما عندهم فى بيئتهم الحجارة والحديد، فهُما أبعد الأشياء عن الحياة، وقد اتفقوا على ذلك فليس فى محيط حياتهم ما هو أقسى من الحجارة والحديد. ولكن الحق سبحانه وتعالى ارتقى بهم فى فَرْضية الأمر إلى أن يختاروا وتجتمع نفوسهم على شىء، يكون أعظمَ استبعاداً من الحجارة والحديد.

ونلاحظ فى قوله تعالى: ﴿مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ [الإسراء:٥١] جاء هذا الشىء مُبْهَمًا؛ لأن الشىء العظيم الذى يعظُم عن الحجارة والحديد استبعاداً عن أصل الحياة مختلفٌ فيه، فإن اتفقوا فى أمر الحجارة والحديد فقد اختلفوا فى الأشياء الأخرى، فجاءت الآية مبهمة ليشيع المعنى فى نفس كل واحد كُل على حسب ما يرى.

بدليل أنهم حينما سألوا الإمام عليًا ـ ؓ، وكرم الله وجهه ـ عن أقوى الأجناس فى الكون، وقد علموا عن الإمام على سرعة البديهة والتمرُّس فى الفُتْيَا، فأرادوا اختباره بهذا السؤال.

إن سيدنا عليًا كان مشهوراً فى الشباب بالقوة، ولم تكن القوة قوةَ جسد فقط، ولكنها قوةُ عقل ومنطق.

وقال الناس: نريد أن نمتحن على بن أبى طالب.

وكانوا قد اختلفوا حول أقوى مخلوقات الله. وذهبوا إلى سيدنا على فقالوا:

ـ يا أبا الحسن نريد أن نعرف أىَّ خلق الله أقوى من الآخر؟

ـ ولم يُفاجأ على بن أبى طالب. وبسط يديه فى هدوء، وقال:

ـ أشد جنود الله عشرة:

الجبال الرواسى.

والحديد يقطع الجبال.

والنار تذيب الحديد.

والماء يطفىء النار.

والسحاب المسخر بين السماء والأرض يحمل الماء.

والريح يقطع السحاب.

وابن آدم يغلب الريح.. يستتر بالثوب أو الشىء ويمضى لحاجته.

والسُكْر يغلب ابن آدم.

والنوم يغلب السُكْر.

والهمُّ يغلب النوم.

فأشد جنود الله الهمّ.

وإذا نظرنا إلى هذا الترتيب المنطقى.. فإننا نجد الهموم أشد الأحاسيس تدميراً للإنسان، والهموم هى تيارات من المخاوف والمشاعر تستبد بالنفس الإنسانية فتبدد طاقتها، وتبدد ملكاتها، وتجعل المصيبة فيما فات، وتؤكد الإحساس بالكارثة فيما هو آت.

وإذا أراد الإنسان أن ينتصر على الهموم فلا مخرج منها إلا الإيمان.

إن المؤمن يعرف أن المصائب تصنعها يد الإنسان، ودرسها الحقيقى أنها تعيد تربية الإنسان حتى يتلافى تكرار البلاء.

إن خصوم الإسلام يريدون حَصْر الإسلام فى أنه عبادات فقط، لكن الإسلام أسلوب وتفكير وحياة وجدانٍ وحركة سلوك يمشى بها الإنسان ليعمر الكون بمنهج المكوِّن وبإيمان الموحِّد، وفى ذلك شفاء من الهمِّ والغمِّ والكرب.

كانت قولة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فى على بن أبى طالب رضي الله عنه وكرم وجهه:

«بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن» قولة ذات دلالة.

وسبب هذا القول من سيدنا عمر أن صحابيًّا جليلاً أظنه حذيفة دخل على الخليفة عمر بن الخطاب، فسأله سيدنا عمر السؤال التقليدى:

ـ كيف أصبحت؟

فأجاب حذيفة:

ـ أصحبت أحب الفتنة.

وأكره الحق..

وأصلى بغير وضوء..

ولى فى الأرض ما ليس لله فى السماء..

وعندما سمع الخليفة عمر هذا الرد غضب.. ودخل عليه على بن أبى طالب فى لحظة غضبه هذه. فقال سيدنا على للخليفة عمر بن الخطاب:

ـ ما لى أراك مُغضبًا يا أمير المؤمنين؟

قال عمر بن الخطاب:

ـ سألت حذيفة عن حاله فقال: «أصبحت أحب الفتنة، وأكره الحق وأصلى بغير وضوء، ولى فى الأرض ما ليس لله فى السماء».

فقال على بن أبى طالب كرَّم الله وجهه:

ـ لقد صدق يا أمير المؤمنين.

فقال عمر بن الخطاب:

ـ أو تقولها يا أبا الحسن؟

فقال على:

ـ نعم.. فقد أصبح يحب الفتنة.. أى: يحب ماله وولده..

﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال:٢٨].

وأصبح يكره الحق.. أى: يكره الموت.

ومَنْ منّا يحب الموت يا أمير المؤمنين؟

ويصلى بغير وضوء.. أى: يقول: اللهم صَلِّ وسلم على سيدنا محمد.

وله فى الأرض ما ليس لله فى السماء.. أى: له زوجة وولد.

فقال سيدنا عمر بن الخطاب:

ـ بئس المقامُ بأرضٍ ليس فيها أبو الحسن.

ونفهم من هذا الحوار أن بعض الألفاظ حين تطلق فـإن الألفاظ تحمل معانى

متعددة، ويذهب الذهن غالبًا إلى معنى هو القمة فيها، بعد فحص الألفاظ وفهم المعنى الذى وراءها.

أما سيدنا عمر فقد خشى من اللفظ أن يؤدى إلى معنى خاطئ.. فعندما قال حذيفة: أحب الفتنة، وأصلى بغير وضوء، وأكره الحق، ولى فى الأرض ما ليس لله فى السماء.. عندما قال حذيفة ذلك خشى عمر معناها الذى يضيع به الإيمان، وعندما دقق فيها على بن أبى طالب وقاسها بالفكر المحقق على من قالها.. فوجد فيها إيمانًا عميقًا.

فحذيفة كما يعرفه على بن أبى طالب هو صحابى مؤمن، وعندما يقول حذيفة: إنه يصلى بغير وضوء فإن عليًّا يفهم أن هذا الرجل الورع إذا قال ذلك فهو يعنى الدعاء أو الصلاة على سيد البشر محمد ﷺ، ولا يمكن أن يعنى بذلك الصلاة المبدوءة بالتكبير والمختومة بالسلام.. لأن هذه الصلاة شرطها الطهارة.

إذًا..

فالمهم أن نعرف المعنى الأساسى، والذى يعنيه القائل، ومَنْ هو هذا القائل.

إن سيدنا عمر عندما سمعها أول مرة غضب لها.. وعندما فسرها على بن أبى طالب جلب له هذا التفسير السرور، وهكذا رأينا أن الذى انفعل ضدها أولاً.. هو الذى انفعل بالسرور لها ثانيًا.. وهذا يدل على أن العقل مهمته أن يفكر، ويأتى بالتفسير المناسب للموقف.

❑❑❑

جدال على بن أبى طالب وفاطمة الزهراء

يقول تعالى: ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ [الكهف:٥٤] أى: كثير الخصومة والتنازع فى الرأى، والجدل: هـو المجاورة ومحاولة كل طرف أن يثبت صِدْق مذهبه وكلامه، والجدل إمـا أن يكون بالباطل لتثبيت حجة الأهواء وتراوغ لتبـرر مذهبك ولو خطأً، وهذا هو الجَدل المـعيب القائم عـلى الأهواء، وإما أن يكون الجدل بالحق وهو الجدل البناء الـذى يستهدف الوصول إلى الحقـيقة، وهذا بعيد كل البعد عن التحيز للهوى أو الأغراض.

ولما تحدَّث القرآن الكريم عن الجـدل قال تعالى: ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت:٤٦]، وقال: ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥].

والنبى ﷺ لما مرَّ على علىٍّ وفاطمة -رضى الله عنهما- ليوقظهما لصلاة الفجر، وطرق عليهما الباب مرة بعد أخرى، ويبدو أنهمـا كانا مستغرقيْن فى نوم عميق، فنادى عليهما ﷺ: «ألا تصلون؟»[1] فردَّ الإمام على قائلاً: يا رسول الله إن أنفسنا بيد الله، إن شاء أطلـقها وإن شـاء أمسكهـا، فضـحك النبى ﷺ وقال: ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ [الكهف:٥٤].

لأن الإنسان له أهواء متعددة وخواطر مـتباينة، ويحاول أنْ يُدلّل على صحة أهوائه وخواطره بالحجة، فيقارع الحق ويغالط ويراوغ.

ولو دققتَ فى رأيه لوجـدتَ له هوى يسعى إليه ويمـيل إلى تحقيـقه، وترى

(١) حديث صحيح. أخرجه أحمد (١/ ٧٧)، والبخارى (٧٣٤٧)، ومسلم (٧٠٦).

ذلك واضحٌ إذا اخترتَ أحد الطرق تسلكه أنت وصاحبك مثلاً لأنه أسهلها وأقربها، فإذا به يقترح عليك طريقًا آخر، ويحاول إقناعك به بكل السُّبل، والحقيقة أن له غرضًا فى نفسه وهوًى يريد الوصول إليه.

❑❑❑

سيرة على بن أبى طالب

(أ) نسبه ومولده ونشأته:

أمير المؤمين، وخاتم الخلفاء الراشدين.

«على بن أبى طالب» فى عداد أشراف مكة نسبًا، ومن أرفعهم قدراً وأعلاهم منزلة. فهو:

على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك، القرشى، أبو الحسن، وأبو تراب.

فنسبه شريف لأنه هو نسب النبى -ﷺ-، وهو خير نسب بين الخلق ويلتقى مع نسب أبى بكر، وعمر، وعثمان رضي الله عنهم أجمعين- فى الجد الثامن «كعب».

وأمه: فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصى، وهى بنت عم أبى طالب، أسلمت وهاجرت، وتوفيت فى حياة النبى -ﷺ- بالمدينة[1].

كنيته: أبو تراب.

ولتكنيه بأبى تراب قصة طريفة يقصها علينا سهل بن سعد -رضي الله عنه- فيقول:

---

(١) انظر: نسب قريش (ص/ ٤٠) للزبيرى، المستدرك للحاكم (٣/ ١٠٨)، المعجم الكبير للطبرانى (١/ ٩٢)، طبقات ابن سعد (٣/ ١٩)، الاستيعاب لابن عبد البر (٣/ ١٠٨٩) صفة الصفوة لابن الجوزى (١/ ٣٠٨)، وأسد الغابة لابن الأثير (٤/ ١٩)، البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ٣٤٣) الإصابة لابن حجر (٤/ ٣٦٩) وتاريخ الخلفاء للسيوطى (ص/ ٣٦٦) وتاريخ الإسلام للذهبى (٣/ ٦٣١)، والتهذيب لابن حجر (٧/ ٣٣٤).

ما كان لعلىٍّ اسمٌ أحبّ إليه منه، إن كان ليفرح إذا دُعى به.

قال أبو حازم ـ رحمه الله ـ: أخبرنا عن قصته، لم سمَى؟ قال: دخل النبى -ﷺ- على فاطمة فقال: «أين ابن عمك؟» فقالت: قد عان بينى وبينه شىء فغاظنى ـ وفى رواية فغاضبنى ـ فخرج ولم يقل عندى، فقال لإنسان: «اذهب انظر أين هو».

فجاء فقال يا رسول الله، هو راقدٌ فى المسجد، فجاءه رسول الله -ﷺ- وهو مضطَّجعٌ قد سقط رداؤه عن شِقه، فأصابه ترابٌ، فجعل رسول الله -ﷺ- يمسح عنه التراب ويقول:

«قُمْ أبا تراب، قُم أبا تراب»[1] وفى رواية أخرى: «اجلس يا أبا تراب».

(ب) مولده ونشأته:

ولد -رضي الله عنه- فى السنة الثانية والثلاثين من ميلاد النبى -ﷺ-، وذلك فى مكة المكرمة، وتربى فى حجر النبى -ﷺ- صغيرًا، ولذا كان إسلامه مبكرًا.

شبَّ علىٌّ متحليًا بمكارم الأخلاق مقتديًا بالنبى -ﷺ- فى أفعاله، وأقواله.

ونشأ طاهر العقيدة، صحيح التوحيد، لم يتدنس بدنس الجاهلية، ولم يعبد وثنًا قط، ولم يسجد لصنم قط.

ولما بعث النبى -ﷺ- كان أول الغلمان إسلامًا، -رضي الله عنه- وأرضاه[2].

---

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (١/ ١٣٠)، (٨، ٧٨)، ومسلم (٩ ٠ ٣٤)، والبيهقى (٢/ ٤٤٦) فى سننه الكبرى.

(٢) حديث صحيح. أخرجه البخارى (٥/ ٣٣)، (٨/ ٥٦)، والطبرانى (٦/ ٣٠٦، ٨١٤) فى الكبير.

ولعل فى الخبر التالى مـا يبين بجلاءٍ طهارة على -ﷺ- من دنس الجاهلية وبيان أولية إسلامه.

يقول عـفيف الكندى -ﷺ-: كنت امرأً تاجرًا، فـقدمت الحجَ، فـأتيت العباس بن عبد المطلب فوالله إنى لعـنده يومًا، إذ خرج رجل من خباءٍ قريب منه فنظر إلى السماء.

فلما رأى الشمس زالت قام يصلى، ثم خـرجت امرأةٌ من ذلك الخباء الذى خـرج منه ذلك الرجل فـقامت خلـفه تصلى، فـقلت للعـبـاس: مَنْ هذا يا أبا الفضل؟

قال: هذا مـحمد بن عـبد الله بن عبد المطلـب ابن أخى، فقلت: مَنْ هذه المرأة؟

قال: خديجة بنت خويلد زوجته، ثم خرج غلامٌ حين راهق الحلم من ذلك الخباء، فقام يُصلى معه، فقلت: ومن هذا الفتى؟ قال: على بن أبى طالب، ابن عمه.

قلت: فـما هذا الذى يصنع؟ قـال: يصلى، ويزعم أنه ستـفتح عليـه كنوز كسرى وقيصر.

قال: عفيف الكندى قد أسلم بعد ذلك، فحسن إسلامه(١).

وفى رواية أخرى يقول عفيف -ﷺ-:

جئت فى الجـاهلية إلى مكة فنزلت إلـى العباس بن عـبد المطلب، فـبينا أنا

---

(١) خبر حسن: أخرجه (١٧٨٧)، والنسائى (٥) فى الخـصائص، وابن سعد (٨/ ١٧، ١٨) فى طبقاته، وابن عبد البر (٣/ ١٣٤٣) فى الاستيعـاب والحاكم (٣/ ١٨٣) وصححـه، والطبرانى (١٨/ ١٠٠، ١٠١) فى الكبير والطبرى (٣/ ٣١٢، ٣١٣) فى تاريخـه، وابن الأثير (٤/ ٤٨، ٤٩) فى أسد الغابة وعزاه فى تعليقه على المسند (٣/ ٢١٨ ـ ٢٢٣) فقد أجاد وأفاد.

عنده، وأنا أنظر إلى الكعبة، وقد حلقت الشـمس وارتفعت، إذ جاء شابٌ حتى دنا من الكعبة، فرفع رأسه، وانتصب قائمًا مستقبلاً، إذ جاء غلامٌ حتى قام عن يمينه، ثم لم ألبس إلا يسيرًا حتى جاءت امرأةٌ فقامت من خلفهما.

ثم ركع الشاب، وركع الغلام، وركـعت المرأة، ثم رفع الشاب رأسه، ورفع الغلام، ورفـعت المرأة، ثم خر الشاب ساجـدًا وخر الغلام، وخرت المرأة فـقال العـباس: تدرى مَنْ هذا؟ قلت: لا. قـال: هذا مـحمـد بن عبـد الله بن عبـد المطلب، ابن أخى، وهذا على بن أبى طالب، وهذه خديجـة بنت خويلد زوجة ابن أخى.

إن ابن أخى هذا حدثنا أن ربه رب السموات والأرض أمره بهذا الدين الذى هو عليه، ولا والله مـا أعلم على وجه الأرض أحدًا على هذا الدين غـير هؤلاء الثلاثة.

قال عفيف الكندى: فتمنيت أن أكون رابعهم.

فبدأ الإمام على -رضي الله عنه- حياته بعبادة الله وحده، وكفر بما يُعبد من دون الله تعالى، ومكث على إسلامه سرًّا فترة خوفًا من أبى طالب.

ولذا سئل محمد بن كعب القرظى ـ رحمه الله ـ:

عن أول من أسلم: على أم أبو بكر -رضي الله عنهما-؟

قال: سبـحان الله!! علىّ أولهما إسلامًـا، وإنما شُبِّه على الناس، لأن عليًّا أخفى إسـلامه من أبى طالب، وأسلم أبو بكر فأظهر إسـلامه ولا شك أن عليًّا عندنا أولهما إسلامًا[1] .

---

(١) انظر: الاستيعاب (٣/ ١٠٩٢)، أسد الغابة (٤/ ٩٤).

سيأتى فى كتاب بدء إسلام أمير المؤمنين على -رضي الله عنه- بيان أولية إسلامه من جهة الغلمان، وأولية إسلام الصديق من جهة الأحرار.

فرضى الله عنهما، وأرضاهما.

ونتعرف الآن على الصفات الخلقية التى اتصف بها أمير المؤمنين على بن أبى طالب -رضي الله عنه-:

صفاته الخلقية:

اتصف الإمام على -رضي الله عنه- بصفات خلقية، يحدثنا عنها أبو رجاء العطاردى فيقول:

رأيت عليًّا شيخًا، أصلع كثير الشَّعر، كأنما اجتاب إهاب شاة، ربعة عظيم البطن، عظيم اللحية[1].

ويخبرنا الشعبى ـ رحمه الله ـ أنه رأى عليًّا، ورأسه، ولحيته بيضاء، كأنهما قطن[2].

«اجتاب»: أى لبس، يقال: اجتاب فلانٌ ثوبًا إذا لبسه، والإهاب: الجلد والمعنى: أنه أصلعٌ فى ناصيته، ويكثر الشعر فى جوانب رأسه.

و «ربعة» أى مربوع الخلق، لا بالطويل ولا بالقصير.

ويكمل الشعبى حديثه، فيقول: رأيت عليًّا أبيض اللحية، ما رأيت أعظم

---

(١) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه ابن سعد (٣/ ٣٦) فى طبقاته والطبرانى (١٦١) فى الكبير، وقال الهيثمى فى المجمع (٩/ ١٠٠): رجاله رجال الصحيح.
وأورده ابن الأثير (٤/ ١٣٣) فى أسد الغابة، والذهبى (٣/ ٦٣٣) فى تاريخ الإسلام.

(٢) خبر صحيح: أخرجه ابن سعد (٣/ ٢٧)، وأورده الذهبى (٤/ ٦٣٣).

لحية منه، وفى رأسه زغَيْبَات[١] .

«الزغبات» الشعرات الخفيفة.

ويقول أبو إسحاق: رأيته يخطب، وعليه إزار ورداء، أنزع، ضخم البطن، أبيض الرأس واللحية، وأصلع، أجلح[٢] .

«أجلح» الجلح: ذهاب الشعر من مُقَدَّم الرأس، فإذا انحسر الشعر على جانبى الجبهة، فهو أنزع فإذا زاد قليلاً، فهو أجلح، فإذا بلغ النصف، ونحوه، فهو أجلى.

وقد وصف الكثيرون على بن أبى طالب -رضي الله عنه- ويجمل تلك الصفات الخلقية العلامة ابن عبد البر فيقول:

أحسن ما رأيت فى صفة على -رضي الله عنه- أنه كان ربعة بين الرجال، إلى القصر ما هو، أدعج[٣] العينين، حسن الوجه، كأنه القمر ليلة البدر حسنًا، ضخم البطن، عريض المنكبين، شئن[٤] الكفين، عتداً[٥] أغيد[٦] ، كأن عنقه إبريق فضة.

---

(١) خبر صحيح. أخرجه ابن سعد (٣/ ٢٥)، والطبرانى (١٥٧) فى الكبير، وقال الهيثمى (٩/ ١٠١) فى المجمع، رجاله رجال الصحيح. وأورده الذهبى (٤/ ٦٣٤) فى تاريخه.

(٢) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه ابن سعد (٣/ ٢٥) والطبرانى (١٥٣) وانظر الغابة (٤/ ١٣٣).

(٣) الدعج: السواد وقيل شدة السواد، وقيل: شدة سواد سواد العينين وشدة بياض بياضها، وقيل شدة سوادها مع سعتها.

(٤) شئن: هو الغليظ.

(٥) عتداً: العتد: الشديد التام الخلق.

(٦) أغيد: هو مائل العنق، لين الأعطاف.

أصلع ليس فى رأسه شعر إلا من خلفه، كبير اللحية، لمنكبه مشاش[١] كمشاش السبع الضارى، لا يتبين عضده من ساعده، قد أدمجت إدماجًا، إذا مشى تكفأ[٢] ، وإذا أمسك بذراع رجلٍ أمسك بنفسه فلم يستطع أن يتنفس، وهو إلى السمن ما هو، شديد الساعد واليد، وإذا مشى للحرب هرول، ثبت الجنان، قوى شجاع[٣] .

تلك هى جملة صفات الإمام على بن أبى طالب الخلقية، وبعد تلك الرحلة نتعرف على نسائه الطيبات.

❑❑❑

(١) مشاش: المشاش: رءوس العظام مثل الركبتين والمرفقين والمنكبين والمشاش: كل عظم لا مُخ فيه يمكن تتبعه.

(٢) تكفأ: هو التمايل إلى الأمام كما تتمايل السفينة فى جريها ويقال: أكفأ فى سيره: جار عن القصد.

(٣) انظر: الاستيعاب (٣/ ١١٢٣) لابن عبد البر.

ذكر نسله ونسائه الطيبات

كان للإمام على بن أبى طالب -رضي الله عنه- من النسل:

الحسن: ولُد للنصف من شهر رمضان سنة ثلاث من الهجرة، ومات لخمس ليالٍ خلون من شهر ربيع الأول سنة خمسين، ودُفن ببقيع الغرقد، ويكنى أبا محمد.

والحسين: ويُكنَّى أبا عبد الله، وولُد لخمس ليالٍ خَلَوْن من شعبان سنة أربع من الهجرة، وقتل شهيداً يوم الجمعة، يوم عاشوراء فى المحرم سنة ٦١ هـ.

وزينب: ابنة على الكبرى، وأم كلثوم الكبرى، وأمهم جميعًا: فاطمة بنت رسول الله -ﷺ-.

ومحمد بن على الأكبر، يقال له: ابن الحنفية، وأمه خولة بنت جعفر بن قيس بن مسلمة.

وعمر بن على، ورقيَّة، وهما توأمٌ، أمهما: الصهباء، اسمها أم حبيب بنت ربيعة من بنى تغلب.

والعباس الأكبر: يلقب «السقَّاء» ويكنى أبا قربة، وعثمان وجعفر الأكبر وعبد الله، وقتلوا جميعًا مع الحسين -رضي الله عنه- وأمهم: أم البنين بنت حزام بن خالد بن ربيعة.

وعبيد الله بن على ـ قتله المختار بن أبى عبيد بالدار ـ وأبو بكر بن على وأمهما: ليلى بنت مسعود بن خالد، ويحيى، وعون، وأمهما: أسماء بنت عميس الخثعمية.

ومحمد الأصغر، لأمّ ولَدٍ.

وأم الحسين، ورملة الكبرى، وأمهما: أم سعيد بنت عروة بن مسعود الثقفى.

وأم هانئ وميمونة، وزينب الصغرى، ورملة الصغرى، وأم كلثوم الصغرى، وفاطمة، وخديجة، وأم الكرام، وأم جعفر واسمها جُمانة وأم سلمة، ونفيسة وقيل: إن جمانة غير أم جعفر.

وهن لأمهات أولاد شتى.

وابنة لعلىٍّ لم تُسم لنا، هلكت وهى جارية، وأمها مُحَيَّاةٌ بنت امرئ القيس[1].

فهؤلاء نسل الإمام -رضي الله عنه-، وأمهات أولاده من الحرائر، ملك اليمين.

فجميع ولد على بن أبى طالب -رضي الله عنه- لصلبه أربعة عشر ذكرًا، وتسع عشرة أنثى، وهؤلاء جميع الذين عُرفوا من أولاد على -رضي الله عنه-.

وأول زوجة تزوجها على -رضي الله عنه- فاطمة بنت رسول الله -ﷺ- ولم يتزوج عليها -رضي الله عنها- حتى توفيت عنده.

ثم تزوج أم البنين بنت حزام، وتزوج ليلى ابنة مسعود بن خالد بن مالك الربعى، وتزوج أسماء بنت عُميس الخثعمية، ثم تزوج من الصهباء، أم حبيب بنت ربيعة بن بُجير، وهى أم ولد من السبى الذين أصابهم خالد بن الوليد حيث

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٣/١٩ ـ ٣٠)، نسب قريش (ص٤٠ ـ ٤٦) للزبيرى وصفة الصفوة (١/٣٠٩) لابن الجوزى، تاريخ الطبرى (٥/١٥٣ ـ ١٥٥)، والبداية والنهاية (٧/٣٦١) لابن كثير.

أغار على عين التمر على بنى تغلب، ثم تزوج أمامة بنت أبى العاصى بن الربيع ابن عبد العزى وأم سعيد بنت عروة بن مسعود الثقفى.

وآخر مَنْ تزوج بهن محياة ابنة امرئ القيس بن عدى بن أوس الكلبى.

وقد بقى منهن عند وفاة الإمام -رضي الله عنه- أسماء بنت عميس، وأمامة بنت أبى العاصى، وقد ذكرت لهما الصحبة.

ومن الطرائف فى هذا الكتاب ما رواه الشعبى ـ رحمه الله ـ يقول: تزوج علىٌّ أسماء بنت عميس، فتفاخر ابناها: محمد بن جعفر، ومحمد بن أبى بكر، فقال كل منهما: أنا أكرم منك، وأبى خير من أبيك.

فقال لها علىٌّ: اقضى بينهما.

فقالت: ما رأيت شابًّا خيرًا من جعفر.

ولا كهلاً خيرًا من أبى بكر.

فقال لها علىٌّ: فما أبقيت لنا[1] ؟!

(١) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه ابن السكن كما فى الإصابة (٨/ ٩) لابن حجر.

أولية إسلام الإمام على

كان من فضل الله وتوفيقه أن كان الإمام على بن أبى طالب -رضي الله عنه- من أوائل الذين دخلوا الإسلام، وقد جاءت بذلك الآثار الصحيحة والحسنة، والتى فى مجملها تبين أن عليًّا أول من أسلم من الصحب الكرام.

فهذا زيد بن أرقم -رضي الله عنه- يقول:

أولُ من أسلم مع رسول الله -ﷺ- علىٌّ بن أبى طالب، وأول رجلٍ صلى مع رسول الله -ﷺ- على بن أبى طالب.

قال: أبو حمزة مولى الأنصار: فذكرته لإبراهيم النخعى، فأنكره، وقال: أبو بكر أولُ من أسلم[1].

ولا وجه للإنكار، فإن أبا بكر أول من أسلم من الرجال، وعليًّا أول من أسلم من الصبيان أو الغلمان.

وكان ابن عباس -رضي الله عنهما- يقول:

أول من أسلم من الناس بعد خديجة علىٌّ، وأول مَنْ صلى علىٌّ[2][3].

بل يؤكد الأمر ويوضحه قول الإمام على -رضي الله عنه-: أنا أول مَنْ صلى، وفى لفظٍ آخر: أنا أول من أسلم[4].

---

(1) خبر صحيح. أخرجه ابن سعد (٣/ ٣١) فى طبقاته، والترمذى (٣٨١٨) والنسائى.

(2) فى الخصائص وأحمد (٤/ ٣٦٨)، والطيالسى (٦٧٨)، والطبرى (٢/ ٣٠٢) فى تاريخه.

(3) خبرٌ حسنٌ. أخرجه ابن سعد (٣/ ٣١)، والترمذى (٣٨١٧) فيه أبو بلج وهو صدوق والطبرى (٢/ ٣١٠) فى تاريخه.

(4) خبرٌ حسنٌ. أخرجه ابن سعد (٣/ ٢١) وفيه حبة العرنى، وهو صدوق له أغلاط وأخرجه النسائى (١) فى الخصائص، وأحمد (١/ ١٤١).

ولكن مما يزيد الخلاف فى تحديد تلك الأولية أن الصحابى الجليل عمرو بن عبسة -رضي الله عنه- لما أراد أن يدخل إلى الإسلام، سأل النبى -ﷺ- فقال: ما أنت[١] ؟ قال: «أنا نبى».

فقال: وما نبى؟ قال: «أرسلنى الله» فقال: وبأى شىءٍ أرسلك؟ قال: «أرسلنى بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يشرك به شىء».

قال عمرو: فمن معك على هذا؟ قال: «حر وعبدٌ» ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به.

وفى لفظ آخر: «معى رجلان، أبو بكر وبلال»[٢] .

فمن خلال هذا النص يتبين لنا أولية الصديق، وبلال -رضي الله عنهما- ولذا كان إبراهيم النخعى يقول: أول من صلى: أبو بكر الصديق[٣] .

ولكن يمكن الجمع بأن عليًّا -رضي الله عنه- لما كان غلامًا صغيرًا لم يذكره النبى -ﷺ- فى حديثه عن من أسلم معه، ويرشح ذلك قول الحسن بن زيد ـ رحمه الله ـ.

كان ابن تسع سنين، ويقال: دون التسع سنين، ولم يعبد الأوثان قط لصغره[٤] .

---

(١) ما أنت؟ ولم يقل: مَنْ أنت؟ لأنه يريد أن يسأل عن صفته، وليس عن ذاته.

(٢) حديث صحيح. أخرجه مسلم (٨٣٢)، وأحمد (٦/ ١١٢، ١١٣)، وأبو داود (١٢٧٧)، وابن سعد (٤/ ١١٥)، والبخارى (٣/ ٢٨٥)، والحاكم (٣/ ٢٧٥)، والطبرانى (١٤١٠) فى مسند الشاميين، وأبو نعيم (ص١٩٨) فى دلائل النبوة، وابن عبد البر (٤/ ١٣) فى التمهيد، وابن الأثير (٤/ ٢٥١) فى أسد الغابة.

(٣) خبر صحيح. أخرجه ابن سعد (٣/ ١٧١)، وفى الطبقات الكبرى.

(٤) انظر: الطبقات الكبرى (٣/ ٣١) لابن سعد.

وأشار إلى ذلك العلامة الذهبى بقوله: ولم يذكر عليًا لأنه كان صغيراً، ابن عشر سنين[(١)] .

ولذا يقول محمد بن عمر الواقدى صاحب المغازى:

أصحابنا مجمعون على أن أول أهل القبلة الذى استجاب لرسول الله -ﷺ-: خديجة بنت خويلد، ثم اختلف عندنا فى ثلاثة نفر أيهم أسلم أولاً، فى أبى بكر، وزيد بن حارثة، وما نجد إسلام على صحيحًا إلا وهو ابن إحدى عشرة سنة[(٢)] .

وعليه فقد استبعد الواقدى أولية على بن أبى طالب لصغره، ونحن نستبعد ما ورد فى شأن زيد بن حارثة لعدم صحة أسانيده، فهى مقاطيع[(٣)] ، ومعلقات[(٤)] .

ومن أدلة أولية الصديق كما ذكر العلماء قول عمار بن ياسر -رضي الله عنهما-: رأيت رسول الله -ﷺ-، وما معه إلا خمسة أعبد، وامرأتان وأبو بكر[(٥)] .

قال ابن حجر العسقلانى: أما الأعبد فهم: بلال، وزيد بن حارثة، وعامر ابن فهيرة مولى أبى بكر، فإنه أسلم قديمًا مع أبى بكر، وأبو فكيهة مولى صفوان بن أمية، وأما الخامس: فيحتمل أن يفسر بشقران، وأما المرأتان:

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام (١/ ١٤٠).

(٢) انظر: الطبقات (٣/ ٣١ ـ ٣٣)، وتاريخ الطبرى (٣/ ٣١٦).

(٣) المقاطيع: جمع مقطوع، وهو الموقوف على التابعى قولاً له أو فعلاً، انظر: مقدمة ابن الصلاح (ص٦٦)، والكفاية (ص٥٩) للخطيب البغدادى، فتح المغيث (١/ ١٢٣) للسخاوى، تدريب الراوى (١/ ١٩٤) للسيوطى.

(٤) المعلقات: جمع معلق، وهو أن يحذف من أول الإسناد واحد، أو أكثر، واستعمله بعض المحدثين فيما حذف إسناده كله. انظر: مقدمة ابن الصلاح (ص٩٠) تدريب الراوى (١/ ٢١٩).

(٥) حديث صحيح. أخرجه المغازى (٣٦٦٠)، (٣٨٥٧).

فخديجة، والأخرى أم أيمن وفى الحديث: أن أبا بكر أول من أسلم من الأحرار مطلقًا، ولكن مراد عمـار بذلك ممن أظهر إسلامه، وإلا فقد كان حينـئذ جماعة ممن أسلم لكنهم كانوا يخفونه من أقاربهم.

وسيأتى قول سعد بن أبى وقاص، إنه ثلث الإسلام، وذلك بالنسبة إلى مَنْ أطلع على إسلامه ممن سبق إسلامه[١] .

وفيه دلالـة على قدم إسلام أبى بكر إذ لم يذكر عـمار أنه رأى مع النبى - ﷺ- من الرجال غـيره، وقـد اتفق الجمهـور على أن أبا بكر أول من أسلم من الرجال[٢] .

وقد رجح ذلك ابن عبد البر، وقال ابن الأثير:

لما جاء الإسلام سبق إليه، وأسلم على يده جماعة لمحبتهم له، وميلهم إليه، وقد ذهبت جمـاعة من العلماء إلى أنه أول من أسلم، منهم ابن عـباس، وقاله حسان بن ثابت فى شعره، وعمرو بن عبسة، وإبراهيم النخعى، وغيرهم[٣] .

وقال يوسف بن يعقوب الماجشون:

أدركت أبى، ومشيخـتنا: محمد بن المنكدر، وربيعة بـن أبى عبد الرحمن، وصالح بن كـيسان، وسعد بن إبراهيـم، وعثمان بن محـمد الأخنسى، وهم لا يشكون أن أول القوم إسلامًا: أبو بكر.

وهكذا يتضح لنا أن لكل صحابى ممن ذكرنا له أولية من جانب، فخديجة - رضي الله عنها- أول من أسلم من النسـاء، وأبو بكر -رضي الله عنه- أول مَنْ أسلم من الرجـال

---

(١) انظر: الفتح (٧/ ٣٤، ١٧٠).

(٢) انظر: الفتح (٧/ ٣٤، ١٧٠).

(٣) انظر: الاستيعاب (٣/ ٩٦٤، ٩٦٥)، وأسد الغابة (٣/ ٣١٠).

الأحرار، وبلال -رضي الله عنه- أول من أسلم من العبيد، وعلي بن أبي طالب -رضي الله عنه- أول من أسلم من الغلمان فيصبح على بن أبى طالب أول من أسلم لله تعالى من الغلمان، وتلك منقبة شريفة، ومنزلة رفيعة.

ونتوقف الآن بين يدى المناقب والفضائل النبوية التى وردت فى شأن على بن أبى طالب ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ.

□□□

مناقب وفضائل أمير المؤمنين على بن أبى طالب

ورد الكثير من الفضائل والمناقب فى حق الصحب الكرام، لكن ما ورد فى حق على بن أبى طالب يفوق الصحابة كلهم.

يقول أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ: ما ورد لأحد أصحاب رسول الله -ﷺ- من الفضائل ما ورد لعلى -رضي الله عنه-[1] .

ويقول العلامة النسائى ـ رحمه الله ـ: لم يرد فى حق أحدٍ من الصحابة بالأسانيد الحسان، أكثر مما جاء فى علىٍّ.

وجاءت الأحاديث النبوية فى فضائل الإمام على التى تذكره، مع بقية الخلفاء الراشدين.

ووردت الأحاديث التى خصته بالفضل والمنقبة.

فمن فضائله مع غيره: أنه من العشرة المبشرين بالجنة، فعن سعيد بن زيد -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: «عشرة من قريش فى الجنة: أنا فى الجنة، وأبو بكر فى الجنة، وعمر فى الجنة، وعثمان فى الجنة، وعلى فى الجنة، والزبير فى الجنة، وسعد بن أبى وقاص فى الجنة...»[2] .

قيل لسعيد بن زيد: فمن العاشر؟ قال: أنا.

ويروى عبد الرحمن بن عوف -رضي الله عنه- أنه سمع رسول الله -ﷺ- يقول:

---

(١) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه الحاكم (٣/ ١٠٧)، وصححه، وأقره الذهبى.

(٢) حديث صحيحٌ. أخرجه أحمد (١/ ١٨٨)، وأبو داود (٤٦٤٩)، والترمذى (٣٧٥٨)، وابن ماجه (١٣٤)، والحاكم (٣/ ٤٥٠)، والطبرانى (٣٥٦) فى الكبير.

«أبو بكر فى الجنة، وعمر بن الخطاب فى الجنة، وعثمان بن عفان فى الجنة، وعلى بن أبى طالب فى الجنة، وطلحة فى الجنة، والزبير فى الجنة، وعبد الرحمن بن عوف فى الجنة، وسعد بن أبى وقاص فى الجنة، وسعيد بن زيد فى الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح فى الجنة»(١) .

وللمرء أن يتساءل: ألا يستحق الإمام على دخول الجنة وقد أعز الله به الإسلام؟! .

ألا يستحق الإمام دخول الجنة، وهو الخائف من عقاب ربه، الراجى لعفوه، الباكى من خشيته؟!! ألا يستحق دخول الجنة، وهو الزاهد فى الدار الفانية، الراغب فى الدار الباقية؟!

ألا يستحق دخول الجنة، وقد شهد المشاهد كلها، وكان رحيمًا بالمؤمنين، غليظًا على الكفار والمنافقين؟!

ونكمل المسير مع فضائل ومناقب أبى السبطين، أمير المؤمنين، على بن أبى طالب، فرضى الله عنه وأرضاه، ورحمه رحمة واسعة، وجزاه خير الجزاء عما قدم لدينه، وأمته الإسلامية.

يقول جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما-:

خرجنا مع رسول الله -ﷺ- إلى نخيل امرأة من الأنصار، فقال -ﷺ-: «يطلع عليكم رجل من أهل الجنة»(٢) .

---

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه أحمد (١/ ١٩٣)، والترمذى (٣٧٤٨).

(٢) حديث حسن. أخرجه أحمد (٣/ ٣٣١، ٣٥٦، ٣٨٧)، وابن أبى شيبة (١٣، ١٥) فى مصنفه والحاكم (٣/ ١٣٦)، وصححه، وأقره الذهبى، والبيهقى (٩/ ٤٦) فى سننه الكبرى والطبرانى فى الأوسط، والبزار، وقال الهيثمى (٩/ ٥٨): رجال أحد أسانيد أحمد رجال موثقون.

فطلع أبو بكر، فبشرناه، ثم قال: «يطلع عليكم رجل من أهل الجنة».

فطلع عمر فبشرناه، ثم قال: «يطلع عليكم رجل من أهل الجنة» وجعل ينظر من النخل، ويقول: «اللهم إن شئت جعلته عليًّا». فطلع علىٌّ -رضي الله عنه-.

وفى رواية أخرى: فدخل علىٌّ فهنأناه.

وفى رواية ثالثة: ثم قال: «يطلع عليكم من تحت هذا السور رجل من أهل الجنة، اللهمّ إن شئت جعلته عليًّا» ثلاث مرات، فطلع علىٌّ -رضي الله عنه-.

ومن مناقب على -رضي الله عنه- أن حبه من الإيمان، وبغضه من النفاق.

وكيف نال على بن أبى طالب تلك المنقبة؟

هذا ما نتعرف عليه فى الصفحات التالية، ومن الله العون والسداد.



حب عليّ من الإيمان وبغضه من النفاق

من مناقب الإمام على بن أبى طالب: بشارة الرسول -ﷺ- له بأن حبه من الإيمان، وبغضه من النفاق، ويا لها من منقبة نفيسة!!

يقول علىٌّ -رضي الله عنه-: والذى فلق الحبة، وبرأ النسمة، إنه لعهد النبى -ﷺ- إلىَّ: أن لا يحبنى إلا مؤمنٌ ولا يبغضنى إلا منافق(١).

«فلق الحبة»: أى: شقها بالنبات، و «برأ النسمة» أى: خلف النسمة، وهى الإنسان.

فمَنْ عرف مرتبة على -رضي الله عنه-، وما كان فيه فى نصرة دين الإسلام، والسعى فى إظهاره، وبذله لنفسه وماله فى سبيله، وقربه من رسول الله -ﷺ-، وحب النبى -ﷺ- له، وما كان منه فى نصرة الإسلام وسوابقه فيه.

ثم من أحب عليًّا لكل ذلك كان من دلائل صحة إيمانه، وصدقه فى إسلامه لسروره بمن يحبه النبى -ﷺ- وبمن يسعى فى نصرة الإسلام ومن أبغض عليًّا كان ضد ذلك، واستدل به على نفاقه وفساد سريرته.

فهنيئًا لعلىٍّ -رضي الله عنه- ولمن أحبه، وبؤسًا لمن أبغضه.

❑❑❑

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه مسلم (٧٨)، والترمذى (٣٨١٩)، والنسائى (٨/ ١٥، ١١٦)، وابن ماجه (١١٤)، وابن أبى عاصم (٣/ ٥٩٨) فى السنة والحميدى (١/ ٣١) وفى الباب عن أم سلمة ولا يصح.

رجل امتحن الله قلبه للإيمان

من مناقب الإمام على -رضي الله عنه-: أن النبى -ﷺ- شهد له بقوة الإيمان.

وفى هذا المعنى يروى علىٌّ أن أناسًا من قريش جاءوا إلى النبى -ﷺ- فقالوا يا محمد، إنا جيرانك وحلفاؤك، وإن من عبيدنا قد أتوك ليس بهم رغبة فى الدين ولا رغبة فى الفقه، وإنما خرجوا فراراً أموالنا وضياعنا، فارددهم إلينا، فإن لم يكن لهم فقهٌ فى الدين سنُفَقِّهُهُم؟

فقال النبى -ﷺ- لأبى بكر: «ما تقول؟».

فقال: صدقوا، إنهم لجيرانك وحلفاؤك، فتغير وجه النبى -ﷺ-، ثم قال: «يا معشر قريش، والله ليبعثن الله عليكم رجلاً منكم، امتحن الله قلبه للإيمان فيضربكم على الدين، أو يضرب بعضكم».

قال أبو بكر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: «لا».

قال عمر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: «لا، ولكن ذلك الذى يخصف النعل»[1].

وقد كان أعطى عليًّا نعلاً يخصفها[2].

❑❑❑

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه الترمذى (٣٧٩٩)، والنسائى (٣١) فى الخصائص، وأحمد (١٣٣٥)، (٣٧٧٠٠) وابن أبى شيبة (١٣/ ٦٣) فى مصنفه، والحاكم (٣/ ١٣٨).

(٢) يخصف: أى يخرز، وهو الضم والجمع.

رجل مهدي القلب ثابت الجنان

من فضائل على بن أبى طالب -رضي الله عنه- دعاء النبى -ﷺ- له بالهداية والثبات.

يقول علىٌّ: بعثنى رسول الله -ﷺ- إلى اليمن وأنا شاب، فقلت: يا رسول الله، تبعثنى وأنا شابٌ إلى قومٍ ذوى أسنانٍ أقضى بينهم، ولا علم لى بالقضاء.

فوضع يده على صدرى ثم قال: «إن الله سيهدى قلبك، ويثبت لسانك، يا على إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول، فإنك إذا فعلت ذلك تبدّى لك القضاء»[1].

قال علىٌّ -رضي الله عنه-: فما أشكل علىَّ قضاء بعد ذلك.

وفى روايةٍ: ما شككت فى حديثٍ أقضى به بين اثنين.

«وأنا شابٌ» أى والحال أنى صغير العمر، قليل التجارب، وفى رواية: «وأنا حديث السن» فهذا اعتذار عن قلة تجاربه.

«ولا علم لى بالقضاء» لم يرد -رضي الله عنه- نفى العلم مطلقًا، وإنما أراد به أنه لم يجرب سماع المرافعة بين الخصماء، وكيفية رفع كلام كل واحدٍ من الخصمين، ومكرهما.

---

(1) حديث صحيحٌ. أخرجه أحمد (1/83، 88، 136، 156)، وأبو داود (3577)، والترمذى (1346)، والنسائى (31 ـ 33)، فى الخصائص، وابن ماجه (2310)، والطيالسى (98)، وابن سعد (337/3) فى طبقاته، والحاكم (93/4، 135) وصححه وأقره الذهبى، والطبرانى (159) فى الكبير، والبيهقى (86/10) فى سننه الكبرى.

فلا شك أنه -رضي الله عنه- حين بعثه قاضيًا كان عالمًا بالكتاب والسنة.

«سيهدى قلبك» أى: يرشدك إلى طريق استنباط المسائل بالكتاب والسنة، فينشرح صدرك، ويثبت لسانك فلا تقضى إلا بالحق.

فهذه دعوة مباركة من النبى -ﷺ- لعلىٍّ -رضي الله عنه- وتعليم للأمة الإسلامية بأسرها لآداب القضاء، وإرشادٌ للقضاة أنه يحرم على القاضى أنه يحكم قبل سماع حجة كل واحدٍ من الخصمين، واستقصاء ما لديه والإحاطة بجميعه.

فإذا قضى قبل السماع من أحد الخصمين، كان حكمه باطلاً فلا يلزم قبوله، بل يتوجه عليه نقضه ويعيده على وجه الصحة، أو يعيده حاكم آخر[١] .

ونكمل المسير مع مناقب وفضائل أمير المؤمنين، وأبى السبطين، على بن أبى طالب -رضي الله عنه-.

□□□

---

(١) انظر: عون المعبود (٩/ ٣٦٣) للعظيم أبادى.

رجل يحبه الله ورسوله - ﷺ -

يا لها من منقبة عظمى، ومنزلةٌ عليا!!

إنه رجلٌ يحبه الله ورسوله، ويحب الله ورسوله -ﷺ-.

كيف حدث ذلك؟ ومتى حدث؟!

يحدثنا سهل بن سعد -رضي الله عنه- أن رسول الله -ﷺ- قال يوم خيبر:

«لأعطين هذه الراية غدًا رجلاً، يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله».

قال: فبات الناس يدوكون ليلتهم: أيُّهم يعطاها. فلما أصبحوا غدوا على رسول الله -ﷺ- كلهم يرجو أن يُعطاها فقال: «أين على بن أبى طالب؟».

فقيل: هو يا رسول الله يشتكى عينيه. فقال: «فأرسلوا إليه» فأتى به فبصق رسول الله -ﷺ- فى عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال علىٌّ:

يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً خير لك من أن يكون لك حمر النعم»(١).

«الراية» بمعنى اللواء وهو العلم الذى يرفع فى ساحة الحرب يعرف به موضع صاحب الجيش، وقد يحمله أمير الجيش، وقد يدفعه لمقدم العسكر.

(١) حديث صحيح. أخرجه البخارى (٤/ ٧٣)، (٥/ ٢٣)، ومسلم (٢٤٠٦)، والنسائى (١٦) فى الخصائص، وأحمد (٥/ ٣٣٣)، وأبو نعيم (١/ ٦٢) فى الحلية، والبغوى (٣٩٠٦) فى شرح السنة، والبيهقى (٤/ ٢٠٥) فى دلائل النبوة.

«يدوكـون» أي: يخـوضـون، يقـال: الناس في دوكـة، أي في اخـتـلاطٍ وخوضٍ.

«حتى يكونوا مثلنا» أي: حتى يسلموا.

«لأن يهدى الله بك رجـلاً» يؤخذ منه أن تألف الكافـر حتى يسلم أولى من المبادرة إلى قتله.

«حمـر النعم»، الحمـر من ألوان الإبل المحمودة وهى أعـز الإبل وأنفسـها، والمعنى المراد: لأن يهدى الله بك رجلاً واحدًا خير لك أجرًا وثوابًا من أن تكون لك حمر النعم فتتصدق بها.

وبالنظر فى هذا الحديث النبوى نجد الفوائد التالية:

الأولى: قوله -ﷺ- «لأعطين الراية» علم من أعلام النبوة.

الثانية: بيان فضيلة على بن أبى طالب -رضي الله عنه-.

الثالثة: حرص الصحب الكرام على الخـير، وذلك فى دوكهم تلك الليلة، وشغلهم عن بشارة الفتح.

الرابعة: الإيمان بقضـاء الله وقدره، لحصول تلك البشـارة لمن لم يسع لها، ومنعها عمن سعى.

الخامسة: بيان أدب الإسلام فى القتال.

إلى غير ذلك من الفوائد الجمة، والنصائح العامة.

❑❑❑

رجل صاحب منزلة عظمى

ومن فضائله -رضي الله عنه- أنه صاحب منزلة عظمى.

يقول سعد بن أبى وقاص -رضي الله عنه- قال رسول الله -ﷺ- لعلى:

«أمـــا ترضى أن تكـــون منى بمنزلـــة هارون من مـــوسى؟ إلا أنه ليـــس نبى بعدى»[١].

فهذا مثل ضربه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لعلى -رضي الله عنه- حين استخلفه على أهله حالة غـيبـته، كمـا استخلف مـوسى أخاه هارون حـين خرج إلى الطور، فكانت تلك الخلافة فى حياته فى وقت خاصٍ.

وفى رواية أخرى: قال النبى -ﷺ-: «لابد أن أقيم أو تقيم»[٢] فأقام على فسمع ناسًا يقولون: إنما خلفه لشيءٍ كرهه منه، فاتبعه، فذكر له ذلك.

وقد أخطأ بعض الناس فى فهم هذا الحديث، فيقول ابن حجر العسقلانى:

استدل بحديث البـاب على استحقاق على الخلافة دون غـيره من الصحابة، فإن هارون كان خليفة موسى، وأجيب: بأن هارون لم يكن خليفة موسى إلا فى حياته، لا بعد موته، لأنه مات قبل موسى باتفاقٍ.

وقال العلامة الطيبى: معنى الحديث أنه متصل بى نازل منى منزلة هارون من موسى، وفيه تشبيه مـبهم بينه بقوله: «إلا أنه لا نبى بعدى». فعرف أن الاتصال

---

(١) حديث صـحيح. أخرجه البـخارى (٣٧٠٦)، (٤٤١٦)، ومسلم (٢٤٠٤)، والتـرمذى (٣٧٢٤)، وأحمد (١/ ١٧٣، ١٧٥، ١٨٢)، والنسائى (٢٩) (١٠) فى الخـصائص، وابن أبى عاصم (١٣٣٦) فى السنة، والحميدى (٧١)، والبغوى (٣٩٠٧) فى شرح السنة.

(٢) حديث صحيح. أخرجه ابن سعد (٣/ ٢٤) فى طبقاته.

المذكور بينهما ليس من جهة النبوة، بل من جـهة ما دونها وهو الخلافة، ولما كان هارون المشبه به، إنما كان خليفة فى حـياة موسى دل ذلك على تخصيص خلافة على النبى -ﷺ- بحيـاته[١] ويعلق على هذا الحـديث العلامـة المباركـفورى، فيقول: فى الحديث: إثبات فضـيلة لعلى، ولا تعرض فيه لكونه أفضل من غيره أو مثله، وليس فيه دلالة لاسـتخلافه، لأن النبى -ﷺ- إنما قال هذا لعلى حين استخلف فى المدينة فى غزوة تبوك.

ويؤيد هذا أن هارون المشبه به لم يكن خليفة بعد موسى، بل توفى فى حياة موسى، وقبل وفاة موسى بنحو أربعين سنة على ما هو مشهور عند أهل الأخبار والقصص، قالوا:

وإنما استخلفه حين ذهب لميقات ربه للمناجاة[٢].

وفى هذا المعنى يروى حبـشى بن جنادة السلولى قال: سمـعت رسول الله -ﷺ- يقول: «على منى، وأنا منه، فلا يؤدى عنى إلا أنا أو على»[٣].

أى فى النسب، والصهـر، والمحبة، وغيـر ذلك من المزايا، ولم يرد محض القرابة، وإلا فجعفر بن أبى طالب شريكه فيها.

وقد قال النبى -ﷺ- مثل هذا القول فى جليبيب -رضي الله عنه- ومعناه المبالغة فى اتحاد طريقتهما، واتفاقهما فى طاعة الله تعالى.

---

(١) انظر الفتح (٧/ ٧٤).

(٢) انظر: تحفة الأحوذى (١٠/ ٢٢٩).

(٣) حديث صحيح. أخرجه أحمد (٤/ ١٦٤، ١٦٥)، والترمذى (٣٨٠٣)، والنسائى (٦٦)، (٧١) فى الخصائص، وابن أبى عاصم (١٣٦٠) فى السنة، وابن أبى شيبة (١٢/ ٥٩) فى مصنفه والطبرانى (٣٥١١) فى الكبير.

«ولا يؤدى عنى» أى نبذ العهد.

«إلا أنا أو على» كان الظاهر أن يقال لا يؤدى عنى إلا على، فأدخل أنا منه.

قال العلامة التوربشتى: كان من دأب العرب إذا كان بينهم مقاولة فى نقض وإبرام، وصلح ونبذ عهد أن لا يؤدى ذلك إلا سيد القوم، أو من يليه من ذوى قرابته القرابية، ولا يقبلون ممن سواهم.

فلما كان العام الذى أمر رسول الله -ﷺ- أبا بكر -رضي الله عنه- أن يحج بالناس، رأى بعد خروجه أن يبعث عليًّا خلفه لينبذ إلى المشركين عهدهم، ويقرأ عليهم سورة «براءة» وفيها: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة:٢٨].

إلى غير ذلك من الأحكام، فقال قوله هذا تكريمًا له بذلك، واعتذارًا لأبى بكر فى مقامه هنالك، ولذا قال الصديق لعلى حين لحقه من ورائه: أمير أو مأمور؟ فقال: بل مأمور.

وفيه إيماءٌ إلى أن إمارته إنما تكون متأخرة عن خلافة الصديق كما لا يخفى عن ذوى التحقيق[1].

وفى هذا يقول على -رضي الله عنه- إن رسول الله -ﷺ- بعث ببراءة إلى أهل مكة مع أبى بكر، ثم أتبعه بعلىٍّ، فقال له: «خُذْ هذا الكتاب، فامض به إلى أهل مكة».

قال: فلحقه فأخذ الكتاب منه، فانصرف أبو بكر وهو كئيبٌ، فقال لرسول

(١) انظر تحفة الأحوذى (١٠ ـ ٢٢١) للمباركفورى.

الله -ﷺ- أنزل فىَّ شىءٌ؟

قال: «لا، إلا أنى أُمِرْتُ أن أُبلِّغه أنا، أو رجلٌ من أهل بيتى».

قال زيد بن يُثيع: سألت عليًّا بأى شىءٍ بعثت؟ قال: بأربع: «لا يدخل الجنة إلا نفسٌ مسلمةٌ، ولا يطوف بالبيت عُريان، ولا يجتمع المسلمون والمشركون بعد عامهم هذا، ومن كان بينه وبين رسول الله -ﷺ- عهد فعهده إلى مدته، ومَنْ لا مدة له فأربعةُ أشهر»[1] . فرضى الله عن أبى بكر الصديق وأرضاه، ورضى الله عن على بن أبى طالب وأرضاه.

ونكمل المسير مع مناقب وفضائل أمير المؤمنين على بن أبى طالب -رضي الله عنه-.

❑❑❑

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه أحمد (١/ ٧٩)، والترمذى (٨٧١)، والنسائى (٧٣) فى الخصائص، والطبرى (١٠/ ٤٦، ٤٧) فى تفسيره، والبيهقى (٥/ ٣٩٧) فى الدلائل وفى الباب عن أبى هريرة -رضي الله عنه- أخرجه البخارى (٤٣٦٣)، ومسلم (١٣٤٧)، والترمذى (٣٠٩٢).

الترغيب في موالاته والترهيب من معاداته

من مناقب أمير المؤمنين على -رضي الله عنه- ترغيب النبى -ﷺ- فى موالاته، وترهيبه من معاداته، ويتضح ذلك جليًا مما رواه أبو الفضل عامر بن واثلة -رضي الله عنه- ، فيقول:

جمع على الناس فى الرحبة(١) ، فقال: أنشد بالله كل امرىء سمع من رسول الله -ﷺ- ما قال يوم غديرخم(٢) .

«ألستم تعلمون أنى أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟» وهو قائم، ثم أخذ بيد على فقال:

«من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه»(٣) .

قال أبو الطفيل: فخرجت وفى نفسى منه شىء، فلقيت زيد بن أرقم فأخبرنا، فقال: تشك؟ أنا سمعته من رسول الله -ﷺ-.

«من كنت مولاه فعلى مولاه».

هذه فضيلة لعلى بن أبى طالب -رضي الله عنه- ومعناها: ومن كان النبى -ﷺ-

---

(١) الرحبة: ما اتسع من الأرض، وجمعها: رحب، ورحبة المسجد والدار: ساحتهما ومتسعهما.

(٢) الغدير: مستنقع الماء ماء المطر، صغيرًا كان أو كبيرًا، وغدير خم معروف بين مكة والمدينة بالجحفة، تصب فيه عين هناك، ويقال فيه: خم بفتح الخاء، وخم بالضم.

(٣) حديث صحيح. أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ٣٦٨ ـ ٣٧٠)، والنسائى (٩٠) فى الخصائص، والترمذى (٣٧٩٧) وقال: حديث حسن غريب. وابن ماجه (٩/ ٤٢)، والطبرانى (٤٩٨٥) فى الكبير وابن أبى عاصم (٣٦٧) فى السنة، وفى الباب عن البراء بن عازب، وأبى أيوب، وسعد رضي الله عنهم وغيرهم.

مولاه فعلى والمؤمنون مواليـه، ودليل ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة:٧١]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال:٧٣].

والولى والمولى فى كلام العـرب واحد، والدليل عليه قوله تبـارك وتعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد:١١] أى لا ولى لهم، وهم عبيده وهو مولاهم ـ أى ربهم ومالكهم ـ وإنما أراد لا ولى لهم.

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التحريم:٤].

وقال عز وجل: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧].

وقال جل شأنه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة:٥٦].

وإنما هذه منقبة من النبى -ﷺ- لعلى -رضي الله عنه- وحث على محبته، وترغيب فى ولايته[1].

فمعناه: من يتولانى فعلى يتولاه.

وقد تكرر المولى فى الحديث، وهو اسم يقع على معـان كثيرة، فهو الرب، والمالك، والسيد، والمنعم، والمُعتـق، والناصر، والمحب، والتابع، والجار، وابن العم، والحليف، والصهـر، والعبد، والمُعتَـق والمنعم عليه، وأكثرها قـد جاء فى

(١) نقلاً عن تثبيت الإمامة (ص٥٥) لأبى نعيم الأصبهانى.

الأحاديث، فيضاف كل واحد إلى ما يقتضيه الحديث الوارد فيه، وكل من ولى أمرًا، أو قام به فهو مولاه ووليه.

وقد تختلف مصادر هذه الأسماء، فالولاية بالفتح فى النسب والنصرة، والمعتق، والولاية بالكسر فى الإمارة، والولاء فى المعتق، والموالاة من والى القوم، ومنه الحديث:

«من كنت مولاه فعلى مولاه».

يحمل على أكثر الأسماء المذكورة.

قال الشافعى ـ رحمه الله ـ: يعنى بذلك ولاء الإسلام، كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١١].

وقول عمر لعلى: أصبحت مولى كل مؤمنٍ، أى: ولى كل مؤمن.

وليس معنى الحديث أن عليًا -رضي الله عنه- مستحق التصرف فى كل ما يستحق الرسول -ﷺ- التصرف فيه.

ومن ذلك أمور المؤمنين، لذا يقول العلامة الطيبى ـ رحمه الله ـ: لا يستقيم أن نحمل الولاية على الإمامة، التى هى التصرف فى أمور المؤمنين، لأن المتصرف المستقل فى حياته -ﷺ- هو هو لا غيره، فيجب أن يحمل على المحبة وولاء الإسلام، ونحوهما[1] .

وقال المناوى: «من كنت مولاه فعلى مولاه» أى: وليه وناصره، ولاء الإسلام، وذلك بأن الله مولى الذين آمنوا.

---

(١) انظر: تحفة الأحوذى (١٠/ ٢١٥، ٢١٦).

وخصه بذلك لمزيد علمه، ودقائق مستنبطاته، وفهمه، وحسن سيرته بصفاء سريرته، وكرم شيمته، ورسوخ قدمه[1] .

ونكمل المسير مع مناقب وفضائل أمير المؤمنين على بن أبى طالب -رضي الله عنه وأرضاه-.

□□□

(١) انظر: فيض القدير (٦/ ٢١٧) للمناوى.

حب على من حب النبى - ﷺ -

ومن فضائل أمير المؤمنين على -رضي الله عنه- أن من أحبه فقد أحب الرسول -ﷺ-، ومنْ أبغضه فقد أبغض الرسول -ﷺ-، وفى هذا المعنى يحدثنا أبو عثمان النهدى - رحمه الله - فيقول: قال رجلٌ لسلمان الفارسى: ما أشد حبك لعلىٍّ؟

قال سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: «من أحب عليًّا فقد أحبنى، ومَنْ أبغَضَ عليًّا فقد أبغضنى»(١) .

«من أحب عليًّا فقد أحبنى» فضيلة ما أعظمها!! ومنقبة ما أجلها!!

«من أحب عليًّا» لما أوتيه من كرم الشيم، وعلو الهمم، فقد كان بحرًا لا يُدرك غوره فى الحلم والحكمة، راسخ الإيمان، قوى الإسلام، سخيًّا جوادًا، أبى النفس، رحيمًا بالمؤمنين، شديدًا على الكافرين.

«فقد أحبنى» بيان وتأكيد لمنزلة محبة أمير المؤمنين -رضي الله عنه- وحض على مزيد محبته، وتوثيق عرى محبته.

«ومن أبغض عليًّا فقد أبغضنى» تحريم للوقوع فى هذا الأمر المشين، والفعل الذميم، وبيان لسوء منقلب فاعله، وعاقبة سوء فعله.

وكما دعا النبى -ﷺ- إلى محبته، وحذر من بغضه، فقد حذر -ﷺ- من الوقوع فى سب علىٍّ -رضي الله عنه-.

---

(١) حديثٌ حسنٌ. أخرجه الحاكم (٣/ ١٣٠) وصححه، وأقره الذهبى، وفيه أبو زيد الأنصارى له أوهامٌ، والطبرانى بنحوه كما فى المجمع (٩/ ١٣٢)، وكذا البزار، وفى الباب عن أم سلمة، وعمرو ابن شاش، وابن عباس، وأبى رافع، رضي الله عنهم أجمعين.

من آذى عليا فقد آذى النبى -ﷺ-

ومن مناقب أمير المؤمنين على بن أبى طالب -رضي الله عنه- : اختصاص النبى -ﷺ- له بأن من آذاه فقد آذى النبى -ﷺ-، ويحدثنا عن تلك الفضيلة أبو عبد الله الجدلى، فيقول:

دخلتُ على أم سلمة، فقالت: أيُسَبُّ رسول الله -ﷺ- فيكم؟!

قلت: سبحانه الله، أو معاذ الله!! قالت: سمعتُ رسول الله -ﷺ- يقول: «من سب عليًّا فقد سبنى»(١) .

«من سب عليًّا» أى: شتمه «فقد سبنى» وهذه فضيلة كبرى لعلىٍّ -رضي الله عنه- فمن آذاه فقد آذى النبى -ﷺ-، ومَنْ آذى النبى -ﷺ- فقد تعرض لغضب الله ومقته.

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه أحمد (٦/ ٣٢٣)، والنسائى (٨٨) فى الخصائص، والحاكم (٣/ ١٣١) وصححه، وأقره الذهبى، وبنحوه الطبرانى، وأبو يعلى كما فى المجمع (٩/ ١٣٠) وقال الهيثمى: رجاله رجال الصحيح.

منزلة لم تكن لأحد من الخلائق

من مناقب على -رضي الله عنه-: أنه كانت له منزلة من رسول الله -ﷺ- لم تكن لأحد من الخلائق، وعن تلك المنزلة يحدثنا نجى الحضرمى، وكان صاحب مطهرة علىٍّ، يقول ـ رحمه الله ـ:

قال علىٌّ -رضي الله عنه-: كانت لى منزلة من رسول الله -ﷺ- لم تكن لأحد من الخلائق، فكنت آتية كل سحر، فأقول: السلام عليك يا نبى الله، فإن تنحنح انصرفتُ إلى أهلى، وإلا دخلت عليه[1] .

وفى رواية أخرى: كنت أدخل على نبى الله -ﷺ- كل ليلة، فإن كان يصلى سبح فدخلتُ، وإن لم يكن يصلى أذن لى فدخلت.

«تنحنح» كان ذلك علامة عدم الإذن.

فهذا الحديث النبوى يدل على أن عليًّا -رضي الله عنه- اختص بمزية الدخول على النبى -ﷺ- فى كل يومٍ، وفى هذا الدخول الكثير من الخير والعلم الذى يعود على أمير المؤمنين على بن أبى طالب بما يجعله مخصوصًا بتلك الفضيلة.

فقد كان على بن أبى طالب أحب الرجال إلى النبى -ﷺ- فى أهل بيته، ويتضح ذلك من قول ابن بريدة ـ رحمه الله ـ قال: جاء رجلٌ إلى أبى فسأله:

أى الناس أحب إلى رسول الله -ﷺ-؟ قال: «من النساء: فاطمة، ومن الرجال على -رضي الله عنه-»[2] .

---

(١) حديثٌ حسنٌ. أخرجه أحمد (١/ ٧٧، ٧٨، ٨٠، ١٠٧) والترمذى (٣٦٧)، والنسائى (٣/ ١٢) فى سننه، و (١١١، ١١٥) فى الخصائص.

(٢) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه الترمذى (٣٩٦٠) قال: حسن غريب، والنسائى (١١٠) فى الخصائص.

قال إبراهيم الجوهرى ـ رحمه الله ـ: يعنى من أهل بيته.

أى كأن أحب الناس إلى رسول الله -ﷺ- من أهل بيته فاطمة، وكان أحب الرجال إليه -ﷺ- من أهل بيته عليًا -رضي الله عنه- .

وهذا التخصيص فى هذه الفضيلة بأن المراد من أهل بيته، وليس على العموم، بسبب ما رواه عمرو بن العاص -رضي الله عنه- أنه سأل رسول الله -ﷺ- فقال: يا رسول الله، أى الناس أحب إليك؟

قال -ﷺ-: «عائشة».

قلت: من الرجال؟ قال -ﷺ-: «أبوها».

قلت: ثم مَنْ؟ قال -ﷺ-: «عمر»[1] فعد رجالاً، فسكت مخافة أن يجعلنى فى آخرهم.

فأحب الناس على الإطلاق إلى النبى -ﷺ- من أصحابه هو أبو بكر -رضي الله عنه- ومن زوجاته: عائشة -رضي الله عنها- وأحب الناس إليه من أهل بيته هو على بن أبى طالب، وفاطمة من نساء أهل بيته -رضي الله عنهم أجمعين- .

وتلك منزلة سامية تتضاءل أمامها كل منزلة، فإن من أحبه النبى -ﷺ- أحبه الله تعالى، ومن أحبه الله تعالى فقد فاز بالدنيا والآخرة، وذلك هو الفوز المبين.

□□□

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (٣٦٦٢)، (٤٣٥٨)، ومسلم (٢٣٨٤)، وأحمد (٤/٢٠٣)، والترمذى (٣٩٧٢)، وأخرجه ابن ماجه (١٠١) من حديث أنس، وابن أبى عاصم (١٢٣٣)، (١٢٣٥) فى السنة، وابن حبان (٦٨٤٦)، والبيهقى (٤/٤٠١) فى الدلائل.

الفضائل العشر لعلى - رضي الله عنه -

لأمير المؤمنين على -رضي الله عنه- الكثير من المناقب والفضائل، وقد حصر حبر الأمة، وترجمان القرآن، عبد الله بن عباس أهم عشر خصال اتصف بها أمير المؤمنين على -رضي الله عنه-:

يقول عمرو بن ميمون ـ رحمه الله ـ:

إنى لجالسٌ إلى ابن عباس إذ أتاه تسعة رهط، فقالوا: يا ابن عباس، إما أن تقوم معنا، وإما أن تخلونا هؤلاء.

قال: فقال ابن عباس: بل أقوم معكم.

قال عمرو بن ميمون: وهو يومئذ صحيح، قبل أن يعمى.

قال: فابتدأوا فتحدثوا فلا ندرى ما قالوا: قال: فجاء وهو ينفض ثوبه، وهو يقول: أُفٍّ [1]، وتُفٍّ [2] وقعوا فى رجل له عشر!! وقعوا فى رجلٍ قال له رسول الله -ﷺ-: «لأبعثن رجلاً يحب الله ورسوله، لا يخزيه الله أبدًا».

قال: فاستشرف[3] لها من استشرف، فقال: «أين على بن أبى طالب»؟

قيل: هو فى الرحى يطحن.

قال: فجاء وهو أرمد، لا يكاد يبصر فتفل فى عينيه، ثم هز الراية ثلاثًا،

(١) ، (٢) أفٌ كلمة تضجر، والأفف: الضجر، وتُفّ اتباع مأخوذ من الأفف، وهو الشىء القليل، وقيل الأف: وسخ الأذن، والتف وسخ فى الأظافر، كان ذلك يقال عند الشىء يستقذر، ثم كثر حتى صاروا يستحلونه عند كل ما يتأذون به.

(٣) استشرف: يقال: استشرفت الشىء إذا رفعت رأسك أو بصرك تنظر إليه، واستشرف لها ناسٌ أى: رفعوا رءوسهم وأبصارهم.

فدفعها إليه، وبعث أبا بكر بسورة التوبة، وبعث عليًّا خلفه، فأخذها منه، فقال: «لا يذهب بها إلا رجلٌ منى، وأنا منه».

قال: وقال لبنى عمه: «أيكم يوالينى فى الدنيا والآخرة؟».

قال: وعلى معه جالس، فقال علىٌّ: أنا أواليك فى الدنيا والآخرة.

قال: وكان أول من أسلم من الناس بعد خديجة.

قال: وأخذ رسول الله -ﷺ- ثوبه، فوضعه على علىٍّ، وفاطمة، وحسن وحسين فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣].

قال: وشَرى[1] على نفسه، لبس ثوب النبى -ﷺ-، ثم نام مكانه.

قال: وكان المشركون يرمون رسول الله -ﷺ-، فجاء أبو بكر، وعلى نائم، فقال: وأبو بكر يحسبه نبى الله.

قال: فقال له علىٌّ: إن نبى الله قد انطلق نحو بئر ميمونة فأدركه.

قال: فانطلق أبو بكر فدخل معه الغار.

قال: وجعل على يُرمى بالحجارة كما كان يُرمى نبى الله، وهو يتضور[2]، قد لف رأسه فى الثوب لا يخرجه حتى أصبح، ثم كشف عن رأسه حين أصبح، فقالوا: إنك للئيم، كان صاحبك نرميه بالحجارة فلا يتضور وأنت تتضور، وقد استنكر ذلك.

---

(١) شرى: يقال: شرى الشيء، واشتراه: باعه، أى بيع لله، ويبذلها فى سبيله، وثمنها الجنة.

(٢) تضور: التضور: التلوى والصياح من وجع الضرب أو الجوع والضور: شدة الجوع.

قال: ثم خرج بالناس فى غزوة تبوك، فقال له علي: أخرج معك؟

فقال له النبى -ﷺ-: «لا» فبكى علىٌّ.

فقال له نبى الله -ﷺ-: «أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى، إلا أنك لست بنبى، إنه لا ينبغى أن أذهب إلا وأنت خليفتى».

قال: وقال له رسول الله -ﷺ-: «أنت ولى كل مؤمن بعدى».

قال: وسد رسول الله -ﷺ- أبواب المسجد غير باب علىٍّ. فيدخل جنبًا وهو طريقه، وليس له طريق غيره.

قال: وقال: «من كنت مولاه فإن مولاه علىّ».

قال: وأخبرنا الله ـ عز وجل ـ فى القرآن أنه قد رضى عنهم ـ عن أصحاب الشجرة ـ فعلم ما فى قلوبهم، فهل حدثنا أنه سخط عليهم بعد؟!

قال: وقال نبى الله -ﷺ- لعمر حين قال: أتأذن لى فأضرب عنقه يعنى حاطب بن أبى بلتعة.

فقال: «أو كنت فاعلاً؟!، وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم: اعملوا ما شئتم»(١).

□□□

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه أحمد (١/ ٣٣٠، ٣٣١)، وقال العلامة أحمد شاكر (٥/ ٢٤) إسناده صحيح، وروى الترمذى منه قطعتين (٤/ ٣٣١، ٤٣٢)، وأخرجه النسائى (٢٣) فى الخصائص، والحاكم (٣/ ١٣٢ ـ ١٣٤) وصححه، وأقره الذهبى، ورواه الطبرانى (١٢٥٩٣)، (١٢٥٩٤) فى الكبير، والطبرانى فى «الأوسط» والبزار ورجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمى فى المجمع (٩/ ١٠٩).

أقرب الناس عهداً بالنبى - ﷺ -

من فضائل أمير المؤمنين على بن أبى طالب -رضي الله عنه-: أنه آخر الناس عهداً برسول الله ـ ﷺ- فتحدثنا أم سلمة -رضي الله عنها- فتقول:

والذى تحلف به أم سلمة، إن أقرب الناس عهداً برسول الله -ﷺ- على -رضي الله عنه-.

قالت: لما كان غدوة قبض رسول الله -ﷺ- فأرسل إليه رسول الله -ﷺ-.

قالت: وأظنه كان بعثه فى حاجةٍ، فجعل يقول: «جاء علىٌّ؟»(١) ثلاث مرات.

فجاء قبل طلوع الشمس، فلما أن جاء عرفنا أن له حاجة، فخرجنا من البيت، وكنا عند رسول الله -ﷺ- يومئذ فى بيت عائشة، وكنت فى آخر مَنْ خرج من البيت، ثم جلست من وراء الباب فكنت أدناهم إلى الباب، فأكب علىٌّ -رضي الله عنه- فكان آخر الناس به عهداً.

فجعل يسارّه ويناجيه، ثم قبض رسول الله -ﷺ-.

فكان علىٌّ أقرب الناس عهداً.

فمن هذا الموقف، الذى يُمثل آخر اللحظات فى حياة النبى -ﷺ- نتعرف على شىءٍ من فضائل على -رضي الله عنه-:

ـ فالنبى -ﷺ- يحرص على وجود علىٍّ فى حضرته فى تلك اللحظات

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه النسائى (١٥٠، ١٥١) فى الخصائص، وابن أبى شيبة (١٢/٥٧) فى مصنفه، والحاكم (٣/١٣٨، ١٣٩) وصححه، وأقره الذهبى.

الأخيرة، ويبدو ذلك واضحًا فى قوله -ﷺ-: «جاء عليٌّ؟» ويتكرر السؤال منه ثلاث مرات.

ـ إدراك الصحب الكرام من زوجاته -ﷺ-، ومَنْ حضر من أهل بيته منزلة عليٍّ من النبى -ﷺ-، ولذا عرفن أن له إليه حاجة. فخرجن من البيت.

ـ مناجاة الرسول -ﷺ- فى هذا الموقف العصيب، والتى تشبه الوصية من الميت تؤكد على فضيلة الإمام على ومنزلته.

انكباب عليٍّ على النبى -ﷺ-، وكونه آخر الناس عهدًا به يعد من مناقبه، فرضى الله عنه وأرضاه.



زهد أمير المؤمنين على -رضي الله عنه-

من أهم ملامح شخصية أمير المؤمنين على بن أبى طالب -رضي الله عنه-: الزهد فى الدنيا.

ويتجلى ذلك واضحًا فى أفعاله، وأقواله، بل وفى مظهره الخارجى، فالدنيا عنده ليست محلاً للتنافس، ولا ميدانًا للتسابق فى تحصيل الشهوات.

ويجمع لنا الشاعر محمد بن عبد المطلب ـ رحمه الله ـ سمات الزهد عند علىٍّ -رضي الله عنه- فيقول:

ونفسًا لم تذق طعم الدنايا ... ولا لذت من الدنيا طعاما

غذاها الدين من كانت فشبت ... على التقوى رضاعًا وانفطاما

ونشأها على كرمٍ وأيد ... وصاغ من الجلال لها قواما

ذكت فسمت عن الدنيا طلابا ... وأضنى حبها قومًا وتاما[1]

طوى عنها على الضراء كشحًا ... وعاف نضارها تبرًا وساما[2]

فكان -رضي الله عنه- من أزهد الناس مأكلاً وملبسًا، مع أن الأموال تجىء إليه من كل البلدان غنيمة، أو فيئًا أو خراجًا، أو جزية. لم ينشغل بحمراء، ولم يغتر بصفراء، ولا تهالك على بيضاء، فهذا الحسن بن على -رضي الله عنهما- يقول:

لقد فارقكم رجلٌ ما ترك صفراء، ولا بيضاء، إلا سبعمائة درهم، بقيت من

---

(١) تامًا: تيّمه.

(٢) سامه: قطعه.

عطائه، أراد أن يبتاع خادمًا، يعنى عليًّا -رضي الله عنه-(١) .

وروى أكثر من واحد أنه رأى عليًّا -رضي الله عنه- متزرًا بإزار، ومترديًا برداء، ومعه الدرةُ كأنه أعرابىٌّ بدوىٌّ، حتى جاء سوق الكرابيس، فأتى رجلاً من أصحاب الكرابيس، فقال:

عندك قميص سنبلانى بثلاثة دراهم؟

فأخرج إليه قميصًا، فإذا هو إلى أنصاف ساقيه، فنظر عن يمينه، وعن شماله، فقال:

ما أرى هذا على إلا قدرًا حسنًا، بكم؟

قال: بأربعة دراهم يا أمير المؤمنين، فحلها من إزاره، فدفعها إليه، ثم انطلق(٢) .

الكرابيس: الكرباس، والكرباسة: ثوب، وهى كلمة فارسية، وبياعه يقال له: الكرابيس، وهو من مادة القطن.

والقميص السنبلانى: من الثياب السابغ الطويل، الذى قد أسبل.

وقيل: يجوز أن يكون منسوبًا إلى موضع من المواضع، وهذا أصح كما يتضح لنا من سياق النص الذى بين أيدينا.

لقد بلغ أمير المؤمنين من الزهد مبلغًا عظيمًا.

---

(١) خبرٌ حسنٌ. أخرجه أبو داود (١١٢) فى الزهد، وابن أبى شيبة (١٢/ ٧٣) فى مصنفه، وابن سعد (٣/٣٨) فى طبقاته، والطبرانى، (٣/ ٨٠) فى الكبير، وأبو نعيم (١/ ٦٥) فى الحلية، وأحمد (ص١٣٣) فى الزهد.

(٢) خبر حسن. أخرجه أبو داود (١١٣)، وأحمد بن حنبل (ص ١٦٢) فى الزهد، وابن أبى الدنيا (١٣٩) فى التواضع، وبرقم (٣٨٣) فى إصلاح المال وغيرهم من طرق عدة.

أمير المؤمنين يرتدى قميصًا بأربعة دراهم؟

ألا ليت كل حاكمٍ يتعظ بذلك الإمام، ويعلم أن مال المسلمين أمانة، ويوم القيامة يكون حسرة وندامة إلا على من أداه بأمانة حقًّا لقد أدرك على -رضي الله عنه- أن الدنيا حلالها حساب، وحرامها عذاب، فكيف لا يزهد فيها؟

ويحكى لنا أبو صالح خادم أم كلثوم ابنة على فيقول:

دخلت على أم كلثوم وهى تمتشط، وستر بينها وبينى، فجلست أنتظرها حتى تأذن لى، فجاء حسن وحسين فدخلا عليها، وهى تمتشط فقالا: ألا تطعمون أبا صالح شيئًا؟

قالت: بلى.

قال: فأخرجوا قصعة فيها مرق بحبوبٍ، فقلت: أتطعمون هذا، وأنتم أمراء؟

فقالت أم كلثوم: يا أبا صالح، فكيف لو رأيت أمير المؤمنين، وأتى بأترنج[1]، فذهب حسن أو حسين يتناول منه أترنجة فنزعها من يده، ثم أمر به فقسم[2].

فهذا الموقف من على يراد منه الزهد فى تلك النوعية من الفاكهة، وليس المراد المنع أو الحرمان فقد قام يتقسم الواحدة بينهما ليشعرا بأنها شىء يجدر عدم التسابق عليه.

وفى هذا إرشاد على مبدأ الزهد من طرفٍ خفى.

---

(١) الأترنج: فصيلة من الحمضيات، يعرف فى بلاد الشام بالكباد وفى الخليج العربى بالسندى.

(٢) خبر صحيح. أخرجه ابن أبى شيبة (٨/ ١٥٦) فى مصنفه.

ومن مواقف الزهد فى حياة الإمام على -رضي الله عنه-: زهده فى الطعام.

يروى عدى بن ثابت، وحبة بن جوين أنه أُتـى بطستخوان فالوذج إلى على فلم يأكل، فقال على:

إنك لطيب الريح، حسن اللون، طيب الطعم، ولكن أكره أن أعود نفسى ما لم تعتده[1] .

الطستخوان: عبارة عن طستٍ كـبيرٍ، يوضع وسط المائدة أو الخوان، ويؤخذ منه الطعام إلى الصحاف التى توضع حول الخوان.

أما الفالوذج: فنوع من الحلوى تصنع من لباب الحنطة، وتعرف اليوم باسمها الفارسى: «بالوزة».

ومن صور زهده فى اللباس: أنه رئى -رضي الله عنه- وعليه إزار مرقوع، فقيل له: تلبس المرقوع؟.

فقال: يقتدى به المؤمن، ويخشع به القلب.

وفى روايةٍ أخرى لهـذا أن رجلاً من الخوارج، يقـال له: الجعد بن نعـجة، عاتب عليًّا فى لبوسه، فقال على: مالك وللبوس؟ وإن لبوسى أبعد من الكبر، وأجدر أن يقتدى بى المسلم[2] .

ومن صور زهده فى معيشته -رضي الله عنه-: قلة متاعه، وخفة أمره.

---

(1) خبر حسن. أخـرجه ابن أبى شيبة (٨/ ١٥٦) فى مصنفه، وعـبد الله بن أحمد (ص١٦٥) فى الزهد وهناد (٦٩٨) فى الزهد، وأبو نعيم (١/ ٨١) فى الحلية.

(2) خبر صحيح لغيره. أخـرجه ابن أبى شيبة (٨/ ١٥٦)، وهناد (٧٠٥) فى الزهد، وأحمد (ص١٦٥) الزهد، وابن سعد (٣/ ٢٨) فى طبقاته وأبو نعيم (١/ ٨٣) فى الحلية.

يقول على -رضي الله عنه-: ما كان لنا إلا إهاب كبشٍ، ننام على ناحيته، وتعجن فاطمة على ناحيته[١] .

وفى لفظ آخر قال: لقد تزوجت فاطمة، وما لى ولها فراش غير جلد كبشٍ، كنا ننام عليه بالليل، ونعلف عليه الناضح بالنهار، وما لى خادم غيرها[٢] .

فأى حياةٍ زهيدةٍ تلك التى عاش فيها على -رضي الله عنه-؟!

وأى زهدٍ ذلك الذى ناله على -رضي الله عنه-؟!

ليتنا نتأسى بأفعاله، وليتنا نقتدى بأقواله.

يقول عبد الرحمن بن أبى بكرة ـ رحمه الله ـ.

ما رزأ على من بيت مالنا حتى فارقنا إلا جبة محشوة، وخميصة درابجردية[٣] .

رزأ: حمل حملاً، والمراد: لم يأخذ.

فقد كان عفيفًا عن مال المسلمين، زاهدًا فى شهوات الدنيا -رضي الله عنه- وأرضاه.

ومن صور الزهد الرائعة فى سيرة أمير المؤمنين على -رضي الله عنه- ما رواه على ابن ربيعة الوالبى، قال:

إن على بن أبى طالب قد جاءه ابن النباج، فقال: يا أمير المؤمنين امتلأ بيت

(١) خبر صحيح. أخرجه وكيع (١١٤) فى الزهد، وأحمد (٢٨) فى الزهد.

(٢) خبر حسن لغيره. أخرجه هناد (٧٥٣)، وابن سعد (٨/ ٢٢)، وابن أبى شيبة (١٣/ ٢٨٣).

(٣) خبر حسن. أخرجه ابن أبى شيبة (٨/ ٥٨٦).

مال المسلمين من صفراء وبيضاء.

فقال: الله أكبر.

فقام متوكئًا على ابن النباج حتى قام على بيت مال المسلمين، فقال:

هذا جناى وخياره فيه   وكل جانٍ يده إلى فيه

يا ابن النباج، علىّ بأشياع الكوفة، قال: فنودى فى الناس، فأعطى جميع ما فى بيت مال المسلمين، وهو يقول:

يا صفراء... ويا بيضاء... غُرّى غيرى... هاوها.

حتى ما بقى منه دينار، ولا درهم، ثم أمره بنضحه، وصلى فيه ركعتين[1].

ويقول يزيد بن شريك: خرج علىٌّ ذات يومٍ بسيفه، فقال: من يبتاع منى سيفى هذا؟

فلو كان عندى ثمن إزار ما بعته.

وفى رواية على بن الأرقم عن أبيه قال: رأيت عليًّا، وهو يبيع سيفًا له فى السوق، ويقول: من يشترى منى هذا السيف، فوالذى فلق الحبة لطالما كشفت به عن وجه رسول الله -ﷺ-، ولو كان عندى ثمن إزار ما بعته[2].

ولعل أروع الكلمات التى صدرت من فم على -رضي الله عنه- مصورة لنا قدر زهده، ما رواه محمد بن كعب القرظى ـ رحمه الله ـ قال:

قال على: لقد رأيتنى، وإنى لأربط الحجر على بطنى من الجوع، وإن

(١) خبرٌ حسنٌ. أخرجه أبو نعيم (١/ ٨١) فى الحلية.

(٢) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه ابن ابى شيبة (٨/ ١٥٧) فى مصنفه، وأبو نعيم (١/ ٨٣) فى الحلية.

صدقتى لتبلغ اليوم أربعة آلاف دينار[١] .

وفى رواية: «أربعين ألفًا».

ولم يرد بقوله: «أربعين ألفًا» زكاة ماله، وإنما أراد الوقوف التى جعلها صدقة، كان الحاصل من دخلها صدقة هذا العدد، فإن أمير المؤمنين على -رضي الله عنه- لم يدخر مالاً، ودليله ما مر من كلام ابنه الحسن -رضي الله عنه- أنه لم يترك إلا ستمائة درهم، اشترى بها خادمًا.

وكما تعلمنا من على الزهد، نتعلم من على التواضع، ونطوى صفحة زهده، لنتأمل سويًا فى صفحة تواضعه.

❑❑❑

(١) خبرٌ صحيحٌ. اخرجه أبو نعيم (١/ ٨٥) فى الحلية، وابن الأثير (٤/ ١٠٢) فى أسد الغابة.

أمير المؤمنين المتواضع

من صفات أمير المؤمنين على بن أبى طالب -رضي الله عنه-:

التواضع فى أفعاله، وأقواله، ويتضح لنا ذلك من خلال المواقف، والكلمات التالية:

فقد عوتب على عدم اهتمامه بلبوسه، فقيل له: ما يمنعك أن تلبس؟ يعنى الجديد الفاخر.

فقال: هذا أبعد من الكبر، وأجدر أن يقتدى بى المسلم[1].

ويروى صالح بياع الأكسية عن جدته قالت: رأيت على بن أبى طالب -رضي الله عنه- اشترى بدرهم، فحمله فى ملحفة، فقالوا:

نحمل عنك يا أمير المؤمنين؟

قال: لا، أبو العيال أحق أن يحمل[2].

فعلى -رضي الله عنه- لا يعرف الكبرياء التى تأنف من حمل المتاع أو الأشياء فى الطرقات.

ولا تعرف نفس على -رضي الله عنه- الاستعلاء على الغير لمجرد أنه أمير المؤمنين.

فنفس على -رضي الله عنه- نفس متواضعة، لا تعرف الخيلاء ولا الكبرياء -رضي الله عنه وأرضاه-، وجعل أعلى عليين مأواه.

فعلى -رضي الله عنه- يشترى طعامه بنفسه، ويحمل حاجته على يديه، فإذا أراد

---

(1) خبر صحيح. سبق تخريجه.

(2) خبر لا بأس به. أخرجه عبد الله بن أحمد (ص١٦٥، ١٦٦) فى زوائد الزهد.

أحدٌ من رعيته حمله عنه، ضرب عليٌّ مثلاً رائعًا في التواضع.

فأين هذا العـهد الرشـيد من عهـود طغى فيهـا استغـلال الراعى لرعيـته، واستعباده لهم، وتكليفهم ما لا يطيقون؟

انظروا إلى أى حدٍّ تواضع أمير المؤمنين!

حقًّـا لقد رضي الله عنـه، ورضي عن ربه، فاستـحق السعـادة والفلاح فى الدنيا والآخرة.

❑❑❑

عدل الإمام وورعه

اتصف أمير المؤمنين على بن أبى طالب -رضي الله عنه- بالعدل، والورع، ويتضح ذلك من أحواله قبل توليه الخلافة وبعدها.

يروى العلاء بن عمار أن عليًا -رضي الله عنه- خطب الناس فقال:

أيها الناس...

والله الذى لا إله إلا هو ما رزات[1] من مالكم قليلاً ولا كثيراً إلا هذه ـ وأخرج قارورة من كم قميصه فيها طيب ـ فقال:

أهداها إلى الدهقان، ثم أتى بيت المال فقال: خذوا، ثم أنشأ يقول:

أفلح من كانت له قوصرة[2] يأكل منها كل يوم مرة

وفى رواية: طوبى لمن كانت له قوصرة[3].

الدهقان: هو زعيم فلاحى العجم، ورئيس إقليمهم، أرسل زجاجة عطر إلى علىٍّ لكونه أمير المسلمين، وهذا شىء يسيرٌ، لا قيمة له تذكر فى هدايا الرؤساء والزعماء بعضهم لبعض، بل هو زهيد يتم فى كل يوم بين أفراد الناس العاديين، ولكن عليًّا الورع، يرد الزجاجة إلى بيت المال.

فهذا الخليفة الذى يرد الرخيص الزهيد ورعًا، يأبى ما هو أعظم.

---

(1) ما رزات: أى ما أصبت ولا أخذت.

(2) القوصرة: وعاء للتمر.

(3) خبر لا بأس به، أخرجه أبو نعيم (1/1) فى الحلية عن عبد الوارث أبى عمر بن العلاء عن أبيه به، وأورده ابن كثير (3/8) فى البداية من هذا الطريق. وأخرجه ابن عبد البر (3/49) فى الاستيعاب، وأورده الذهبى (3/644) فى تاريخ الإسلام.

وفى هذا درس لكل حاكم، وراعٍ، وعظة لكل من تأتيه هدية بسبب منصبه، وموقعه العملى فى حياة الناس.

هذا الورع من أمير المؤمنين ينطلق من اتصافه بالعدل، فقد عدل فيما بينه وبين الناس، فدعاه عدله إلى الورع، وعدم إيثار نفسه بشىءٍ عنهم، وإن كان زهيداً.

ولعل فى الخبر الذى رواه عبد الله بن زرير ـ رحمه الله ـ ما يوضح ذلك.

يقول: دخلت مع على يوم الأضحى، فقرب إلينا خزيرة، فقلنا: أصلحك الله، لو أطعمتنا من هذا البط، فإن الله قد أكثر الخير، فقال: يا ابن زرير، إنى سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: «لا يحل للخليفة من مال الله إلا قصعتان، قصعة يأكلها هو وأهله، وقصعة يطعمها بين الناس»(١).

الخزيرة: عبارة عن لحمٍ يقطع صغاراً، ويصب عليه ماءٌ كثير، فإذا نضج ذر عليه الدقيق، وقيل: الحساء من سمن ودقيق.

قمة العدل بين الراعى ورعيته، والمساواة التامة بين الحاكم والمحكومين قام بأدائها الخلفاء الراشدون من خلال نهج النبوة القويم.

وما أروع موقف على الورع الذى يحتمل المشقة والشدة، ويتورع عن الأخذ من مال الأمة شيئًا زهيداً.

يحدثنا عنترة بن عبد الرحمن الشيبانى، فيقول: دخلتُ على علىٍّ بن أبى

---

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه أحمد (١/ ٧٨) وفيه ابن لهيعة لكن الراوى عنه فى رواية حرملة عن ابن وهب، ورواية العبادلة صحيحة عن ابن لهيعة كما ذكر أهل العلم فى كتب الرجال.

طالب بالخورنق(١) ، وعليه قطيفة، وهو يرعُد من البرد، فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الله قد جعل لك، ولأهل بيتك نصيبًا فى هذا المال، وأنت ترعد من البرد؟!!

فقال: إنى والله لا أرزأ من مالكم شيئًا، وهذه القطيفة هى التى خرجتُ بها من بيتى، أو قال: من المدينة(٢) .

هكذا التقى الورع مع العدل فى سيرة أمير المؤمنين على بن أبى طالب - رضي الله عنه- فيا ليت أهل الإسلام من سيرته يتعلمون، وبمواقف حياته يتعظون، وبأفعاله الرشيدة يقتدون.

وها هو الخليفة العادل يمشى فى الأسواق، يعظ، وينصح، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

يقول جرموز أبو الحر ـ رحمه الله ـ رأيت عليًّا، وهو يخرج من القصر، وعليه قِطْرِيتَان: إزارٌ إلى نصف الساق، ورداءٌ مُشَمرٌ قريبٌ منه، ومعه درةٌ له يمشى بها فى الأسواق، ويأمرهم بتقوى الله، وحسن البيع، ويقول:

أوفوا الكيل والميزان، ويقول: لا تنفخوا اللحم(٣) .

هكذا يدعو الولى إلى العدل، وقمة العدل تتجلى فى الأسواق حيث يغلب الباطل والزور على الأفعال، والكذب والغش فى الأقوال.

---

(١) الخورنق: اسم قصر بالعراق، وموضع بالكوفة.

(٢) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه أبو عبيد (٣/٨) كما فى البداية، وابن الجوزى (٣١٦/١، ٣١٧) كما فى صفة الصفوة من طريق عباد بن العوام عن هارون بن عنتر عن أبيه به، وأخرجه أبو نعيم (٨٣/١) فى الحلية من هذا الطريق، وأورده الذهبى (٦٤٤/٣) فى تاريخ الإسلام.

(٣) خبرٌ حسنٌ. أخرجه ابن سعد (٢٨/٣) فى طبقاته، وعن طريقه أورده ابن كثير فى البداية (٤/٨)، وأخرجه ابن عبد البر (٤٨/٣، ٤٩) فى الاستيعاب، وأورده الذهبى (٦٤٥/٣) فى تاريخه.

وهكذا كان عليٌّ -رضي الله عنه- من أول الناس إيمانًا، وأوفاهم بعهد الله، وأقومهم بأمر الله، وأقسمهم بالسوية، وأعدلهم فى الرعية، وأبصرهم بالقضية.

ويقول أبو الفرج ابن الجوزى[1] :

سبحان من كسا أهل البيت نورًا، وجعل عليهم خندقًا يقى الرجس وسورًا، فإذا تلقوا يوم القيامة تلقَّوا حبورًا.

﴿ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإنسان:٢٢].

ادخرنا لكم نعيمًا مقيمًا، ومنحنا لكم فضلاً جزيلاً عميمًا وجزينا من كان للفقراء رحيمًا، أولستم قد أطعمتم مسكينًا، ويتيمًا، ورحمتم مأسورًا: ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾.

من مثل على؟! من مثل فاطمة؟! كم صبرا على أمواج بلايا متلاطمة، وآثرا الفقر ونار الجوع حاطمة، فلهم نضارة الوجوه، والأهوال للوجوه خاطمة، يا سرعان ما انقلب حزنهم سرورًا.

﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾.

كانت فاطمة بنت النبى -ﷺ- أحب الناس إليه، وكان عليٌّ أعز الخلق عليه، وجعل الله ريحانته من الدنيا ولديه، فإذا أحضرهم الحق غدًا عنده ولديه أكرمهم إكرامًا عظيمًا، موفورًا.

﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾.

---

(١) انظر: التبصرة (١/ ٤٥٤).

حقًّا لقد كان لعلىٍّ -رضي الله عنه- ما شئت من ضرسٍ قاطعٍ فى العلم، وكان له البسطة فى العشيرة، والقدم فى الإسلام، والصهر لرسول الله -ﷺ-، والفقه فى المسألة، والنجدة فى الحرب، والجود فى وقت الحاجة والشدة وبهذه الكلمات نواصل حديثنا عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب -رضي الله عنه-.

❑❑❑

المسارعة إلى طاعة الله ورسوله - ﷺ -

من صفات أمير المؤمنين على -رضي الله عنه- التى اتصف بها، وعُرف بها من صغره: مسارعته إلى طاعة الله ورسوله -ﷺ-.

ويتجلى ذلك بينًا فى حادثة الهجرة، حيث سارع بالقيام بأمر النبى -ﷺ- ونام فى فراش الرسول -ﷺ- معرضًا نفسه للموت.

ومن المواقف التى وردت فى سيرة أمير المؤمنين دالة على مسارعته إلى السمع والطاعة: الموقف التالى:

يقول على بن أبى طالب -رضي الله عنه-: بعثنى رسول الله -ﷺ-، وأبا مرثد، والزبير، فقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ[1]، فإن بها امرأة من المشركين، معها كتاب من حاطب بن أبى بلتعة إلى المشركين».

قال علىٌّ: فأدركناها تسير على بعيرٍ لها حيث قال رسول الله -ﷺ- فقلنا: الكتاب؟

فقالت: ما معنا كتاب، فأنخناها، فالتمسنا فلم نر كتابًا!!

فقلنا: ما كذب رسول الله -ﷺ-، لتخرجن الكتاب، أو لنجردنك؟

فلما رأت الجدَّ أهوت إلى حجزتها ـ وهى محتجزة بكساء ـ فأخرجته فانطلقنا بها إلى رسول الله -ﷺ-، فإذا فيه: من حاطب بن أبى بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله -ﷺ- فقال عمر: يا رسول الله، قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعنى فلأضرب عنقه.

(١) اسم موضع داخل المدينة.

فقال النبى -ﷺ-: «ما حملك على ما صنعت؟».

فقال حاطب: والله ما بى أن لا أكون مؤمنًا بالله ورسوله -ﷺ-، أردتُ أن تكون لى عند القوم يدٌ يدفع اللهُ بها عن أهلى ومالى وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله.

يا رسول الله، لا تعجل علىَّ، إنى كنتُ امرأً مُلصقًا[1] فى قريش، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين منْ لهم بها قراباتٌ يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدًا يحمون قرابتى، ولم أفعله ارتدادًا عن دينى، ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام.

فقال رسول الله -ﷺ-: «أما إنه قد صدقكم، ولا تقولوا له إلا خيرًا».

فقال عمر: إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين؟!! فدعنى فلأضرب عنق هذا المنافق.

فقال: «إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرًا، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[2] فدمعت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم.

فعلى بن أبى طالب يسارع إلى طاعة أمر الرسول -ﷺ- حتى فى السنن والأذكار يسارع إلى القيام بها حبًّا فى طاعة النبى -ﷺ-.

يقول على -رضي الله عنه-: إن فاطمة -رضي الله عنها- شكت ما تلقى من أثر الرحى[3]، فأتى النبى -ﷺ- سبى، فانطلقت فلم تجده، فوجدت عائشة فأخبرتها.

---

(١) أى حليفًا.

(٢) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (٤٢٧٤)، ومسلم (٢٤٩٤)، وابن أبى شيبة (٧/ ٥٣٩).

(٣) الرحى: آلة معروفةٌ عبارة عن حجر عظيم، يطحن فيه الدقيق وخلافه.

فلما جاء النبي -ﷺ- أخبرته عائشة بمجيء فاطمة، فجاء النبي -ﷺ- إلينا، وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبت لأقوم، فقال: «على مكانكما».

فقعد بيننا، حتى وجدت برد قدميه على صدري، فقال: «ألا أعلمكما خيراً مما سألتُماني؟!».

«إذا أخذتما مضاجعكما، تُكبرا أربعًا وثلاثين، وتسبحا ثلاثًا وثلاثين، وتحمدا ثلاثًا وثلاثين، فهو خيرٌ لكما من خادم»[1] .

قال عليٌّ -رضي الله عنه-: فما فاتتني منذ سمعتها من رسول الله -ﷺ- إلا ليلة صفين، فإني نسيتها حتى ذكرتها من آخر الليل فقلتها.

لذا كان يقول: ما تركته ـ يعني الذكر ـ منذ سمعته من النبي -ﷺ-.

وهكذا تكون المسارعة إلى الطاعة، وهكذا تكون المبادرة إلى الخير.

ولعلَّ من أروع المواقف التي تركها لنا أمير المؤمنين، و قد ظهر فيها مسارعته إلى طاعة الله ورسوله، موقف وفاة والده أبي طالب.

يقول ناجية بن كعب: شهدتُ عليًا يقول: لما توفي أبي أتيت رسول الله -ﷺ- فقلت: «إن عمك الشيخ الضال، قد مات، فمن يواريه؟».

فقال النبي -ﷺ-: «اذهب فواره».

فقلت: إنه مات مشركًا؟!!

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخاري (٤/ ١٠٣)، (٥/ ٣٤)، ومسلم (١٧/ ٤٥)، وأبو داود (٥٠٦٢)، والترمذي (٣٤٦٩)، وأحمد (١/ ٩٦).

فقال النبى -ﷺ-: «اذهب فوار أباك، ولا تحدثن شيئًا حتى تأتينى»[(١)] .

فأتيته فأمرنى، فاغتسلت، ثم دعا لى بدعوات ما يسرنى أن لى بهن ما على الأرض من شىء.

يأتى علىٌّ -رضي الله عنه- فيقول للنبى -ﷺ- إن عمك، يعنى أباه أبا طالب، قد مات، وهو يتساءل ذلك، ما العمل؟

فيأتيه الرد: عليك بدفنه.

فتعجب علىٌّ لـقد مات مشركًا، فكيف بى أقوم بدفنـه؟ فيأمر النبى -ﷺ- فيسارع إلى طاعته.

فيعلمه النبى -ﷺ- ماذا عليه أن يفعل بعـد دفنه، وما ينبغى للرجل المسلم أن يفعله إن كان له قرابة مشركًا، وعلىٌّ يطيع وينقاد لطاعة الله ورسوله -ﷺ-.

□□□

(١) حديثٌ صحـيحٌ. أخرجه أحمـد (١/ ١٣٠)، وأبو داود (٣٢١٤)، والنسائى (١/ ١١٠)، (٤/ ٧٩)، وعبد الرزاق (٩٩٣٦) فى مـصنفه، والطيالسى (٢٣٢٧)، والشافعى (٥٥٥) فى مسنده، والـبيهقى، (٢/ ٤٨، ٣٤٩) فى دلائل النبوة.

زواجه المبارك من فاطمة - رضي الله عنها -

تزوج الإمام على -رضي الله عنه- من فاطمة بنت رسول الله -ﷺ-، وأمها خديجة بنت خويلد، سيدة نساء أهل الجنة، وتم ذلك الزواج الميمون المبارك فى ذى القعدة من سنة اثنين بعد وقعة بدرٍ، وكان البناء والدخول بعد غزوة أحد على الراجح من أقوال أهل العلم.

تزوج علىٌّ من فاطمة -رضي الله عنها- وهى سيدة نساء العالمين فى زمانها وأتقاهن سيرة، وأشدهن على الإسلام غيرة.

ولعلَّ فى بساطة زواجه منها دروس وعبر، يقص علينا أمير المؤمنين على -رضي الله عنه- فيقول: إن رسول الله -ﷺ- لما زوجنى بفاطمة -رضي الله عنها- بعث معها بخميلة[1]، ووسادة حشوها ليف، ورحيين[2]، وسقاء[3]، وجرتين[4].

فقال علىٌّ: والله لقد سنوت[5] حتى اشتكيت صدرى، ولقد جاء رسول الله -ﷺ- سبىٌ، فاذهبى فاطلبى منه خادمة جارية لنا.

وقالت فاطمة -رضي الله عنها- وأنا والله، لقد طحنت حتى مجلت[6] يداى[7].

---

(١) الخميلة: القطيفة المخملة.

(٢) رحيين: يعنى صخرتين يطحن بهما الحب من قمح ونحوه.

(٣) سقاء: كوز يشرب فيه.

(٤) جرتين: مثنى جرة، وهى إناء من فخار لحفظ الماء.

(٥) سنوت أى استقيت من البئر، فكنت مكان السانية وهى الناقة.

(٦) مجلت: تعبت حتى غلظ جلدها، والمجل التقطيع، فكل من عمل عملاً بكفه فغلظ جلدها فقد مجلت كفه.

(٧) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (٣١١٣)، (٣٧٠٥)، (٥٣٦٢)، ومسلم (٢٧٢٧)، وأبو داود (٥٠٦٢)، (٥٠٦٤)، والترمذى (٣٤٦٩)، والنسائى فى «عشرة النساء» (٢٩٠) وابن ماجه (٤١٥٢).

فذهبت إلى رسول الله -ﷺ- لكى تسأله جارية تخدمها، فلما دخلت إلى بيت النبى -ﷺ- أخبرته بما كان من أمر فاطمة، وقد سبق بيان باقى القصة.

ومن يتأمل هذا يستول عليه العجب حيث يرى خير نساء العالمين، وابنة خاتم المرسلين، وزوجة أحد أشراف المسلمين، وهى تعانى شظف العيش وشدته، ومع ذلك لم تتأفف، ولم تكن أنانة، بل كانت صابرة، قانعة.

ويرى المرء الصحابى الجليل عليًّا -رضي الله عنه- صاحب المنزلة الرفيعة، ومن أقرب الناس عهدًا من النبى -ﷺ-، ومع ذلك فإنه يحيا حياة أقل الناس شأنًا، صابرًا، شاكرًا، حامدًا.

فهلا جعلنا من هذا الزواج البسيط المؤنة، القليل التكلفة، أسوة لنا، وقدوة يستضىء بها من يتغالون فى مهور بناتهم؟!!

ويتعجب المرء تارة أخرى عندما يعلم أن مهر على -رضي الله عنه- لم يكن سوى درعه.

يحدثنا ابن عباس -رضي الله عنهما- فيقول: لما تزوج علىٌّ فاطمة، قال رسول الله -ﷺ-: «أعطها شيئًا» قال: ما عندى شىء.

قال عليه الصلاة والسلام: «أين درعك الحطمية؟[1] »[2] .

فأصدقها إياه، وكان ثمنها أربعمائة درهم.

---

(١) الحطمية: هى التى تحطم السيوف وتكسرها، وقيل: العريضة الثقيلة، وقيل: هى منسوبة إلى قبيلة تصنعها.

(٢) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه أبو داود (٢١٢٥)، (٢١٢٦)، والنسائى (٦/ ١٣٠)، وابن سعد (٨/ ٢٢) فى طبقاته، والبيهقى (٧/ ٢٥٢) فى سننه الكبرى.

ويدعونا علىٌّ -رضي الله عنه- إلى البساطة فى أمر تكاليف الزواج، وعدم التغالى، والكلفة، فيقول -رضي الله عنه-: ما كان لنا إلا إهاب كبشٍ ننام على ناحيته(١) .

هكذا كان علىٌّ متواضعًا فى زواجه، فلم يعرف الكماليات التى تضيع حياة المسلم والمسلمة من أجل الحصول عليها.

فقد عاش علىٌّ -رضي الله عنه- مع زوجه فاطمة -رضي الله عنها- بأثاثٍ قليلٍ، حقير، لكنهما كانا أعبد لله تعالى من مسلمى اليوم، الذين انهمكوا فى تحصيل البهرج حتى انشغلوا عن الاستعداد للدار الآخرة.

وقد كان زواجًا مباركًا، ثمرته الكبرى الحسن والحسين، سيدا شباب أهل الجنة -رضي الله عنهما-، وعلى والديهما، والصلاة والسلام على جدهما البشير النذير -ﷺ-.

وقد ظل هذا الزواج قائمًا حتى توفيت فاطمة ـ رضي الله عنها ـ ولم يتزوج عليها فى حياتها.

بل إنه يوم أن أراد أن يتزوج على فاطمة -رضي الله عنها- غضب النبى -ﷺ-، **فإن فاطمة قطعةٌ** منه يريبه ما رابها، ويؤذيه ما آذاها.

وفى هذا المعنى يحدثنا المسود بن مخرمة -رضي الله عنه- فيقول:

سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: وهو على المنبر: «إن بنى هاشم بن المغيرة استأذنونى فى إن ينكحوا ابنتهم إلى على بن أبى طالب، فلا آذن، ثم لا آذن، ثم لا آذن إلا أن يرد على بن أبى طالب أن يطلق ابنتى، وينكح ابنتهم، وأنا لست أحرم حلالاً، ولا أحلل حرامًا، ولكن والله لا يجتمع بنت رسول الله، وبنت عدو الله أبدًا».

---

(١) خبرٌ حسنٌ. اخرجه أحمد (ص/١٩) فى الزهد.

«إنما فاطمة بضعة منى يريبنى ما رابها، ويؤذينى ما آذاها وأنا أتخوف أن تفتن فى دينها»[1] .

فعندما ننظر سويًا إلى قوله -ﷺ-: «استأذنونى فى أن ينكحوا ابنتهم على ابن أبى طالب» فيه ما يشعر أنهم كانوا يعلمون بتحرج الرسول -ﷺ- من هذا الأمر.

أما قوله: «فلا آذن، ثم لا آذن» أى: ولو مضت مدة فلا آذن بعدها أيضًا.

والسبب «فاطمة بضعة منى» والبضعة القطعة، فهى -رضي الله عنها- أصيبت بأمها، ثم بأخواتها واحدة بعد واحدة، فلم يبق لها من تستأنس به، وتفضى له بسرها إلا النبى -ﷺ-.

وأظهر النبى -ﷺ- العلة من المنع، فقال: «يريبنى ما رابها» أى: يسوؤنى ما يسوؤها، ويزعجنى ما يزعجها، يقال: رابنى هذا الأمر، وأرابنى إذا رأيت منه ما تكره.

ومع الريب الذى يسببه: «ويؤذينى ما آذاها» وفى هذا تحريم أذى من يتأذى النبى -ﷺ- بتأذيته، لأن أذى النبى -ﷺ- حرام اتفاقًا، قليله وكثيره، وقد جزم -ﷺ- أنه يؤذيه ما يؤذى فاطمة -رضي الله عنها- فكل مَنْ وقع منه فى حق فاطمة شىء يؤذيها به فهو يؤذى النبى -ﷺ-.

ونكمل المسير مع صفحات أخرى من سيرة وحياة أمير المؤمنين على بن أبى طالب -رضي الله عنه وأرضاه وجعل أعلى عليين مأواه-.

(1) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (926)، (3714)، (5230)، ومسلم (2449)، وأبو داود (2055)، والترمذى (3959)، (3961)، وابن ماجه (1998)، (1999).

على مع النبى -ﷺ- قبل الوفاة

ظل أمير المؤمنين على بن أبى طالب قريبًا من النبى -ﷺ- سائر أحوال حياته، فى السلم وفى الحرب، فى الحضر والسفر، بالليل وبالنهار.

حتى كانت آخر اللحظات فى حياة النبى -ﷺ-، وعن ذلك تقص علينا أم المؤمنين عائشة -رضى الله عنها- فتقول:

لما ثقل رسول الله -ﷺ-، واشتد به وجعه، استأذن أزواجه أن يمرَّضَ فى بيتى، فأذنَّ له، فخرج وهو بين الرجلين، تخط رجلاه فى الأرض بين عباس بن عبد المطلب، وبين رجلٍ آخر.

قال ابن عباس: هو علىٌّ[١].

ويروى ابن عباس -رضى الله عنهما- فيقول: إن على بن أبى طالب -رضى الله عنه- خرج من عند رسول الله -ﷺ- فى وجعه الذى تُوفِّى فيه، فقال الناسُ: يا أبا الحسن، كيف أصبح رسول الله -ﷺ-؟

فقال علىٌّ: أصبح بحمد الله بارئًا[٢]، فأخذ بيده عباس بن عبد المطلب فقال له: أنت والله بعد ثلاث عبدُ العصا[٣]، وإنى والله لأرى[٤] رسول الله -ﷺ- سوف يُتوفى من وجعه هذا، إنى لأعرف وجوه بنى عبد المطلب عند

---

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (٤٤٤٢)، وابن إسحاق (٢٠٧٩) فى السيرة والطبرى (٣/ ١٨٩) فى تاريخه والبيهقى (٧/ ١٧٤) فى الدلائل.

(٢) بارئًا: اسم فاعل من برأ بمعنى أفاق من المرض.

(٣) هو كناية عمن يصير تابعًا لغيره، والمعنى أنه يموت -ﷺ- بعد ثلاثٍ وتصير أنت مأمورًا عليك، وهذا من قوة فراسة العباس -رضى الله عنه-.

(٤) لأرى: بفتح الهمزة، من الاعتقاد وبضمها بمعنى الظن، وهذا قاله العباس -رضى الله عنه- مستندًا إلى التجربة، لقوله بعد ذلك: «إنى لأعرف وجوه بنى عبد المطلب».

الموت، اذهب بنا إلى رسول الله -ﷺ- فلنسأله، فيمن هذا الأمر[١] ؟ إن كان فينا علمنا ذلك، وإن فى غيرنا علمناه فأوصى بنا.

فقال علىٌّ: إنا والله لئن سألناها رسول الله -ﷺ- فمنعناها لا يعطيناها الناسُ بعده، وإنى والله لا أسألها رسول الله -ﷺ-.

فتوفى رسول الله -ﷺ- حين اشتد الضحاء من ذلك اليوم[٢] .

وكان علىٌّ -رضي الله عنه- من الذين نزلوا فى قبر النبى -ﷺ-، فكان قريبًا منه فى حياته، قريبًا منه فى مماته.

وكما كان على وفيًّا فى العهد النبوى، كان كذلك فى عهد الخلفاء الراشدين من بعد النبى -ﷺ-، وهذا ما يتضح لنا فى الصفحات التالية، ومن الله العون والتيسير.

❑❑❑

(١) هذا الأمر: يعنى الخلافة.

(٢) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (٤٤٤٧)، وعبد الرزاق (٩٧٥٤) فى مصنفه، وابن سعد (٢٤٢) فى طبقاته، والبيهقى (٧/ ٢٢٥) فى الدلائل.

مبايعة على بن أبى طالب للصديق

وردت أخبارٌ كثيرة فى شأن تأخر على عن مبايعة الصديق -رضي الله عنه- وكذا تأخر الزبير بن العوام، وجُلّ هذه الأخبار ليس بصحيح إلا ما رواه ابن عباس -رضي الله عنهما- عندما قال: إن عليًّا والزبير، ومن كان معهما تخلفوا فى بيت فاطمة بنت رسول الله -ﷺ-(١).

فقد كان انشغال جماعة من المهاجرين، وعلى رأسهم على بن أبى طالب بأمر جهاز رسول الله -ﷺ- من تغسيل، وتكفين.

ويبدو ذلك واضحًا فيما رواه الصحابى سالم بن عبيد -رضي الله عنه- من أن أبا بكر قال لأهل بيت النبى، وعلى رأسهم على:

عندكم صاحبكم، فأمرهم يغسلونه(٢).

فتأخر علىٌّ عن الذهاب إلى سقيفة بنى ساعدة لأمر وجيه، وليس كما يدعى بعض الرواة لخلافه واعتراضه على استخلاف غيره، فعلى أجلّ من أن يوصف بالحرص على الإمارة.

بل وصل الحال أن استنتج البعض من بعض الروايات أن عليًّا ظل لمدة ستة أشهر لم يبايع الصديق فيها!!

ولعلَّ أصدق ردّ أن نستمع إلى أبى سعيد الخدرى -رضي الله عنه- وهو يروى لنا ما حفظه عن حادثة السقيفة، يقول: لما تُوفى رسول الله -ﷺ- قام خُطباء

---

(١) حديثٌ صحيحٌ. سبق تخريجه.

(٢) حديثٌ صحيحٌ. سبق تخريجه. وانظر: مسند أحمد (١/٨)، وتاريخ الطبرى (٣/ ٢١١، ٢١٢) فقد ذكر على بن أبى طالب فيمن قاموا بتغسيل النبى -ﷺ-.

الأنصار، فجعل منهم من يقول:

يا معشر المهاجرين إن رسول الله -ﷺ- كان إذا استعمل رجلاً منكم قرن معه رجلاً منا، فنرى أن يلى هذا الأمر رجلان منا ومنكم.

قال: وتتابعت خطباء الأنصار على ذلك، فقام زيد بن ثابت فقال: إن رسول الله -ﷺ- كان من المهاجرين، ونحن أنصاره، كما كنا أنصار رسول الله -ﷺ-، فقام أبو بكر فقال:

جزاكم الله خيراً من حى يا معشر الأنصار، وثبت قائلكم، أما والله لو فعلتم غير ذلك لما صالحناكم.

ثم أخذ عمر(١) بيد أبى بكر فقال: هذا صاحبكم فبايعوه فبايعه عمر، وبايعه المهاجرون، والأنصار، قال: فصعد أبو بكر المنبر، فنظر فى وجوه القوم، فلم ير عليًّا، فدعا بعلى بن أبى طالب، فقام ناسٌ من الأنصار، فأتوا به.

فقال أبو بكر: ابن عم رسول الله، وختنه(٢) ، أردت أن تشُقَّ عصا المسلمين؟ فقال على: لا تثريب(٣) يا خليفة رسول الله، فبايعه، ثم لم ير الزبير ابن العوام، فسأل عنه حتى جاءوا به، فقال أبو بكر: ابن عمة رسول الله، وحواريه، أردت أن تشق عصا المسلمين؟.

---

(١) فى بعض طرق هذه الرواية ذكر زيد موضع عمر بن الخطاب والأصح ما ذكرناه، وهى رواية بندار بن بشار، وأبى هشام المخزومى عن وهيب.

(٢) أى زوج ابنته.

(٣) التثريب: كالتأنيب والتعيير، ولا تثريب أى الإفساد وكأن على بن أبى طالب ينفى أنه يقصد بتأخره شق عصا المسلمين، فهو لا يريد فساداً بحال.

فقال الزبير: لا تثريب يا خليفة رسول الله، فبايعه[١] .

هذا الخبر العظيم المعنى، الصحيح السند، جعل أهل العلم يحرصون على سماعه، وعلى رأسهم الإمام مسلم.

فيقول الحافظ ابن خزيمة: جاءنى مسلم بن الحجاج فسألنى عن هذا الحديث فكتبته له فى رقعة، وقرأت عليه، فقال: هذا حديث يسوى بدنة.

فقلت: يسوى بدنة[٢] ؟ بل يسوى بدرة[٣] .

ويعلق على هذا الحديث ابن كثير ـ رحمه الله ـ فيقول:

هذا إسناد صحيح محفوظ، وفيه فائدة جليلة، وهى مبايعة على بن أبى طالب إما فى أول يوم، أو فى اليوم الثانى من الوفاة، وهذا حق، فإن على بن أبى طالب لم يفارق الصديق فى وقتٍ من الأوقات، ولم ينقطع فى صلاة من الصلوات خلفه.

وهنا نزيد القارئ المسلم بيانًا، فنقول: إن عليًّا -رضي الله عنه- بايع أبا بكر فى السقيفة ـ كما مر بنا ـ ثم لما حدث، وجدد على البيعة بعد وفاة فاطمة -رضي الله عنها- ظن البعض أنه تأخر عن البيعة من بدايتها.

تروى عائشة -رضي الله عنها- فتقول: إن فاطمة بنت رسول الله -ﷺ- أرسلت إلى

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ١٨٥، ١٨٦)، وابن أبى شيبة (٨/ ٥٦٩) فى مصنفه والحاكم (٣/ ٨٦) وصححه، والبيهقى (٨/ ١٤٣) فى سننه الكبرى، وذكر الكلام المنقول عن مسلم بسنده إليه وصححه ابن كثير فى البداية (٥/ ٢٤٩).

(٢) البدنة: ناقة أو بقرة تنحر بمكة، وسميت بذلك لأنهم كانوا يسمنونها، فلعظمها وضخامتها سميت البدنة.

(٣) البدرة: كيسٌ فيه ألف أو عشرة آلاف دينار، والمعنى: أنه كنز ثمينٌ.

أبى بكر تسأله ميراثها من رسول الله -ﷺ- مما أفاء الله عليه بالمدينة وفدك[١] ، وما بقى من خُمس خيبر، فقال أبو بكر: إن رسول الله -ﷺ- قال: «لا نورث ما تركناه صدقة»[٢] إنما يأكل آل محمد -ﷺ- من هذا المال.

وإنى والله لا أغير شيئًا من صدقة رسول الله -ﷺ- عن حالها التى كانت عليه فى عهد رسول الله -ﷺ- ولأعملن فيها بما عمل به رسول الله -ﷺ-.

فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة منها شيئًا، فوجدت فاطمة على أبى بكر فى ذلك فهجرته، فلم تكلمه حتى توفيت، وعاشت بعد النبى -ﷺ- ستة أشهر.

فلما توفيت دفنها زوجها على ليلاً، ولم يؤذن بها أبا بكر، وصلى عليها[٣] وكان لعلى من الناس وجه فى حياة فاطمة، فلما توفيت استنكر على وجوه الناس[٤] ، فالتمس مصالحة أبى بكر ومبايعته[٥] ، ولم يكن يبايع تلك

---

(١) فدك: بفتح الفاء والدال، بلد بينها وبين المدينة ثلاث مراحل.

(٢) أى الذى تركناه فهو صدقة، والحكمة فى أن أنبياء الله لا يورثون: أنه لا يؤمن فى الورثة من يتمنى موته فيهلك، ولئلا يظن بهم الرغبة فى الدنيا لوارثهم فيهلك الظان وينفر الناس عنهم.

(٣) كان ذلك بوصية منها لإرادة الزيادة فى التستر، ولعله لم يعلم أبا بكر بموتها لأنه ظن أن ذلك لا يخفى عنه، وليس فى الخبر ما يدل على أن أبا بكر لم يعلم بموتها. انظر: الفتح (٧/ ٤٩٤).

(٤) أى كان الناس يزيدون فى احترامه إكرامًا لفاطمة -رضي الله عنها- فلما ماتت، واستمر على عدم الحضور عند أبى بكر قصر الناس عن ذلك الاحترام لإرادة دخوله فيما دخل فيه الناس، ولذلك قالت عائشة فى آخر الحديث: «لما جاء وبايع كان الناس قريبًا إليه، حين راجع الأمر بالمعروف».

وكأنهم كانوا يعذرونه فى التخلف عن أبى بكر فى مدة حياة فاطمة لشغله بها وتمريضها، وتسليتها عما هى فيه من الحزن على أبيها -ﷺ- ولأنها لما غضبت من رد أبى بكر عليها فيما سألته من الميراث، رأى على أن يوافقها فى الانقطاع عنه. أفاده ابن حجر فى المرجع السابق.

(٥) يعنى البيعة العامة، وإلا فالبيعة الخاصة مرت كما سبق فى حديث أبى سعيد الخدرى.

الأشهر(١) ، فأرسل إلى أبى بكر: أن ائتنا، ولا يأتى معك أحدٌ، كراهة لمحضر عمر(٢) .

فقال عمر لأبى بكر: لا والله، لا تدخل عليهم وحدك(٣) .

فقال أبو بكر: وما عساهم أن يفعلوا بى؟ والله لآتينهم، فدخل عليهم أبو بكر(٤) فتشهد علىٌّ، ثم قال:

---

(١) قال المازرى: العذر لعلى فى تخلفه مع ما اعتذر هو به أنه يكفى فى بيعة الإمام أن يقع من أهل الحل والعقد، ولا يجب الاستيعاب، ولا يلزم كل أحد أن يحضر عنده، ويضع يده فى يده، بل يكفى طاعته والانقياد له بأن لا يخالفه، ولا يشق العصا عليه، وهذا كان حال على، لم يقع منه إلا التأخر عن الحضور عند أبى بكر.

وقال النووى: أما تأخر على -رضي الله عنه- عن البيعة فقد ذكره فى الحديث، واعتذر أبو بكر -رضي الله عنه- ومع هذا فتأخره ليس بقادح فى البيعة، ولا فيه.

أما البيعة فقد اتفق العلماء على أنه يشترط لصحتها مبايعة كل الناس، ولا كل أهل الحل والعقد، وإنما يشترط مبايعة من تيسر إجماعهم من الرؤساء والعلماء، ووجوه الناس. وأما عدم القدح فيه للعذر المذكور فى الحديث، ولم يكن انعقاد البيعة، وانبرامها متوقفًا على حضوره، فلم يجب عليه الحضور لذلك، ولا لغيره، فلما لم يجب لم يحضر، وما نقل عنه قدح فى البيعة، ولا مخالفة، ولكن بقى فى نفسه عتب، فتأخر حضوره إلى أن زال العتب، انظر: الفتح (٧/ ٤٩٤)، شرح النووى على مسلم (١٢/ ٧٨).

(٢) السبب فى ذلك ما ألفوه من قوة عمر وصلابته فى القول والفعل، وكان أبو بكر رقيقًا لينًا، فكأنهم خشوا من حضور عمر كثرة المعاتبة التى قد تفضى إلى خلاف ما قصدوه من المصافاة.

وقال النووى: أما كراهيتهم لمحضر عمر، فلما علموا من شدته، وصدعه بما يظهر له، فخافوا أن ينتصر لأبى بكر -رضي الله عنه-، فيتكلم بكلام يوحش قلوبهم على أبى بكر، وكانت قلوبهم قد طابت عليه، وانشرحت له، فخافوا أن يكون حضور عمر سببًا لتغيرها. انظر: الفتح (٧/ ٤٩٤)، شرح النووى (١٢/ ٧٨).

(٣) معناه: أن عمر -رضي الله عنه- خاف أن يغلظوا على أبى بكر فى المعاتبة، ويحملهم على الإكثار من ذلك لين أبى بكر، وصبره عن الجواب عن نفسه، وربما رأى من كلامهم ما غير قلبه، فيترتب على ذلك مفسدة خاصة أو عامة، وإذا حضر عمر امتنعوا من ذلك، فالمراد من قوله: لا تدخل عليهم، لئلا يتركوا من تعظيمك ما يجب لك.

(٤) فيه دليل على أن إبرار القسم إنما يؤمر به الإنسان إذا أمكن احتماله بلا مشقة، ولا تكون فيه مفسدة، وعلى هذا يحمل الأمر النبوى بإبرار القسم.

إنا قد عـرفنا يا أبا بكر فضلك، ومـا أعطاك الله ولم ننفس[١] عليك خـيرًا ساقه الله إليك، ولكنك اسـتبددت بالأمر[٢] وكنا نرى لقرابتنا من رسول الله - ﷺ- نصيبًا[٣] ، حتى فاضت عينا أبى بكر[٤] .

فلما تكلم أبو بكر قـال: والذى نفسى بيده لقـرابة رسول الله -ﷺ- أحب إلى من أصل قرابتى، وأما الذى شجر[٥] بينى وبينكم من هذه الأموال، فإنى لم آل فـيهـا عن الحق، ولم أترك أمرًا رأيت رسـول الله -ﷺ- يصنعـه فيـها إلا صنعته.

ولكن لما وقعت هذه البيعة الثانية اعتقد بعض الرواة أن عليًّا لم يبايع قبلها، فنفى ذلك، والمثبت مقدم على النافى.

وأما غضب فـاطمة -رضي الله عنها وأرضاها- على أبى بكر -رضي الله عنه- فمـا أدرى ما وجهه، فـإن كان لمنعه إياها ما سـألته من الميراث، فـقد اعتذر إليهـا بعذر يجب

---

(١) ننفس: بفتح الفاء أى لم نحسدك.

(٢) أى لم تشاورنا فى الخلافة.

(٣) فسبب العتـب من على أنه مع وجاهته، وفضيلته فى نفـسه، وقربه من النبى -ﷺ- وغير ذلك لم يستشر فى مسألة الخلافة أولاً.

وكان عـذر أبى بكر وعمـر وسائر الصحـابة واضحًا لأنـهم رأوا المبادرة بالبيـعة من أعظم مـصالح المسلمين، وخافوا من تأخيرها حصول خلاف، ونزاع يتـرتب عليه مفاسد عظيمة، ولهذا أخروا دفن النبى -ﷺ- حتى عـقدوا البيعـة لكونها كانت أهم الأمـور كيلا يقع نزاع فى مـدفنه، أو كفنه، أو غسله، أو الصلاة عليه، أو غير ذلك، وليس لهم من يفصل الأمور، فرأوا تقدم البيعة أهم الأشياء.

فالعذر لأبى بكر -رضي الله عنه- أنه خشى من التأخر عن البيعة الاختلاف لما كان وقع من الأنصار كما تقدم فى خبر السقيفة، فلم ينتظروه، بل جىء به للمبايعـة على الفور كما سبق بيانه فى حديث أبى سعيد الخدرى -رضي الله عنه-.

(٤) أى: لم يزل علىٌّ يذكر قرابته من رسول الله -ﷺ- حتى فاضت عينا أبى بكر من الرقة.

(٥) شجر: يعنى الاختلاف والمنازعة.

قبوله، وهو ما رواه عن أبيها رسول الله -ﷺ- أنه قال: «لا نورث ما تركناه صدقة».

وهى ممن ينقاد لنص الشارع الذى خفى عليها قبل سؤالها الميراث، كما خفى على أزواج النبى -ﷺ- حتى أخبرتهن عائشة بذلك، ووافقنها عليه.

وليس يظن بفاطمة -رضي الله عنها- أنها اتهمت الصديق فيما أخبرها به، وحاشاه من ذلك، كيف وقد وافقه على رواية هذا الحديث: عمر، وعثمان، وعلى، والعباس، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبى وقاص، وأبو هريرة، وعائشة -رضي الله عنهم- أجمعين-.

ولو تفرد بروايته الصديق -رضي الله عنه- لوجب على جميع أهل الأرض قبول روايته، والانقياد له فى ذلك.

وإن كان غضبها لأجل ما سألت الصديق إذ كانت هذه الأراضى صدقة لا ميراثًا أن يكون زوجها ينظر فيها، فقد اعتذر بما حاصله أنه لما كان خليفة رسول الله -ﷺ- فهو يرى أن فرضًا عليه أن يعمل بما كان يعمله رسول الله -ﷺ- ويلى ما كان يليه رسول الله -ﷺ-[1].

وهى امرأة من بنات آدم تأسف كما يأسفن، وليست بواجبة العصمة مع وجود نص رسول الله -ﷺ- ومخالفة أبى بكر الصديق -رضي الله عنه- وهو الصادق، البار، الراشد، التابع للحق، واحتاج علىٌّ أن يراعى خاطرها بعض الشىء، فلما ماتت -رضي الله عنها- رأى أن يجدد البيعة[2] وقد جاء التصريح بأسباب تأخر على

---

(١) انظر: البداية (٥/ ٢٨٧) لابن كثير.

(٢) المصدر السابق (٥/ ٢٨٩).

والزبير عن البيعة فما رواه عبد الرحمن، فقال عليٌّ لأبى بكر: موعدك العشية[١] للبيعة.

فلما صلى أبو بكر صلاة الظهر رقى[٢] على المنبر فتشهد، وذكر شأن على وتخلفه عن البيعة وعذره بالذى اعتذر به إليه، ثم استغفر الله.

وتشهد على فعظم حق أبى بكر وذكر فضيلته، وسابقته، وأنه لم يحمله على الذى صنع نفاسة على أبى بكر، ولا إنكاراً للذى فضله الله به، ولكنا كنا نرى لنا فى هذا الأمر نصيبًا، فاستبد علينا به، فوجدنا فى أنفسنا[٣].

فسر بذلك المسلمون، وقالوا: أصبت، فكان المسلمون إلى عليٍّ قريبًا حين راجع الأمر بالمعروف[٤].

يقول العلامة ابن كثير ـ رحمه الله ـ:

فهذه البيعة التى وقعت من على بن أبى طالب -رضي الله عنه- بعد وفاة فاطمة -رضي الله عنها- بيعة مؤكدة للصلح الذى وقع بينهما، وهى ثانية للبيعة التى ذكرناها أولاً يوم السقيفة، كما رواه ابن خزيمة، وصححه مسلم بن الحجاج، ولم يكن مجانبًا لأبى بكر هذه الستة الأشهر، بل كان يصلى وراءه، ويحضر عنده للمشورة.

---

(١) العشية: هى من زوال الشمس.

(٢) رقى: علا.

(٣) قال القرطبى: من تأمل ما دار بين أبى بكر وعلى من المعاتبة، ومن الاعتذار، وما تضمن ذلك من الإنصاف عرف أن بعضهم كان يعترف بفضل الآخر، وأن قلوبهم، كانت متفقة على الاحترام والمحبة، وإن كان الطبع البشرى قد يغلب أحيانًا، ولكن الديانة ترد ذلك.

(٤) حديث صحيح. أخرجه البخارى (٣٠٩٢)، (٤٢٤٠، ٤٢٤١)، ومسلم (١٧٥٩)، وابن سعد (٨/ ٢٨) فى طبقاته، وأحمد (٦/ ١٤٥)، وأبو داود (٢٩٦٨ ـ ٢٩٧٠).

وفى صحيح البخارى أن أبا بكر -رضي الله عنه- صلى العصر بعد وفاة رسول الله -ﷺ- بليال، ثم خرج من المسجد، فوجد الحسن بن على يلعب مع الغلمان، فاحتمله على كاهله، وجعل يقول: بأبى شبه النبى، ليس شبيهًا بعلى، وعلى يضحك[١] .

ابن عوف -رضي الله عنه- فى الخبر التالى، يقول:

قام أبو بكر فخطب الناس واعتذر إليهم، وقال: والله ما كنت حريصًا على الإمارة يومًا، ولا ليلة قط ولا كنت فيها راغبًا، ولا سألتها الله ـ عز وجل ـ فى سر ولا علانية، ولكنى أشفقت من الفتنة، ومالى فى الإمارة من راحة، ولكن قلدت أمرًا عظيمًا، مالى به من طاقة ولا يد إلا بتقوية الله ـ عز وجل ـ ولوددت أن أقوى الناس عليها مكانى اليوم، فقبل المهاجرون منه ما قال، وما اعتذر به.

قال على -رضي الله عنه- والزبير: ما غضبنا إلا لأنا قد أخرنا عن المشاورة، وإنا نرى أبا بكر أحق الناس بها بعد رسول الله -ﷺ- إنه لصاحب الغار، وثانى اثنين، وإنا لنعلم بشرفه وكبره، ولقد أمره رسول الله -ﷺ- بالصلاة بالناس، وهو حى[٢] .

وظل الإمام على -رضي الله عنه- صادقًا أمينًا فى علاقته بالخليفة، ينصحه ويقدم له مشورته، ويسدى النصح لعماله حتى توفى الله أبا بكر -رضي الله عنه-، وهو راضٍ عن الإمام على -رضي الله عنه-.

وكما كان الإمام على فى عهد الصديق، كذا كان فى عهد الفاروق، وعهد ذى النورين، وهذا ما نتعرف عليه الآن.

---

(١) خبر صحيح. أخرجه البخارى (٣٧٥٠).

(٢) إسناده صحيح. أخرجه الحاكم (٣/ ٦٦، ٦٧) وصححه، وأقره الذهبى.

على فى عهد الفاروق

اشتدت الحاجة إلى علم أمير المؤمنين على -رضي الله عنه- فى عهد الفاروق عمر -رضي الله عنه- فكان يستشيره، ويحيل إليه فى الفتيا، كما مر بنا ذلك عند الحديث عن علم الإمام على -رضي الله عنه- وكانت منزلته فى عهد الفاروق، واضحة بينة، والتعاون المثمر لصالح الإسلام والمسلمين على أشده باديًا.

ولعل كلمات الإمام على فى الثناء على عمر عند وفاته لتبين لنا حقيقة العلاقة الحميمة بين الإمامين المهديين.

يروى ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه لما قبض عمر بن الخطاب كان عند سريره، فتكنفه الناس يدعون، ويثنون، ويصلون عليه قبل أن يرفع، يقول ابن عباس:

وأنا فيهم، فلم يرعنى إلا رجل قد أخذ بمنكبى من ورائى، فالتفت، فإذا على بن أبى طالب، فترحم على عمر، وقال:

ما خلفت أحدًا أحبَّ إلىَّ أن ألقى الله بمثل عمله منك، وايم الله إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك، ولقد كنت كثيرًا أسمع رسول الله -ﷺ- يقول:

«ذهبت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر»(١).

فكنت أظن أن يجعلك الله مع صاحبيك.

❑❑❑

(١) حديث صحيح. أخرجه البخارى (٥/ ١٤)، وابن ماجه (٩٨)، والحاكم (٣/ ٦٨)، وابن شبة (٣/ ٩٤١) فى تاريخ المدينة، والخطيب (١٣/ ٤٥٩) فى تاريخه.

موقف على من ذى النورين

حدثت الفتن بين الصحب الكرام فى عهد ذى النورين بسبب الكتب المفتراة، التى دست زورًا وبهتانًا، ولفقت على عثمان، وعلى، وعائشة -رضي الله عنهم أجمعين-. وقد افترى البعض حقدًا، وحسدًا تارة، وكيدًا للإسلام تارة أخرى، وغفلة وسوء ظن تارة أخرى بأن عليًا تمالأ على ذى النورين، وخذله.

قبحهم الله فى قولهم، إذ كان لا يليق بأحاد المسلمين أن يتوانى، أو يتكاسل عن نصرة خليفة المسلمين، وأمير المؤمنين، أفيجوز ذلك على أفضل المسلمين إسلامًا بعد خليفتهم؟

فى البدء أقول إنه لم يدر فى خلد أحدٍ من المسلمين أن يصل الأمر بالبغاة الخوارج الملقبين زورًا بالثوار إلى انتهاك حرمة دم عثمان -رضي الله عنه-.

فيروى جبير بن مطعم -رضي الله عنه- فيقول: لما حصر عثمان -رضي الله عنه- حتى والله ما يشرب إلا من الفقير[1]، فقير الدار، فدخلت على على بن أبى طالب، فقلت: يا ابن أبى طالب، أقد رضيت بهذا؟ أن يحصر ابن عمك، حتى والله ما يشرب إلا من فقير الدار؟

فقال على: سبحان الله فقد بلغوا هذا منه؟

قال جبير: نعم، وأشد من هذا.

قال: فحمل على الروايا[2] حتى أدخلها عليه، وسقاه[3].

---

(١) الفقير: بئر قليلة الماء غير العذبة.

(٢) الروايا: جمع راوية، وهى المزادة فيه الماء، وهى عبارة عن وعاء جلدى يوضع فيه الماء، وسميت راوية لمكان البعير الذى يحملها، والروايا من الإبل، الحوامل للماء.

(٣) خبر صحيح. أخرجه ابن عساكر (ص٣٦٩/ ترجمة عثمان) فى تاريخه، وأورده الذهبى (٣/ ٤٤٩) فى السير.

ويقص علينا سعيد بن المسيب ـ رحمه الله ـ فيقول: حاصره أولئك حتى منعوه الماء، فأشرف يومًا فقال: أفيكم علىٌّ؟ قالوا: لا. قال: أفيكم سعد؟ قالوا: لا. فسكت، ثم قال:

ألا أحدٌ يسقينا ماء؟ فبلغ ذلك عليًّا، فبعث إليه بثلاث قربٍ، فجرح فى سببها جماعة حتى وصلت إليه.

وبلغ عليًّا أن عثمان يراد قتله، فقال: إنما أردنا منه مروان، فأما عثمان فلا ندع أحدًا يصل إليه[١].

ولعل أقرب من يظهر لنا حقيقة وفاء على لذى النورين ابن عثمان، فيقص علينا أبان بن عثمان ـ رحمه الله ـ فيقول:

لما ألح على عثمان بالرمى، خرجت حتى أتيت عليًّا، فقلت: يا عم، أهلكتنا الحجارة، فجاء علىٌّ حتى دخل، فلم يزل يرميهم بيمينه حتى وهنت، ثم لم يزد يرميهم بشماله حتى وهنت، ثم قال: يا ابن أخى، اجمع حشمك، وافعل كما ترانى أفعل.

وفى رواية أخرى: فلم يزل يرمى عنه حتى فتر منكبه، ثم قال: يا ابن أخى، اجمع حشمك، ومن كان منك بسبيل، ثم يكون هذا شأنك[٢].

وكان من أبناء على -رضي الله عنه- من أوذى، وهو يدافع عن ذى النورين -رضي الله عنه-.

يقول الحسن البصرى رحمه الله:

---

(١) خبر حسن. أخرجه ابن عساكر (ص٣٦٩).

(٢) خبر حسن. أخرجه ابن عساكر (ص٣٧٠، ٣٧١).

كان الحسن بن على آخر من خرج من عند عثمان(١) .

ويروى كنانة مولى صفية ـ رحمه الله ـ فيقول: أُخرج من الدار ـ يعنى دار عثمان ـ أربعة، من شباب قريش مدرجين محمولين، كانوا يدرءون عن عثمان -رضي الله عنه- فذكر الحسن بن على، وابن الزبير، ومحمد بن حاطب، ومروان بن الحكم(٢) .

ويقول كنانة ـ رحمه الله ـ: كنت فيمن حمل الحسن بن على جريحًا من دار عثمان(٣) .

وعندما قتل عثمان -رضي الله عنه- وعلم على -رضي الله عنه- خرج فقال: تبًّا لهم سائر الدهر(٤) .

وتبرأ من قتلته، ومن فعلهم الأثيم، وقال وهو حزين: والله ما قتلت عثمان، ولا أمرت بقتله ولكن غلبت.

اللهم إنى أبرأ إليك من أمر عثمان(٥) .

وسنرى فى الصفحات التالية ما يؤكد على ديانة على وحبه لذى النورين، وغضبه لمقتله.

❑❑❑

---

(١) خبر صحيح. أخرجه خليفة (١/ ١٧٤) فى تاريخه، وعن طريقه الحاكم (٣/ ١٠٦)، وابن عساكر (ص٣٩٧).

(٢) خبر حسن. أخرجه ابن شبة (٤/ ١٢٩٨) فى تاريخه، وابن عبد البر (٢/ ٤٩٨) فى الاستيعاب.

(٣) خبر صحيح. أخرجه ابن عساكر (ص٣٩٧).

(٤) خبر صحيح. أخرجه ابن أبى شيبة (٨/ ٦٨٤) فى مصنفه.

(٥) خبر صحيح. أخرجه عبد الرزاق (٢٠٩٧٢) فى مصنفه، وابن سعد (٣/ ٨٢) فى طبقاته.

ولاية الإمام على خلافة المسلمين

تسور الثوار الجبناء، البغاة الخوارج على ذى النورين داره، وارتكبوا جريمتهم القبيحة، وفعلتهم الشنعاء، وسقط عثمان بن عفان شهيدًا فى داره - رضي الله عنه وأرضاه-.

وهنا صعدت امرأته إلى الناس، فقالت: إن أمير المؤمنين قد قتل فدخل الحسن والحسين ابنا على -رضي الله عنهم- وكانا فى حراسته من الخارج ومن كان معهما فوجدوا عثمان -رضي الله عنه- مذبوحًا فانكبوا عليه يبكون وخرجوا، ودخل الناس فوجدوه مقتولاً.

فبلغ على بن أبى طالب الخبر، وطلحة، والزبير، وسعدًا، ومن كان بالمدينة، فخرجوا، وقد ذهبت عقولهم للخبر الذى أتاهم حتى دخلوا عليه، فوجدوه مذبوحًا، فاسترجعوا.

وقال علىٌّ لابنيه: كيف قتل أمير المؤمنين، وأنتما على الباب؟

ورفع يده فلطم الحسن، وضرب صدر الحسين، وعنف محمد بن طلحة، ولعن عبد الله بن الزبير، وخرج وهو غضبان.

فلقيه طلحة فقال: مالك يا أبا الحسن، ضربت الحسن والحسين؟

فقال: عليك وعليهما لعنة الله، ألا يسوؤنى ذلك؟

يقتل أمير المؤمنين، رجل من أصحاب رسول الله -ﷺ- بدرى؟ لم تقم عليه بينة، ولا حجة؟

وكان يرى أن طلحة أعان على من كان من أمر عثمان، فقال طلحة:

لو دفع مروان لم يقتل.

فقال علىٌّ: لو أخرج إليكم مروان لقتل قبل أن تثبت عليه حكومة.

وخرج علىٌّ فأتى منزله فجاء الناس كلهم يهرعون إلى علىٍّ، أصحاب النبى -ﷺ- وغيرهم، كلهم يقول: أميـر المؤمنين على، حتى دخلوا عليه داره وقالوا له: نبايعك فمد يدك، فلابد من أميرٍ!

فقـال على: ليس ذلك إليكم، إنما ذلك إلى أهل بدر، فـمن رضى به أهل بدر، فهو خليفة.

فلم يبق أحـدٌ من أهل بدر إلا أتى عليًّـا، فـقالوا: مـا نرى أحدًا أحق بهـا منك، مد يدك نبايعك. فقال على: أين طلحة والزبير؟

فكان أول من بايعه طلحـة بلسانه وسعد بيده، فلـما رأى ذلك علىٌّ خرج إلى المسجد، فصعد المنبر، فكان أول من صعـد إليه طلحة فبايعه بيده، ثم بايعه الزبير، وسعد، وأصحاب النبى -ﷺ- جميعًا.

ثم نزل فدعا الناس، وطلب مروان فـهرب منه، وطلب نفرًا من ولد مروان وبنى أبى معيط فهربوا منه.

وخرجت عائشة باكية تقول: قتل عثمان!!

وجاء علىٌّ إلى امرأة عثمان فقال لها: من قتل عثمان؟

قالت: لا أدرى، دخل علـيه رجلان لا أعـرفهمـا إلا أن أرى وجوههـما، وكان معهما مـحمد بن أبى بكر، وأخبرت عليًّا والناس ما صنع محـمد، فدعا علىٌّ محمدًا، فسأله عما ذكرت امرأة عثمان، فقال محمد: لم تكذب، قد والله

دخلت عليه وأنا أريد قتله، فذكر لى أبى فقمت عنه، وأنا تائب إلى الله تعالى، والله ما قتلته، ولا أمسكته.

فقالت امرأته: صدق، ولكنه أدخل اللذين قتلاه(١) .

فكان مقتل ذى النورين فى سنة خمس وثلاثين من هجرة النبى الأمين - ﷺ- وفى هذه السنة كانت خلافة الإمام على -رضي الله عنه-.

ويبدو لنا واضحًا إلحاح المسلمين على علىّ -رضي الله عنه- لتولى الخلافة فى تلك الظروف العسيرة، المضطربة والتى تذهب بحلم الحليم.

وعندما نتأمل بيعة على -رضي الله عنه- نجد حرص الناس على توليه، مع حرص على -رضي الله عنه- على التمهل والروية فى قبولها.

وبويع على -رضي الله عنه- يوم الجمعة لخمس بقين من ذى الحجة كما ذكر أصحاب السير والتواريخ، وذلك من سنة خمس وثلاثين.

وكان موضع البيعة هو مسجد النبى -ﷺ- حيث البيعة العامة.

ولقد زان علىٌّ الخلافة وما زانته، ورفعها وما رفعته، وكانت هى أحوج إليه منه إليها -رضي الله عنه وأرضاه-.

ولعل من الأدلة البينة على عدم تكالب علىٍّ -رضي الله عنه- على منصب الخلافة،

---

(١) خبر حسن. أخرجه ابن شبة (١٣٠٣/٤) فى «أخبار المدينة» وابن عساكر (ص٤٢١، ٤٢٢) فى تاريخه، وأورده الذهبى (٤٥٩/٣، ٤٦٠) فى تاريخ الإسلام، والسيوطى (ص١٥٧ ـ ١٦١) فى تاريخ الخلفاء والمحب الطبرى (١٢٥/٢) فى الرياض النضرة وأخرجه ابن الأثير (١١٣/٤) فى أسد الغابة.

ما رواه لنا كـاتب على، عبـيد الله بن أبى رافع ـ رحمـه الله ـ قال: رأيت عليًّا حين ازدحموا عليه حتى أدموا رجله، فـقال: اللهم إنى قد كرهتهم، وكرهونى، فأرحنى منهم، وأرحهم منى[١] !!

فعلى -رضي الله عنه- ما أراد من الخلافة إلا جمع ما تفرق من شمل المسلمين وسد ما انفتق فى دولة الإسلام، وصد من حاول النيل من الإسلام والمسلمين.

□□□

(١) خبر صحيح. أخرجه ابن أبى شيبة (٨/ ٥٨٦) فى مصنفه.

وبدأ الخلاف وجاءت الفتنة

تولى على -رضي الله عنه- خلافة المسلمين، وتحمل حملاً ثقيلاً، ولم يكن من بد لتولى أمر الأمة، إذ لو تُرك أمر الخلافة لغير أهله، كان ذلك تضييعًا وإبطالاً لما جاء به النبى -ﷺ- من معانٍ تحض على عدم إسناد الأمر لغير أهله، وإلا كانت الساعة، وحلت النقمة.

تمت البيعة لعلى بن أبى طالب -رضي الله عنه- ولكن بدأت الفتنة تطل على المسلمين من خلال المطالبة بدم عثمان الخليفة المقتول ظلمًا، وبهتانًا.

بدأ على يرتب أحوال الأمة، ولكن علت أصواتٌ تطالبه بالبدء بالقصاص من قتلة عثمان، والإمساك بهم، وقد تفرق بعضهم هاهنا واختبأ البعض الآخر فى مواطن بعيدة.

فيحدثنا علقمة بن وقاص ـ رحمه الله ـ فيقول: خرج طلحة، والزبير، وعائشة للطلب بدم عثمان، وعرضوا الناس بذات عرقٍ، فاستصغروا عروة بن الزبير، وأبا بكر بن عبد الرحمن فردوهما.

قال: ورأيت طلحة، وأحبُّ المجالس إليه أخلاها، وهو ضاربٌ بلحيته على زوره، فقلت: يا أبا محمد، إنى أراك وأحب المجالس إليك أخلاها، إن كنت تكره هذا الأمر، فدعه. فقال: يا علقمة، لا تلمنى، كنا أمس يدًا واحدة على من سوانا، فأصبحنا اليوم جبلين من حديد، يزحف أحدنا إلى صاحبه.

ولكنه كان منى شىء فى أمر عثمان، مما لا أرى كفارته إلا سفك دمى، وطلب دمه[1].

---

(1) خبر حسن. أخرجه الحاكم (3/ 372) وحسنه الذهبى، وأخرجه الطبرى (4/ 453) فى تاريخه مختصرًا، وأورده الذهبى (1/ 34) فى السير كاملاً.

وفى رواية أخرى قال طلحة -رضي الله عنه-:

يا علقمة بن وقاص، بينا نحن يدٌ واحدة على من سوانا، إذ صرنا جبلين من حديد يطلب بعضنا بعضًا، إنه كان منِّى فى عثمان شىءٌ ليس توبتى إلا أن يسفك دمى فى طلب دمه.

قال: قلت: فردُّ محمد بن طلحة، فإن لك ضيعة وعيالاً، فإن يك شىء يخلفك.

فقال: ما أحب أن أرى أحدًا يخف[1] فى هذا الأمر فأمنعه.

قال: فأتيتُ محمد بن طلحة فقلت له: لو أقمت، فإن حدث به حدثٌ كنت تخلف فى عياله وضيعته.

قال: ما أحب أن أسأل الرجال[2] عن أمره[3].

ويحرص المرء ههنا أن طلحة -رضي الله عنه- يعانى من شىءٍ قد حدث فيما مضى، ولا زال أثره فى نفسه باديًا.

وهنا قد يتساءل المرء، وماذا كان من طلحة فى أمر عثمان -رضي الله عنه-؟

يلخص لنا مؤرخ الإسلام، العلامة الذهبى ذلك قائلاً: الذى كان منه فى حق عثمان تأليبٌ، فعله باجتهادٍ، ثم تغير عندما شاهد مصرع عثمان، فندم على ترك نُصرته -رضي الله عنه- وكان طلحةُ أول من بايع عليًّا، أرهقه قتلةُ عثمان، وأحضروه حتى بايع[4].

---

(١) يخف: أى ينشط، ويسرع فى سيره.

(٢) الرجال تعنى ههنا الركبان.

(٣) خبر حسن. أخرجه الطبرى (٤/ ٤٧٦) فى تاريخه.

(٤) انظر: السير (٣/ ٣٥) للذهبى.

ويوضح مسألة بيعة طلحة لعلى ما رواه إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى ـ رحمه الله ـ يقول: بلغ على بن أبى طالب أن طلحة يقول:

إنما بايعت واللج على قفاى.

قال: فأرسل ابن عباس فسألهم، فقال أسامة بن زيد: أما واللج على قفاه فلا، ولكن قد بايع وهو كاره[١] .

اللج: السيف، تشبيهًا بلج البحر، والمعنى أنه أكره على المبايعة.

وهكذا كان مقتل عثمان -رضي الله عنه- بدء الخلاف بين الصحب الكرام، وخروج عبد الله بن الزبير، وطلحة بن عبيد الله، وعائشة -رضي الله عنهم أجمعين- فى الطلب بدم عثمان، والأخذ بثأره من قتلته بداية الفتنة.

خرج هؤلاء الثلاث الكرام إلى البصرة مطالبين بالثأر، والنصرة لدم عثمان، بغير مشورة من أمير المؤمنين على -رضي الله عنه- وانقسم أهل الإسلام إلى طائفتين، وكانت موقعة الجمل.

ومن عجيب الأمر، أن طلحة والزبير -رضي الله عنهما- كانا قد رضيا بعلى خليفة، وكذا أم المؤمنين، ويوضح ذلك ويبينه ما رواه الأحنف ـ رحمه الله ـ.

قال الأحنف بن قيس ـ رحمه الله ـ: لقيت طلحة والزبير فقلت: من تأمرانى به، وترضيانه لى؟ فإنى لا أرى هذا الرجل إلا مقتولاً! يعنى عثمان -رضي الله عنه-.

قالا: علىٌّ. قلت: أتأمرانى به وترضيانه؟ قالا: نعم.

---

(١) خبر صحيح. أخرجه ابن أبى شيبة (٨/ ٧٠٩) فى مصنفه.

فانطلقتُ حتى قدمت مكة، فبينا نحن بها إذ أتانا قتل عثمان -رضي الله عنه- وبها عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- فلقيتها فقلت: من تأمرينى أن أبايع؟

قالت: علىٌّ. قلت: تأمريننى به، وترضينه لى؟ قالت: نعم.

فمررت علي علىٍّ بالمدينة فبايعته، ثم رجعت إلى أهلى بالبصرة، ولا أرى الأمر إلا قد استقام.

قال: فبينا أنا كذلك، إذ أتانى آتٍ فقال: هذه عائشة، وطلحة، والزبير، قد نزلوا جانب الخُريبة[1].

فقلت: ما جاء بهم؟ قالوا: أرسلوا إليك يدعونك يستنصرون بك على دم عثمان -رضي الله عنه- فأتانى أفظع أمر أتانى قط.

فقلتُ: إن خذلانى هؤلاء ومعهم أم المؤمنين، وحوارى رسول الله -ﷺ- لشديد!!

فلما أتيتهم قالوا: جئنا لنستنصر على دم عثمان -رضي الله عنه- قتل مظلومًا.

فقلت: يا أم المؤمنين، أنشدك الله، أقلت لك: من تأمرينى به؟

فقلت: على. فقلتُ: أتأمريننى به، وترضينه لى؟ قلت: نعم؟!

قالت: نعم، ولكنه بدّل.

قلت: يا زبير، يا حوارى رسول الله -ﷺ-، يا طلحة، أنشدكما الله، أقلت لكما: ما تأمرانى فقلتما: على؟.

---

(١) الخريبة: بلدة من أعمال البصرة بالعراق.

أتأمراني به، وترضيانه لي؟ فقلتما: نعم؟!

قالا: نعم، ولكنه بدل.

فقلت: والله لا أقاتلكم ومعكم أم المؤمنين، وحواري رسول الله -ﷺ- ولا أقاتل رجلاً ابن عم رسول الله -ﷺ-، أمرتموني ببيعته، اختاروا مني واحدة من ثلاث خصال:

إما أن تفتحوا لي الجسر فألحق بأرض الأعاجم حتى يقضي الله ـ عز وجل ـ من أمره ما قضى، أو أعتزل فأكون قريبًا، أو ألحق بمكة فأكون فيها حتى يقضي الله ـ عز وجل ـ من أمره ما قضى؟

قالوا: إنا نأتمر، ثم نرسل إليك، فائتمروا، فقالوا: نفتح له الجسر، ويخبرهم بأخباركم؟!!

ليس ذاكم برأي.

اجعلوه ههنا قريبًا حيث تطئون على صماخه[1] وتنظرون إليه فاعتزل بالجلحاء من البصرة على فرسخين، فاعتزل معه زهاء ستة آلاف[2] .

❑❑❑

(١) الصماخ من الأذن: الخرق الباطن الذي يفضي إلى الرأس، وقيل: الصماغ هو الأذن نفسها.

(٢) خبر صحيح. أخرجه الطبري (٤/٤٩٧ ـ ٤٩٩) في تاريخه، وابن أبي شيبة (٨/٧١٣، ٧١٤) في مصنفه.

حادث وقعة الجمل

استنفر الصحب الثلاث أهل البصرة، وقدم إليهم أهل الشام، واستنفر على ومن معه أهل الكوفة، فكانت واقعة الجمل، خارج البصرة، عند قصر عبيد الله ابن زياد، وقد بدأت فى جمادى الأولى من سنة ستٍ وثلاثين.

ولكن لماذا سُميت بالجمل؟

إن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- كانت راكبة على جملٍ تحض الناس على القتال، فلما هزم أصحابها، ثبت منهم قوم يحمون الجمل الذى كانت عليه.

فسميت تلك المعركة وقعة الجمل.

وعن ملامح وأحداث تلك الموقعة يحدثنا عاصم بن كليب الجرمى عن أبيه، ببعض ما دار قبل نشوب المعركة، فيقول عاصم ـ رحمه الله ـ:

رأى أبى رؤيا، وهم محاصرو توج فى خلافة عثمان، وكان أبى إذا رأى رؤيا كأنما ينظر إليها زهاراً[1] ، وكان أبى قد أدرك النبى -ﷺ-.

قال: فرأى كأن رجلاً مريضًا، وكأن قومًا يتنازعون عنده، اختلفت أيديهم، وارتفعت أصواتهم، وكانت امرأة عليها ثياب خضر جالسة، كأنها لو تشاء أصلحت بينهم، إذ قام رجل منهم فقلب بطانة جُبة عليه، ثم قال:

أى معاشر المسلمين.. أيخلق الإسلام فيكم، وهذا سربال نبى الله فيكم لم يخلق؟ إذ قام آخر من القوم فأخذ بأحد لوحى المصحف فنفضه حتى اضطرب ورقه.

---

(١) زهاراً: واضحة وضوح النهار.

قال: فأصبح أبى يعرضها، ولا يجد من يعبرها، كأنهم هابوا تعبيرها.

قال أبى: فلما أن قدمت البصرة فإذا الناس قد عسكروا.

قال: قلت: ما شأنهم؟ قال: فقالوا: بلغهم أن قومًا قد ساروا إلى عثمان فعسكروا ليدركوه فينصروه، فقام ابن عامر فقال: إن أمير المؤمنين صالحٌ، وقد انصرف عنه القوم، فرجعوا إلى منازلهم فلم يفجأهم إلا قتله.

قال: فقال: فما رأيت يومًا قط كان أكثر شيخًا باكيًا تخلل الدموع لحيته من ذلك اليوم، فما لبث إلا قليلاً حتى إذا بالزبير وطلحة قد قدما البصرة.

فما لبثتُ بعد ذلك إلا يسيراً حتى إذا علىٌّ أيضًا قد قدم، فنزل بذى قارٍ، فقال لى شيخان من الحى: اذهب بنا إلى هذا الرجل فلننظر إلى ما يدعو، وأى شىءٍ جاء به؟!

فخرجنا حتى إذا دنونا من القوم وتبينا فساطيطهم إذا شاب جلدٌ غليظ خارج من العسكر على بغلٍ، فلما أن نظرت إليه شبهته المرأة التى رأيتها عند رأس المريض فى النوم، فقلت لصاحبى: لئن كان للمرأة التى رأيت فى المنام عند رأس المريض أخ، إن ذا لأخوها.

قال: فقال لى أحد الشيخين اللذين معى: ما تريد إلى هذا؟ قال:

وغمزنى بمرفقه.

قال الشاب: أى شىء قلت؟ قال: فقال أحد الشيخين: لم يقل شيئًا، فانصرف. قال: لتخبرنى ما قلت: قال: فقصصت عليه الرؤيا.

قال: لقد رأيت؟ قال وارتاع ثم لم يزل يقول: لقد رأيت. . لقد رأيت. .

حتى انقطع عنا صوته. قال: فقلت لبعض من لقيت: من الرجل الذى رأينا آنفًا؟

قال: محمد بن أبى بكر. قال: فعرفنا أن المرأة عائشة.

قال: والله لدخل على فى نسب قومى حتى جعلت أقول: والله لهو أعلم بهم منى، حتى قال: أما إن بنى راسب بالبصرة أكثر من بنى قدامة، قال: قلت: أجل.

قال: فقال: أسيد قومك أنت؟ قلت: لا، وإنى فيهم لمطاع، ولغيرى أسود، فقال: من سيد بنى راسب؟ قلت: فلان. قال: فسيد بنى قدامة؟

قلت: فلان، لآخر.

قال: هل أنت مبلغها كتابين منى؟ قلت: نعم. قال: ألا تبايعون؟

قال: فبايع الشيخان اللذان معى، قال: وأضب[1] قوم كانوا عنده، وكأن فيهم خفة.

قال: فجعلوا يقولون: بايع. قال: وقد أكل السجود وجوههم.

فقال إلى القوم: دعوا الرجل.

قال: فقال أبى: إنما بعثنى قومى رائدًا، وسأنهى إليهم ما رأيت، فإن بايعوك بايعتك، وإن اعتزلوك اعتزلتك.

قال: فقال على: أرأيت لو أن قومك بعثوك رائدًا، فرأيت روضة وغديرًا، فقلت: يا قوم. النجعة النجعة، فأبوا، ما أنت منتجع بنفسك؟

---

(١) أضب: أضب القوم: صاحوا وجلبوا، وأفاضوا فى الحديث.

قال: فأخذت بإصبع من أصابعه، ثم قلت: نبايعك على أن نطيعك ما أطعت الله، فإذا عصيته فلا طاعة لك علينا. فقال: نعم، وطول بها صوته.

قال: فضربت على يده، ثم التفت إلى محمد بن حاطب، وكان فى ناحية القوم، قال: فقال: أما انطلقت إلى قومك بالبصرة فأبلغهم كتبى وقولى.

قال: فتحول إليه محمد، فقال: إن قومى إذا أتيتهم يقولون: ما قول صاحبك فى عثمان؟

قال: فسبَّه الذين حوله، قال: فرأيت جبين على يرشح كراهية لما يجيئون به.

فقال محمدٌ: أيها الناس.. كفوا لله ما إياكم أسأل، ولا عنكم أسأل.

قال: فقال على: أخبرهم أن قولى فى عثمان أحسن القول، إن عثمان كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ثم اتقوا وآمنوا، ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين.

قال: قال أبى: فلم أبرح حتى قدم على أهل الكوفة، جعلوا يلقونى فيقولون: أترى إخواننا من أهل البصرة يقاتلوننا.

قال: ويضحكون ويعجبون، ثم قالوا: والله لو قد التقينا تعاطينا الحق، قال: فكأنهم يرون أنهم لا يقتتلون.

قال: وخرجت بكتاب على، فأما أحد الرجلين اللذين كتب إليهما فقبل الكتاب وأجابه، ودللت على الآخر فتوارى، فقالوا: كليب، فأذن لى فدفعت إليه الكتاب، فقلت: هذا كتاب علىّ، وأخبرته أنى أخبرته أنك سيد قومك.

فأبى أن يقبل الكتاب، وقال: لا حاجة لى إلى السؤدد اليوم، إنما سادتكم اليوم شبيه بالأوساخ أو الأدعياء، وقال: كلمه، لا حاجة لى اليوم فى ذلك، فأبى أن يجيبه.

قال: فوالله ما رجعت إلى علىٍّ حتى إذا العسكران قد تراتبا فاستتب عبدانه، فركب القراء الذين مع علىٍّ حين أطعن القوم، وما وصلت إلى على حتى فرغ القوم من قتالهم، فدخلت على الأشتر وأصابه جراحٌ.

قال عاصم: وكان بيننا وبينه قرابة من قبل النساء فما أن نظر إلى أبى قال، والبيت مملوء من أصحابه، قال: يا كليب إنك أعلم بالبصرة منا، فاذهب فاشتر لى جملاً، فاشتريت من عريفٍ بخمسمائة.

قال: اذهب به إلى عائشة، وقل: يقرئك ابنك مالك السلام، ويقول: خذى هذا الجمل فتبلغى عليه مكان جملك.

قالت: لا سلم الله عليه، إنه ليس بابنى، وأبت أن تقبله.

قال: فرجعت إليه فأخبرته بقولها، قال: فاستوى جالسًا، ثم حسر عن ساعده، ثم قال: إن عائشة لتلومنى على الموت المميت، إنى أقبلت فى رجرجة[١] من مذحج، فإذا ابن عتاب قد نزل فعانقنى، قال: فقال: اقتلونى ومالكًا، فضربته فسقط سقوطًا، ثم وثبت إلى ابن الزبير، فقال: اقتلونى ومالكًا، وما أحب أنه قال: اقتلونى والأشتر، ولا أن كل مذحجية ولدت غلامًا[٢].

□□□

(١) الرجرجة: الجماعة الكثيرة فى الحرب، من الرعاع الذين لا يغنون عن المتبوع شيئًا.

(٢) خبر صحيح. أخرجه ابن أبى شيبة (٨/٧٠٣) فى مصنفه.

محاولات ذهبت سدى

فمن خلال النص السابق نلاحظ الحرص على استنفار الناس، والاستعداد التام، ثم الالتحام والنهاية الأليمة بنزيف دماء الصحب الأطهار، وسقوط الجمل.

وقد حاول البعض إطفاء فتيلة القتال قبل اشتعالها، وتذكير القوم قبل السقوط فى هاوية القتال والدماء، ولكن ذهبت صيحاتهم هباء، ونداؤهم سُدى.

بل ذهبت نفسه جراء قيامه بمحاولة الصلح بين الطائفتين، والرجوع إلى الكتاب والسنة لرأب الصدع، ولمّ الشمل.

فهذا كعب بن سور الأزدى ـ رحمه الله ـ قاضى البصرة، استقضاه عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فلم يزل قاضيًا عليها إلى أن قتل يوم الجمل.

خرج كعب بن سور بين الصفين معه مصحف، فنشره، وجعل يناشد الناس في دمائهم، فجاءه سهم فقتله ـ رحمه الله تعالى ـ.

ويحدثنا عمرو بن جاوان ـ رحمه الله ـ فيقول: لما التقوا يوم الجمل قام كعب بن سور، ومعه المصحف ناشره بين الفريقين، يناشدهم الله والإسلام فى دمائهم، فلم يزل بذلك حتى قتل، رأيته ومعه المصحف يناشدهم[1].

وهكذا كان قاضيًا بالعدل، صلبًا فى الحق، شهيد الذود عن الإسلام، ووحدة المسلمين، وحقن دمائهم.

---

(١) خبر صحيح. أخرجه وكيع (١/ ٢٨١) فى «أخبار القضاة»، وأخرجه (١/ ٢٧٥) عن الشعبى، وعن أبى حبيش الجرموزى.

ومن تلك المحاولات التي ذهبت سُدى، محاولة الأحنف بن قيس ـ رحمه الله ـ عندما ذكر طلحة، والزبير، وأم المؤمنين بما كان منهم من رضى، وموافقة بمبايعة على -رضي الله عنه- فى البدء، ثم اعتزال الأحنف القتال، وعدم قيامه بنصرة الثائرين لدم عثمان -رضي الله عنه-.

ويقول مطرف ـ رحمه الله ـ: قلت للزبير: ما جاء بكم؟ ضيعتم الخليفة حتى قُتل، ثم جئتم تطلبون بدمه؟!

قال الزبير: إنا قرأنا على عهد رسول الله -ﷺ-، وأبى بكر، وعمر، وعثمان: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال:٢٥].

لم نكن نحسب أنا أهلُها، حتى وقعت منا حيث وقعت(١).

ومن تلك المحاولات أيضًا ما حدث من الصحابى الجليل عمران بن حصين -رضي الله عنه-.

يحدثنا حجير بن الربيع ـ رحمه الله ـ، فيقول: قال لى عمران بن حصين سر إلى قومك أجمع ما يكونون، فقم فيهم قائمًا، فقل: أرسلنى إليكم عمران ابن حصين، صاحب رسول الله -ﷺ-، يقرأ عليكم السلام ورحمة الله، ويحلف بالله الذى لا إله إلا هو، لأن يكون عبدًا حبشيًّا مجدعًا يرعى أعنزًا فى رأس جبلٍ حتى يدركه الموت، أحب إلىَّ من أن يرمى بسهم واحدٍ بين الفريقين قال: فرفع شيوخ الحى رءوسهم إليه، فقالوا: إنا لا ندع ثقل رسول الله -ﷺ-(٢).

وهكذا ذهبت كل المحاولات الداعية إلى الصلح، وحقن الدماء أدراج الرياح فما كان من مفرٍّ، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا.

---

(١) خبر حسن. أخرجه أحمد (١/ ٦٥)، والبزار، وابن المنذر، وابن مردويه، وابن عساكر كما فى الدر المنثور (٣/ ١٧٧).

(٢) خبر حسن. أخرجه الطبرى (٤/ ٥٠٣) فى تاريخه.

مقتل طلحة والزبير

يقول الأحنف ـ رحمه الله ـ:

التقى القوم فكان أول قتيل طلحة -رضي الله عنه-، وكعب بن سور معه المصحف يذكر هؤلاء وهؤلاء، حتى قُتل من قتل منهم، ولحق الزبير بسفوان من البصرة كمكان القادسية منكم، فلقيه النعر، رجل من مجاشع، فقال:

أين تذهب يا حواري رسول الله -ﷺ-؟! إليَّ فأنت في ذمتي لا يوصل إليك، فأقبل معه، فأتى الأحنف خبره، فقيل: ذاك الزبير قد لُقيَ بسفوان فما تأمر؟ قال: جمع بين المسلمين حتى ضرب بعضهم حواجب بعض بالسيوف، ثم يلحق ببيته؟!! فسمعه عمير بن جرموز وفضالة بن حابس، ونفيع، فركبوا في طلبه، فلقوه مع النعر، فأتاه عمير بن جرموز من خلفه وهو على فرسٍ له ضعيفة، فطعنه طعنه خفيفة، وحمل عليه الزبير وهو على فرسٍ له، يقال له: ذو الخمار، حتى إذا ظن أنه قاتله نادى عمير بن جرموز:

يا نفيع، يا فضالة، فحملوا عليه فقتلوه[1] .

ويحكي مقتل الزبير عن قرب من رافقه قبل مقتله، فيروي جون بن قتادة، فيقول: كنت مع الزبير بن العوام يوم الجمل، وكانوا يسلمون عليه بالإمرة، فجاء فارس يسير فقال: السلام عليك أيها الأمير، ثم أخبره بشيء ثم جاء آخر ففعل مثل ذلك، ثم جاء آخر ففعل مثل ذلك.

فلما التقى القوم ورأى الزبير ما رأى، قال: واجدع أنفياه، يا قطع ظهرياه،

---

(١) خبر صحيح. أخرجه الفسوي (٣/ ٣١١) في «المعرفة» والطبري (٤/ ٤٩٨، ٤٩٩) في تاريخه، وأورده الذهبي (١/ ٦٠) في السير، وصاحب المطالب (٤٤٦٦).

ثم أخذه أفكلٌ، فجعل السلاح ينتقض، والأفكل: الرعدة. قال جون: فقلت: ثكلتني أمي، أهذا الذي كنت أريد أن أموت معه؟

والذي نفسي بيده ما أرى هذا إلا من شيءٍ قد سمعه أو رآه وهو فارس رسول الله -ﷺ-.

فلما تشاغل الناس انصرف فقعد على دابته، ثم ذهب، وانصرف جون فجلس على دابته فلحق بالأحنف.

قال: فأتى الأحنف فارسان فنزلا وأكبا عليه يناجيانه، فرفع الأحنف رأسه فقال: يا عمير بن جرموز، يا فلان، فأتياه فأكبا عليه فناجاهما ساعة، ثم انصرفا.

ثم جاء عمير بن جرموز بعد ذلك إلى الأحنف، فقال: أدركته في وادي السباع، فقتلته[1].

أما عن صفة قتل طلحة -رضي الله عنه- فيحدثنا قيس بن أبي حازم ـ رحمه الله ـ فيقول: رأيت مروان بن الحكم حين رمى طلحة بن عبيد الله بسهم يوم الجمل في ركبته، فجعل الدم يغذر ويسيل، فإذا أمسكوه استمسك، وإذا تركوه سال.

قال: والله ما بلغت إلينا سهامهم بعد، ثم قال:

دعوه، فإنما هو سهم أرسله الله، فمات، فدفناه على شاطئ الكلأ[2].

---

(١) خبر حسن. أخرجه ابن سعد (٣/ ١١١) في طبقاته، وعنه أورده الذهبي (١/ ٦١) في السير ويمكن معرفة سبب رعدة الزبير في الجزء الخاص بحواري الرسول -ﷺ-.

(٢) خبر صحيح. أخرجه ابن سعد (٣/ ٢٢٣) في طبقاته، وبنحوه أخرجه الحاكم (٣/ ٣٧٠) وصححه، وأقره الذهبي.

أم المؤمنين فى الميدان

وفى ساحة القتال كان الجمل واقفًا، ومن حوله جم غفير من الصحب الكرام، وأفناء الناس، وأم المؤمنين فى خبائها تحضهم على الثأر لدم الخليفة المقتول ظلمًا.

يقول محمد ابن الحنفية ـ رحمه الله ـ: يا ابن عباس، تذكر عشية الجمل، وأنا على يمين على فى يدى الراية، وأنت على يساره، إذ سمع هدّة فى المربد، فأرسل رسولاً، فجاء الرسول فقال:

هذه عائشة تلعن قتلة عثمان فى المربد، والناس يؤمنون.

فقال علىٌّ: وأنا ألعن قتلة عثمان فى السهل والجبل.

قال: فصدّقه ابن عباس[1].

ويقول العلامة الذهبى مؤرخ الإسلام: ولا ريب أن عائشة -رضي الله عنها- ندمت ندامة كُلِّيَة على مسيرها إلى البصرة، وحضورها يوم الجمل، وما ظنت أن الأمر يبلغ ما بلغ.

قلت: ولعل من الدلائل البينة على بدء التفكير فى الرجوع الخبر التالى:

يروى قيس بن أبى حازم ـ رحمه الله ـ فيقول:

لما أقبلت عائشة، فلما بلغت مياه بنى عامر ليلاً، نبحت الكلاب، فقالت: أى ماء هذا؟ قالوا: ماء الحوأب[2].

---

(١) خبر صحيح. أخرجه ابن شبة (٤/١٢٦١) فى أخبار المدينة، وابن عساكر (ص٤٦٦، ٤٧٧) فى تاريخ دمشق.

(٢) الحوأب: ماء قريب من البصرة على طريق مكة، سمى بالحوأب بنت كلب بن وبرة القضاعية.

قالت: ما أظننى إلا أنى راجعة.

قال بعض من كان معها: بل تقدمين، فيراك المسلمون، فيصلح الله ذات بينهم.

قالت إن رسول الله -ﷺ- قال ذات يوم:

«كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوأب»[١] .

وفى رواية أخرى: «أيتكن صاحبة الجمل الأدبب، تخرج حتى تنبحها كلاب الحوأب، يقتل عن يمينها، وعن شمالها قتلى كثيرة، وتنجو من بعد ما كادت»[٢] .

وقد ورد فى بعض الروايات أن الذى حضها على المكث، وعدم الرجوع هو الزبير بن العوام -رضي الله عنه-.

وقد ندمت أم المؤمنين -رضي الله عنها- وقال: لوددت إذا مُتُّ كنت نسيًا منسيًّا[٣] .

فرضى الله عنها وأرضاها، زوجة نبينا -ﷺ- فى الدنيا والآخرة.

وكانت -رضي الله عنها- من صدق أسفها على ما جرى وحدث، تعد فعلها حدثًا أحدثته.

يقول قيس بن أبى حازم ـ رحمه الله ـ:

---

(١) حديث صحيح. أخرجه أحمد (٦/ ٥٢، ٩٧)، وابن حبان (١٨٣١)، والحاكم (٣/ ١٢٠) وصححه وأقره الذهبى، وأخرجه ابن أبى شيبة (١٥/ ٢٦٠) فى مصنفه، وأبو يعلى، والبزار كما فى المجمع (٨/ ٢٨٩) والفتح (١٣/ ٥٥).

(٢) حديث صحيح. أخرجه البزار ورجاله ثقات كما فى الفتح (٣/ ٥٥)، وأخرجه ابن أبى شيبة (٨/ ٧١١) فى مصنفه بسند صحيح.

(٣) خبر صحيح. أخرجه ابن أبى شيبة (٨/ ١٩١)، والبخارى (٤٧٥٣)، وأحمد (١/ ٢٧٦، ٣٤٩).

قالت عائشة -رضي الله عنها- لما حضرتها الوفاة:

ادفنوني مع أزواج النبي -ﷺ-، فإني كنت أحدثت بعده حدثًا[١] وكانت -رضي الله عنها- تقول: لأن أكون جلست عن سيري أحب إلي[٢] - فرضي الله عن الصديقة بنت الصديق - ولكن ماذا عن أحداث معركة الجمل، وما موقف علي -رضي الله عنه- من الصديقة -رضي الله عنها-؟.

وماذا فعل علي عند علمه بمقتل طلحة والزبير -رضي الله عنهما-؟

هذا ما نتعرف عليه في الصفحات التالية ومن الله تعالى العون والتيسير.

ونكمل المسير مع سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-.

❑❑❑

(١) خبر صحيح. أخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ٧٠٨).

(٢) خبر صحيح. أخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ٧١٧، ٧١٨) من طريقين.

من أحداث موقعة الجمل

حفلت تلك المعركة المسماة بموقعة الجمل بأحداث عديدة، بعضها يحمل الانتصار للحق والمبدأ، والبعض الآخر يحمل دلائل الحرص على الدنيا، وبعضها يحمل الفهم الخاطئ.

يقول ميسرة أبو جميلة صاحب راية عليّ فى تلك المعركة:

إن أول يوم تكلمت الخوارج يوم الجمل، قالوا: ما أحل لنا دماءهم، وحرم علينا ذراريهم وأموالهم[١] !!

وكم من دماءٍ سُفكت، وأبرياءٍ قتلت، وأطفالٍ يتمت فى تلك المعركة؟!

يقول سويد بن الحارث ـ رحمه الله ـ:

لقد رأيتنا يوم الجمل، وإن رماحنا ورماحهم لمتشاجرة، ولو شاءت الرجال لمشت عليهم، يقولون: الله أكبر.

ويقولون: سبحان الله، الله أكبر.

ويقولون: ليس فيها شك، وليتنى لم أشهد.

ويقول عبد الله بن سلمة: ولكنى ما سرنى لم أشهد، ولوددت أن كل مشهدٍ شهده على شهدته.

ومن أحداث صفين: تخلف البعض قبل حدوثها.

---

(١) خبر حسن. أخرجه ابن أبى شيبة (٨/٧٠٦) فى مصنفه.

حاول بعض الصحب الكرام التخلف بعد عزمه على القتال، وإن كان البعض قعد، ولم يكن مع أحد الطرفين.

يقول جرى بن كليب ـ رحمه الله ـ لما سار علىّ إلى صفين كرهت القتال، فأتيت المدينة، فدخلت على ميمونة بنت الحارث -رضي الله عنها- فقالت:

ممن أنت؟

قلت: من أهل الكوفة.

قالت: من أيهم؟ قلت: من بنى عامر.

قالت: رحبًا على رحبٍ، وقربًا على قربٍ، تجىء، ما جاء بك؟

قلت: سار علىٌّ إلى صفين، وكرهت القتال، فجئنا إلى ههنا.

قالت: أكنت بايعته؟ قال: قلت: نعم.

قالت: فارجع إليه، فكن معه، فوالله ما ضل، ولا ضل به[1].

وحرص جرى بن كليب على عدم القتال فى صفين تواكب مع حرص جمهرة كبيرة من الصحابة على عدم القتال، ولزوم البيوت فى تلك الفتنة وما قبلها حرصًا على دماء المسلمين.

فقد أريق فى معركة صفين دماء الألوف من المسلمين سواء أكانوا من أهل العراق، أنصار علي، أم من أهل الشام أتباع معاوية، حتى بلغ عدد القتلى فى أقل التقديرات سبعين ألفًا[2].

---

(١) خبر حسن. أخرجه الحاكم (٣/ ١٤١) وصححه، وأقره الذهبى، وفيه الحارث بن منصور، وهو صدوق.

(٢) انظر: تاريخ خليفة (١٩٤)، تاريخ الإسلام (٤/ ٥٤٥)، البداية والنهاية (٧/ ٣٠٠).

فحرص بعض الصحب الكرام على عدم الدخول فى الموقعة إنما هو مراعاة لعدم إراقة دماء المسلمين، وليس من باب التخاذل عن نصرة من يعتقدون أنه صاحب الحق.

فهذا ابن عمر مع فضله، وقدره اعتزل تلك الموقعة، وما بعدها.

وهذا أهبان بن صيفى -رضي الله عنه- يأتى إليه على بن أبى طالب -رضي الله عنه- فيقوم على الباب قائلاً: السلام عليكم ورحمة الله، فيرد عليه أهبان، ويدعوه للدخول.

يدخل علىٌّ، ويقول لأهبان: ألا تخرج فتعيننى علي هؤلاء القوم؟! فيقول: بلى، إن شئت، فدعا جاريته، فقال: يا جارية، ناولينى السيف. فناولته السيف، فوضعه فى حجره، فسل منه قدر شبر، فإذا هو خشب!

فقال: إن حبيبى، وابن عمك -ﷺ- عهد إلىَّ إذا كانت فتنة بين المسلمين، أن أتخذ سيفًا من خشب، فإن شئت خرجت معك بهذا.

فقال علىٌّ: لا حاجة لى فيك، ولا فى سيفك[1] .

ويتضح ذلك فى قول ابن عمر -رضي الله عنهما-:

والله ما أحب أنها دانت لى سبعين سنة، وأنه قُتل فى سيفى رجل واحد[2].

فالدِّماء التى تنزف عندما يتقاتل أهل الإسلام حرمتها عظيمة، وقد نزفت كثيراً.

---

(١) حديث حسن. أخرجه أحمد (٥/ ٦٩)، (٦/ ٣٩٣)، والترمذى (٢٢٩٩)، وابن ماجه (٣٩٦٠).

(٢) خبر حسنٌ. أخرجه ابن سعد (٤/ ١٦٩)، (٥/ ٣٩)، والطبرى (٥/ ٥٠٠) فى تاريخه.

ويوضح ذلك عبد خير - رحمه الله - أحد المقاتلين تحت راية على -رضي الله عنه- يقول:

ضرب فسطاط بين العسكرين يوم الجمل، ثلاثة أيام، فكان على، والزبير، وطلحة يأتونه، فيذكرون فيه ما شاء الله، حتى إذا كان يوم الثالث عند زوال الشمس، رفع علىٌّ جانب الفسطاط، ثم أمر بالقتال، فمشى بعضنا إلى بعضٍ، وشجرنا بالرماح حتى لو شاء الرجل أن يمشى عليها لمشى.

ثم أخذتنا السيوف(١) .

ويحدثنا عبد خير عن أخلاق علىّ الجهادية، فيقول: إن عليًّا قال يوم الجمل: لا تتبعوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريحٍ، ومن ألقى سلاحه، فهو آمن(٢).

يا لها من أخلاق نبيلة، وصفات جليلة!!

خصماء علىّ لا ينبغى أن يعاملوا إلا بما يعامل به أهل البغى، لا أهل الكفران، فكان منادى علىّ ينادى يوم الجمل: ألا لا يجهزن على جريحٍ، ولا يتبع مدبر، ولا يؤخذ من متاعهم شىء.

ومع كل ذلك كم كان أمير المؤمنين كارهًا لهذه الحرب، غير راغبٍ فى حدوثها، بل تمنى الوفاة قبلها بسنواتٍ، وسنوات.

يقول سليمان بن صرد الخزاعى -رضي الله عنه-:

---

(١) خبر صحيح. أخرجه ابن أبى شيبة (٨/ ٧١٠).

(٢) خبر صحيح. أخرجه ابن أبى شيبة (٨/ ٧١١، ٧١٢) من طريقين.

قلت للحسن بن على -رضي الله عنه-: اعذرنى عند أمير المؤمنين، فإنما منعنى من يوم الجمل كذا، وكذا.

قال: فقال الحسن: لقد رأيته ـ يعنى عليًا ـ حين اشتد القتال يلوذ بى، ويقول:

يا حسن!! لوددتُ أنى مت قبل هذا بعشرين حجة[١] .

وفى روايةٍ أخرى: قال علىٌّ -رضي الله عنه- يوم الجمل: يا حسن، ليت أباك مات منذ عشرين سنة، فقال له:

قال: يا بُنى، لم أر أن الأمر يبلغ هذا[٢] .

وهذا يدعونا بدوره إلى معرفة موقف أمير المؤمنين على -رضي الله عنه- من الصحب الكرام عائشة، وطلحة، والزبير -رضي الله عنهم- بعد المعركة، وهذا ما نتعرف عليه فى الصفحات التالية، ومن الله تعالى العون والتيسير.

❑❑❑

(١) خبر صحيح. أخرجه ابن أبى شيبة (٨/ ٧٢١)، وأخرجه الطبرانى (٢٠٣) فى الكبير من طريق آخر.
(٢) تاريخ الإسلام (٣/ ٤٨٨)، والمعجم الكبير (١/ ١١٣).

موقف على من الصحب الكرام

لعلَّ المتأمل فى موقف الإمام على -رضي الله عنه- من الذين قاتلوه يجد الفهم الصحيح من قضية تقاتل المسلمين فى الفتنة، وعند التأويل يقول أبو البخترى ـ رحمه الله ـ:

سئل علىٌّ عن أهل الجمل؟ قال: قيل: أمشركون هم؟

قال: من الشرك فرُّوا.

قيل: أمنافقون هم؟

قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً.

قيل: فما هم؟ قال: إخواننا بغوا علينا(١) .

ويروى لنا عبد خير ـ رحمه الله ـ فيقول: إن عليًّا لم يسب يوم الجمل، ولم يخمس، فقالوا له:

يا أمير المؤمنين، تخمس أموالهم؟

فقال -رضي الله عنه-: هذه عائشة تستأمرها(٢) ؟!!

قالوا: ما هو إلا هذا!! ما هو إلا هذا!!

هكذا يستهجن علىٌّ، ويقبح مقالة من يقع فى حق الصحب الكرام بشىء.

ويقول أبو البخترى ـ رحمه الله ـ: قالوا: يا أمير المؤمنين، تحل لنا دماؤهم، ولا تحل لنا نساؤهم؟! قال: فخاصموا.

---

(١) خبر حسن. أخرجه ابن أبى شيبة (٨/ ٧٠٧).

(٢) خبر حسن. أخرجه ابن أبى شيبة (٨/ ٧٠٧).

فقال: كذلك السيرة فى أهل القبلة.

قال: فهاتوا سهامكم، وأقرعوا على عائشة، فهى رأس الأمر، وقائدهم!

قال: ففرقوا، وقالوا: نستغفر الله. قال: فخصمهم علىٌّ [(١)].

ويحدثنا عبد الله بن الحارث أنه قدم على علىٍّ حين فرغ من موقعة الجمل، فانطلق إلى بيته، وهو آخذٌ بيده، فإذا امرأته وابنتاه يبكين، وقد أجلس وليدة بالباب تؤذنهن به إذا جاء، فألهى الوليدة ما ترى النسوة يفعلن حتى دخل عليهن، وتخلفت فقمت بالباب، فأسكتن، فقال: ما لكن؟!!

فانتهرهن مرةً، أو مرتين، فقالت امرأة منهن: قلن: ما سمعت ذكرنا عثمان وقرابته، والزبير وقرابته!!

فقال علىٌّ: إنى لأرجو أن نكون كالذين قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧].

ومن هم إن لم نكن، ومن هم، يردد ذلك حتى وددت أنه سكت [(٢)].

وددت أنه سكت، وذلك لما رأى من شدة غضبه، وتضايقه لما حدث بينهم من قتال بعضهم لبعض.

وفى رواية أخرى: قال علىٌّ -رضي الله عنه-: إنى لأرجو أن أكون أنا وطلحة، والزبير [(٣)]، ممن قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾. وقد حض علىٌّ أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- على الوجوع إلى دارها، وترك ساحة القتال بعد

---

(١) خبر حسن. أخرجه ابن أبى شيبة (٨/ ٧١٠).

(٢) خبر صحيح. أخرجه ابن أبى شيبة (٨/ ٧١٢)، وسيأتى من طريقٍ آخر، وأخرجه ابن عساكر (ص٤٧٤) فى تاريخه فى ترجمة عثمان -رضي الله عنه-.

(٣) خبر صحيح. أخرجه ابن أبى شيبة (٨/ ٨١٨).

هزيمة أهل البصـرة، حرصًا منه -رضي الله عنه- على مكانتهـا الشرعية، وتحريـضًا لها على الرجوع إلى الصواب، فما كان لأم المؤمنين أن تشارك فى مثل هذا.

يخبرنا الأحنف بن قيس ـ رحمه الله ـ عن ذلك، فيقول:

لما ظهر علىٌّ على أهل البصرة أرسل إلى عائشة:

ارجعى إلى المدينة، وإلى بيتك.

قال: فأبت، فأعاد إليهـا الرسول، والله لترجعن، أو لأبعثن إليك نسوة من بكر بن وائل دمهن سفار حداد، يأخذنك بها[١].

فلما رأت ذلك خرجت.

سفارٌ: أى عراض، عظام فى البدن، والشفـرةُ: السكين العريضة العظيمة، والمعنى: أن نسوة بنى بكر بن وائل لهن من قوة البدن وشدته ما يجعلهن يحملن هودج عائشة ويرجعن بها رغمًا عنها.

وقد روى هذا الخبر ربعى بن حراش ـ رحمه الله ـ، فقال:

إنى لعند علىٍّ جالسٌ إذ جاء ابن طلحة، فسلم على علىٍّ، فرحب به علىٌّ، فقال: ترحب بى يا أمير المؤمنين، وقد قتلت والدى، وأخذت مالى؟!

قال: أمـا مالك فهو مـعزول فى بيت المال، فاغـد إلى مالك فخـذه، وأما قولك: قـتلت أبى فإنى أرجو أن أكـون أنا وأبوك من الذين[٢] قال الله فـيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧].

---

(١) خبر حسن. أخرجه ابن أبى شيبة (٨/ ٧٢٠).

(٢) خبر صحيح. أخرجه ابن سعد (٣/ ٢٢٥) فى طبقاته.

وأتى ابن عباس عليًّا -رضي الله عنهم- فقال:

إلى أين قاتلُ ابن صفية[١] ؟

فقال عليٌّ: إلى النار[٢] .

هكذا كانت نظرة على -رضي الله عنه- إلى من خالفوه، وحاربوه أنهم إخوانه، وأن ما حدث إنما هو اجتهادٌ، ودسائس أوقع بها أهل السوء بين الصحب الكرام.

ولكن لم يمض إلا القليل حتى كانت المعركة الأخرى «معركة صفين» فأين دارت، وكيف كانت؟ هذا ما نتعرف عليه الآن.

❑❑❑

(١) يعنى الزبير بن العوام -رضي الله عنه-، وأمه صفية بنت عبد المطلب.

(٢) خبر صحيح. أخرجه ابن سعد (٣/ ١١٠) بسندٍ حسنٍ، وله طريق آخر (٣/ ١١١) يرتقى به إلى الصحيح.

قبل الحادث الأليم: موقعة صفين

يحدثنا التاريخ عن جهة صفين بأنه موضع فى العراق، بشاطئ نهر الفرات، وسميت هذه الواقعة التى دارت عنده بواقعة «صفين» أما صفين اليوم فى موضع قـرية تسمـى قرية «أبى هريرة» بـقرب الرقـة، فى شـمال سـورية على شـاطئ الفرات.

وانتهت موقعـة الجمل، وأسفرت عن آلاف القتلى من الجانبين، واسـتشهاد الصحابيين الجليلين الزبير وطلحة -رضي الله عنهما-. جهز علىٌّ -رضي الله عنه- أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- جهازًا حسنًا، وأخرج معها من أراد الخروج، واختار عليها أربعين امرأة معـروفات من نساء البصـرة، وجهز معـها أخاها محـمدًا، وكان خروجـها من البصـرة يوم السبت غرة رجب سنـة ست وثلاثين، وشيعـها علىٌّ -رضي الله عنه- على أميالٍ.

وعاد علىٌّ من البصرة، وعلى الفور قـام بإرسال جرير بن عبد الله الجبلى -رضي الله عنه- إلى معاوية -رضي الله عنه- داعيًا إياه إلى الدخول فى بيعة على.

ولكن لم تتم المبايعـة، وأرسل معاوية بأبى مسلم الخولانـى إلى علىٍّ بأشياء يطلبها منه، منها: أن يـدفع إليه قتلة عثمان، فأبى علىٌّ، وجـرت بينهما رسائل ثم سار كل منهما يريد الآخر، فالتقوا بصفين لسبع بقين من المحرم.

❑❑❑

وشبت الحرب فى صفين

وشبت الحرب بينهما فى أول صفر، فاقتتلوا أيامًا، وكان الحادث الأليم.

وكان لكل واحدٍ من الجانبين من المبررات والدوافع ما جعلته يخرج متحفزًا، فعلى -رضي الله عنه- ينظر فى مخالفة معاوية بخروجه عن البيعة.

ومعاوية -رضي الله عنه- يعلم أن عليًّا أفضل منه، وأحق بالخلافة، ولكنه هو ابن عم عثمان، وهو أولى من طالب بدمه، فليدفع إليه علىٌّ قتلة عثمان -رضي الله عنه-.

فاقتتلوا قتالاً شديدًا، وحدثت مقتلة كبرى، وذلك لعظم الأعداد التى دخلت إلى المعركة، فأعداد أنصار على يتراوح ما بين ستين ألفًا إلى تسعين.

أما معاوية فكان فى سبعين ألفًا، ولنا أن نتخيل ضخامة تلك الأعداد فى العهد الأول!

شبت الحرب بينهم فى أول صفر، فكانوا يقتتلون، ثم يعودون، ثم التقوا فى يوم الأربعاء سابع صفر، ثم يوم الخميس، والجمعة، وليلة السبت، ثم أصبحت الدائرة تدور على أهل الشام، فرفع أهل الشام المصاحف تعبيرًا عن التصالح، والتحاكم.

دعوا إلى الصلح والتحكيم فأجاب علىٌّ إلى تحكيم الحكمين، فاختلف عليه طائفة من جيشه، وهم الخوارج، فخرجوا قائلين:

«لا حكم إلا لله».

من أحداث موقعة صفين ونتائجها

من ملامح موقعة صفين: شدة قتال عليٍّ، ومقاتلته بسيف النبي -ﷺ-.

يحدثنا عبد الله بن سنان الأسدى ـ رحمه الله ـ فيقول: رأيت عليًّا يوم صفين، ومعه سيف رسول الله -ﷺ- ذو الفقار.

فيحمل عليهم، ثم يجىء، ثم يحمل عليهم، فجاء بسيفه قد تثنى، فقال: إن هذا يعتذر إليكم[1] !

وكان من قافلة المقاتلين فى استبسال وجدية: عمار بن ياسر، مع كبر سنه، وذلك لقناعته أنه الحق.

فيروى لنا عبد الله بن سلمة ـ رحمه الله ـ عما رآه، فيقول: رأيت عماراً يوم صفين، شيخًا، آدم[2] ، طوالاً، ويداه ترتعش وبيده حربة، فقال:

والذى نفسى بيده، لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر، لعرفت أن مصلحتنا على الحق، وأنهم على الباطل[3] .

والسعفات: جمع سعفة، وهى أغصان النخيل، وهجر بلدة معروفة، وإنما خص تلك البلدة للمباعدة فى المسافة، ولأنها موصوفة بكثرة النخيل.

وكان عمار -رضي الله عنه- يقول: من سره أن تكتنفه الحور العين فليتقدم بين الصفين محتسبًا، فإنى لأرى صفًّا، ليضربنكم ضربًا يرتاب منه المبطلون، والذى نفسى بيده، لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعرفت أنا على الحق،

---

(١) خبر صحيح. أخرجه ابن أبى شيبة (٨/ ٧٢٩).

(٢) هو القمحى اللون، يكاد يقترب من السواد.

(٣) خبر صحيح. أخرجه ابن أبى شيبة (٨/ ٧٢٦، ٧٢٧)، وأحمد (٤/ ٣١٩) فى مسنده.

وأنهم على الباطل[١] ، وليس معنى قناعة عمار -رضي الله عنه- بأنه على الحق، وأنهم على الباطل، أنه يكفر أهل الشام بل كان ينفر عن هذه المقالة القبيحة، ويظهر أنهم وإن كانوا على الباطل فهم إخوانه، وإن أساءوا، وجاروا.

يقول زياد بن الحارث -رضي الله عنه-:

كنت إلى جنب عمار بن ياسر بصفين، وركبتى تمس ركبته، فقال رجلٌ: كفر أهل الشام، فقال عمار: لا تقولوا ذلك، نبينا ونبيهم واحد، وقبلتنا وقبلتهم واحدة، ولكنهم قوم مفتونون، جاروا عن الحق، فحق علينا أن نقاتلهم حتى يرجعوا إليه[٢] .

وهذا ليس بغريبٍ، فهذا إمام عمار، وقائده فى تلك المعركة على -رضي الله عنه- إذا سئل عن قتلى يوم صفين، يقول:

قتلانا وقتلاهم فى الجنة[٣] .

ولكن من أهم الأحداث التى نتجت عن موقعة صفين: خروج الخوارج.

والنبى -ﷺ- قد أخبر أنهم قومٌ سيظهرون فى آخر الزمان، أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقتلون أهل الإيمان، ويتركون عبدة الأوثان!

وأنهم يقرءون القرآن الكريم، لا يجاوز تراقيهم، وأن من علامة ظهورهم، أن فيهم رجلاً يده ناقصة، وهم شرار الخلق عند الله تعالى.

ولذا يروى عاصم بن شُميخ ـ رحمه الله ـ أنه سمع أبا سعيد الخدرى

(١) خبر صحيح. أخرجه ابن أبى شيبة (٨/ ٧٢٢).
(٢) خبر حسن. أخرجه ابن أبى شيبة (٨/ ٧٢٢)، وفيه الحسن بن الحكم، وهو صدوق.
(٣) خبر حسن. أخرجه ابن أبى شيبة (٨/ ٧٢٩).

-رضي الله عنه- يقول، ويداه ترتعشان من الكبر:

«لقتال الخوارج أحب إليَّ من قتال عدتهم من أهل الشرك»(١).

ومع ذلك فقد نهى عليٌّ أصحابه عن البدء بقتالهم حتى يظهر منهم ما يستوجب ذلك، فلما أحدثوا حدثًا قاتلهم قتالاً شديدًا.

يروى أبو مجلز ـ رحمه الله ـ أن عليًّا -رضي الله عنه- نهى أصحابه أن يسطوا على الخوارج حتى يحدثوا حدثًا، فمروا بعبد الله بن خباب فأخذوه.

فمر بعضهم على تمرةٍ ساقطة من نخلة فأخذها فألقاها فى فيه، فقال بعضهم: تمرة معاهد، فبم استحللتها؟! فألقاها من فيه.

ثم مروا على خنزيرٍ فنفحه بعضهم بسيفه، فقال بعضهم: خنزير معاهد، فبم استحللته؟!

فقال عبد الله: ألا أدلكم على ما هو أعظم حرمة من هذا؟ قالوا:

نعم. قال: أنا، فقدموه فضربوا عنقه.

فأرسل إليهم عليٌّ: أن أقيدونا بعبد الله بن خباب، فأرسلوا إليه: وكيف نقيدك؟، وكلنا قتله؟!

قال: أوكلكم قتله؟ قالوا: نعم. فقال: الله أكبر، ثم أمر أصحابه أن يسطوا عليهم، قال: والله لا يقتل منكم عشرة، ولا يفلت منكم عشرة.

قال: فقتلوهم. فقال: اطلبوا فيهم ذا الثدية، فطلبوه، فأتى به(٢).

---

(١) خبر حسن. أخرجه ابن أبى شيبة (٨/ ٧٣٠) فيه عكرمة بن عمار، وهو صدوق.

(٢) خبر صحيح. أخرجه ابن أبى شيبة (٨/ ٧٣٢).

وكانت نهاية الخوارج الذين قتلوا ابن خباب أليمة، يعبر عنها أبو مجلز بقوله: لما لقى علىٌّ الخوارج أكب عليهم المسلمون، فوالله ما أصيب من المسلمين تسعة حتى أفنوهم(١) .

وقد تبع ذلك قتال على لهم فى موقعة النهروان، وكان فى ذلك نهايتهم فى عهد أمير المؤمنين على بن أبى طالب -رضي الله عنه-، وإن تجمعوا وبغوا فى العصور التالية.

يقول حبيب بن أبى ثابت ـ رحمه الله ـ: أتيت أبا وائل، فسألته عن هؤلاء القوم الذين قتلهم على. قال: قلت: فيم فارقوه، وفيم استجابوا له، وفيم دعاهم، وفيم فارقوه، ثم استحل دماءهم؟

قال: إنه لما استحر القتل فى أهل الشام بصفين اعتصم معاوية وأصحابه بجبلٍ، فقال عمرو بن العاص: أرسل إلى علىٍّ بالمصحف. فلا والله لا يرده عليك.

قال: فجاء به رجلٌ يحمله ينادى: بيننا وبينكم كتاب الله:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٣].

فقال علىّ: نعم بيننا وبينكم كتاب الله، وأنا أولى به منكم.

قال: فجاءت الخوارج وكنا نسميهم يومئذ القراء، فجاءوا بأسيافهم على عواتقهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين، لا نمشى إلى هؤلاء القوم حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

---

(١) خبر صحيح. أخرجه ابن أبى شيبة (٨/ ٧٣٢).

فقام سهل بن حنيف فقال: أيها الناس، اتهموا أنفسكم، لقد كنا مع رسول الله -ﷺ- يوم الحديبية، ولو نرى قتالاً لقاتلنا، وذلك فى الصلح الذى كان بين رسول الله -ﷺ- وبين المشركين، فجاء عمر فأتى رسول الله -ﷺ- فقال:

يا رسول الله، ألسنا على الحق، وهم على الباطل؟ قال: «بلى».

قال: أليس قتلانا فى الجنة، وقتلاهم فى النار؟ قال: «بلى».

قال: ففيم نعطى الدنية فى ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟

فقال:

«يا ابن الخطاب، إنى رسول الله ولن يضيعنى الله أبدًا».

قال: فانطلق عمر، ولم يصبر متغيظًا حتى أتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، ألسنا على حق، وهم على باطل؟ فقال: بلى.

قال: أليس قتلانا في الجنة، وقتلاهم فى النار؟! قال: بلى. قال: فعلام نعطى الدنية فى ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟!

فقال: يا ابن الخطاب، إنه رسول الله، ولن يضيعه الله أبدًا.

قال: فنزل القرآن على محمد -ﷺ- بالفتح، فأرسل إلى عمر فأقرأه إياه، فقال:

يا رسول الله، أو فتح هو؟! قال: «نعم» فطابت نفسه ورجع.

فقال علىٌّ: أيها الناس، إن هذا فتح، فقبل علىٌّ القضية ورجع، ورجع الناس، ثم إنهم خرجوا بحروراء أولئك العصابة من الخوارج بضعة عشر ألفًا،

فأرسل إليهم يناشدهم الله، فأبوا عليه، فأتاهم صعصعة بن صوحان فناشدهم الله، وقال: علام تقاتلون خليفتكم؟

قالوا: نخاف الفتنة. قال: فلا تعجلوا ضلالة العام، مخافة فتنة عام قابل، فرجعوا فقالوا: نسير على ناحيتنا، فإن عليًّا قبل القضية، قاتلناهم يوم صفين، وإن نقضها قاتلنا معه، فساروا حتى بلغوا النهروان، فافترقت منهم فرقة فجعلوا يهدون الناس قتلاً، فقال أصحابهم: ويلكم ما على هذا فارقنا عليًّا، فبلغ عليًّا أمرهم، فقام فخطب الناس فقال: أما ترون، أتسيرون إلى أهل الشام، أم ترجعون إلى هؤلاء الذين خلفوا إلى ذراريكم. فقالوا: لا، بل نرجع إليهم، فذكر أمرهم فحدث عنهم ما قال فيهم رسول الله -ﷺ-: «إن فرقة تخرج عند اختلاف الناس تقتلهم أقرب الطائفتين بالحق، علامتهم رجلٌ فيهم يده كثدى المرأة»[1].

فساروا حتى التقوا بالنهروان فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فجعلت خيل على لا تقوم لهم، فقام عليٌّ فقال: أيها الناس، إن كنتم إنما تقاتلون لي، فوالله ما عندي ما أجزيكم به، وإن كنتم إنما تقاتلون لله فلا يكن هذا قتالكم.

فحمل الناس حملة فانجلت الخيل عنهم، وهم مكبون على وجوههم، فقال عليٌّ: اطلبوا الرجل فيهم، قال: فطلبه الناس فلم يجدوه حتى قال بعضهم: غرنا ابن أبي طالب من إخواننا حتى أتى وهدة فيها قتلى بعضهم على بعض، فأمر أن يجر بأرجلهم، حتى وجد الرجل تحتهم، فأخبروه، فقال عليٌّ: الله أكبر، وفرح الناس ورجعوا، وقال عليٌّ: لا أغزو العام، ورجع إلى الكوفة[2].

(١) حديث صحيح. سبق تخريجه.

(٢) خبر صحيح. أخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ٧٣٦).

وهكذا رجع معاوية -رضي الله عنه- بمن بقى معه إلى ديار الشام، وعاد علىٌّ -رضي الله عنه- ومن معه إلى الكوفة حيث دار الخلافة.

فإن قال قائل، وسأل سائل: لم ترك على القصاص من قتلة عثمان حتى لا تحدث تلك المعارك؟

هذا ما نتعرف عليه فى الصفحات التالية، ومن الله تعالى العون والتيسير.



قضية القصاص من قتلة عثمان - رضي الله عنه -

يقول القرطبي المفسر في التذكرة (٢/ ٤١٦):

إن قيل: لم ترك على القصاص من قتلة عثمان؟ فالجواب أنه لم يكن ولي دمٍ، وإنما كان أولياء الدم أولاد عثمان -رضي الله عنه- وهم جماعة: عمرو، وكان أسن ولد عثمان، وأبان وكان محدثًا فقيهًا وشهد الجمل مع عائشة، والوليد بن عثمان، وكان عنده مصحف عثمان الذي كان في حجره حين قتل، ومنهم: سعيد بن عثمان، وكان واليًا لمعاوية على خراسان.

فهؤلاء بنو عثمان الحاضرون في ذلك الوقت، وهم أولياء الدم دون غيرهم، ولم يتحاكم إلى عليٍّ أحدٌ منهم، ولا نقل ذلك منهم، فلو تحاكموا إليه لحكم بينهم إذ كان أقضى الصحابة للحديث المروي فيه عن رسول الله -ﷺ-.

وجواب ثانٍ: أنه لم يكن في الدار عدلان يشهدان على قاتل عثمان بعينه، فلم يكن له أن يقتل بمجرد دعوى في قاتل بعينه، ولا إلى الحكم في سبيل ذلك مع سكوت أولياء الدم عن طلب حقهم، ففي تركهم له أوضح دليلٍ، وكذلك فعل معاوية حين تمت له الخلافة، وملك مصر وغيرها بعد أن قتل علي -رضي الله عنه- لم يحكم على واحدٍ من المتهمين بقتل عثمان بإقامة قصاص، وأكثر المتهمين من أهل مصر، والكوفة، والبصرة، وكلهم تحت حكمه، وأمره، ونهيه، وغلبته وقهره، وكان يدعي المطالبة بذلك قبل ملكه، ويقول:

لا نبايع من يؤوي قتلة عثمان، ولا يقتضي منهم، والذي كان يجب عليه شرعًا أن يدخل في طاعة علي -رضي الله عنه- حين انعقدت خلافته في مسجد رسول الله -ﷺ-، ومهبط الوحي، ومقر النبوة، وموضع الخلافة بجميع من كان فيها

من المهاجرين، والأنصار بطوعٍ منهم، وارتضاء واختيار، وهم أمم لا يحصون، وهم أهل عقدٍ وحل، والبيعة تنعقد بطائفةٍ من أهل الحل والعقد.

فلما بويع له -رضي الله عنه- طلب أهل الشام في شرط البيعة التمكنِ من قتلة عثمان، وأخذ القود منهم، فقال لهم على -رضي الله عنه-: ادخلوا فى البيعة، واطلبوا الحق تصلوا إليه، فقالوا: لا تستحق بيعة، وقتلة عثمان معك نراهم صباحًا ومساءً، وكان على فى ذلك أسدّ رأيًا، وأصوب قيلاً، لأن عليًّا لو تعاطى القود معهم لتعصبت لهم قبائل، وصارت حربًا ثالثة، فانتظر بهم إلى أن يستوثق الأمر، وتنعقد عليه البيعة، ويقع الطلب من الأولياء فى مجلس الحكم فيجرى القضاء بالحق.

ولا خلاف بين الأمة أنه يجوز للإمام تأخير القصاص إذا أدى إلى إثارة فتنة، أو تشتيت الكلمة، وكذلك جرى لطلحة والزبير فإنهما ما خلعا عليًّا من ولايةٍ، ولا اعترضا عليه ديانةٍ، وإنما رأوا أن البداية بقتل قتلة عثمان أولى.

ومما يوضح هذا الأمر ويجليه ما قاله العلامة محب الدين الخطيب ـ رحمه الله ـ قال[1] : وجود قتلة عثمان فى معسكر على حقيقة لا يمارى أحدٌ فيها، بل إن الأشتر، وهو من رءوس البغاة على عثمان، كان أكبر مسعر للحرب بين أصحاب رسول الله -ﷺ-، الذين هم فى معسكر على، والذين فى معسكر معاوية.

ولما طالب علىٌّ معاوية ومن معه من الصحابة والتابعين أن يبايعوه احتكموا إليه فى قتلة عثمان، وطلبوا منه أن يقيم حد الله عليهم، أو أن يسلمهم إليهم، فيقيموا عليهم حد الله، وقد اعتذرنا عن أمير المؤمنين علىّ بأن قتلة عثمان لما

---

(١) العواصم من القواصم (ص١٦٨).

صاروا مع على فى العـراق صاروا فى معقل قـوتهم، وعنجهية قـبائلهم، فكان على يرى ـ بينه وبين نفسه ـ أن قتلهم يفتح عليه بابًا لا يستطيع سده بعد ذلك.

وقد انتبه لهذه الحقيقة الصحـابى الجليل القعقاع بن عمرو التميمى، وتحدث بها مع أم المؤمنين عائشة، وصاحبى رسول الله -ﷺ-، طلحة والزبير، فأذعنوا له وعذروا عليًّا، ووافقوا على التفاهم معه على ما يوصلهم إلى الخروج من هذه الفتنة، فما لبث قتلة عثمان أن أنشبوا الحرب بين الفريقين.

فالمطالبون بإقامة الحد على قتلة عثمان معذورون لأنهم يطالبون بحقٍّ، سواء أكانوا من أصحاب الجمل، أو من أهل الشام.

ولو أن عليًّا لم يتحرك من الكوفة استعداداً لهذا القتال لما حرك مـعاوية فيه ساكنًا، قال شيخ الإسلام ابن تيمـية فى منهاج السنة (٢/ ٢١٩): لم يكن معاوية ممن يختار الحرب ابتداءً.

ومع ذلك فإن هذه الحـرب المثالية هى الحـرب الإنسانيـة الأولى فى التاريخ التى جرى فيها المتحاربان معًـا على مبادئ الفضائل التى يتمنى حكماء الغرب لو يعمل بها فى حـروبهم، ولو فى القرن الحادى والعشرين، وأن كثـيراً من قواعد فقه الحـرب فى الإسلام لم تكن لتعلم وتدون لولا وقـوع هذه الحرب، ولله فى أمره حكمة.

وقد اقتص الله تعالى من قتلة عثمان، فماتوا شر ميتة.

ولكن يبقى التساؤل: أيهما كان على صواب، وأيهما كان على الحق؟

هذا هو ما نحـاول التعـرف عليه فى الصـفحات التـالية، سـائلاً الله تعالى التوفيق والسداد.

أين الحق والصواب؟

انعقد إجماع الأمة على أن طائفة الإمام على -رضي الله عنه- طائفة عدل، والأخرى طائفة بغى، فأهل السنة والجماعة على أن عليًّا مصيبٌ فى قتاله لأهل الجمل، ولأهل صفين.

وأن الذين قاتلوه بغاة قد تأولوا ما فعلوه.

فعلى -رضي الله عنه- كان إمامًا فى توليته، ومقاتلوه بغاة، وحسن الظن بهم يقتضى أن يظن بهم قصد الخير، وإن أخطأوه.

وعمدة أهل السنة فى بيان تصويب الإمام على -رضي الله عنه- حديث استشهاد عمار -رضي الله عنه-، فقد روى جم غفير من الصحب الكرام، وهم أم سلمة، وعمرو ابن العاص، وخزيمة بن ثابت، وعبد الله بن عمرو، وأبو هريرة، وحذيفة وأبو أيوب، وأبو رافع، وقتادة بن النعمان سمعوا جميعًا أن النبى -ﷺ- قال: «يقتل عمارًا الفئة الباغية»[1] .

واستشهد عمار بن ياسر -رضي الله عنهما- فى صفين، وكان مع علىٍّ -رضي الله عنه- وكان عمره يومئذ ثلاثًا وتسعين سنة.

وفى رواية أخرى لحديث مقتل عمار -رضي الله عنه-، والذى هو من دلائل النبوة، يقول النبى -ﷺ-:

«ويح عمار تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار»[2] .

---

(١) حديث صحيح. أخرجه مسلم (٢٩١٦)، وأحمد (٢/ ١٦٤، ٢٠٦)، (٣/ ٢٢)، (٤/ ١٩٧، ١٩٩)، (٥/ ٢١٤)، (٦/ ٣٠٠، ٣٢١)، وابن أبى شيبة (١٥/ ٢٩٣) فى مصنفه، وابن حبان (٨/ ٢٦٠)، وأبو نعيم (٤/ ١٧٢)، (٧/ ١٩٧) فى الحلية، والبغوى (٣٩٥٢) فى شرح السنة.

(٢) حديث صحيح. أخرجه البخارى (٤٤٧)، وأحمد (٣/ ٩١)، والبيهقى (٢/ ٥٤٦) فى الدلائل.

«ويح عمار» هى كلمة رحمة.

أما قوله -ﷺ-: «يدعوهم» فنلاحظ فيه إعادة الضمير على غير مذكور، والمراد قتلته، كما ثبت من وجهٍ آخر.

فإن قيل: كان قتله بصفين، وهو مع على، والذين قتلوه مع معاوية، وكان معه جماعة من الصحابة، فكيف يجوز عليهم الدعاء إلى النار؟!

فالجواب: أنهم كانوا ظانين أنهم يدعون إلى الجنة، وهم مجتهدون لا لوم عليهم فى اتباع ظنونهم، فالمراد بالدعاء إلى الجنة الدعاء إلى سببها، وهو طاعة الإمام، وكذلك كان عمار يدعوهم إلى طاعة على، وهو الإمام الواجب الطاعة إذ ذاك، وكانوا هم يدعون إلى خلاف ذلك، لكنهم معذورون للتأويل الذى ظهر لهم[١].

ولذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: ويروى أن معاوية تأول أن الذى قتله هو الذى جاء به إلى مقاتله.

قال: فما قتله إلا الذى أخرجه. فألزمه على -رضي الله عنه- بقوله:

فرسول الله -ﷺ- إذًا قتل حمزة حين أخرجه لقتال المشركين، ولا يخفى ضعف حجة معاوية هذه.

فلا ريب أن قول على -رضي الله عنه- هذا هو الصواب، وإنما معاوية -رضي الله عنه- مجتهد مخطئ، والله أعلم[٢].

ونختم هذا الكلام بقولنا: إن الإمساك عن ذكر أصحاب رسول الله ﷺ،

---

(١) انظر الفتح (١/ ٥٤٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٧٦، ٧٧).

وذكر زللهم، ونشر محاسنهم، ومناقبهم، وصرف أمورهم إلى أجمل الوجوه من أمارات المؤمنين المتبعين لهم بإحسان، الذين مدحهم الله تعالى فقال:

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا ﴾ [الحشر: ١٠].

مع ما أمر النبى -ﷺ- بإكرام أصحابه، وأوصى بحفظهم، وصيانتهم وإجلالهم.

فمن أصول أهل السنة والجماعة: حب الصحابة جميعًا، والترضى عنهم، والسكوت عما شجر بينهم، وسلامة القلوب من الحقد عليهم، أو بغضهم، أو الاحتقار، وسلامة الألسنة من الطعن فيهم، أو السب والشتم لأحدهم، أو الوقيعة فيهم.

وفى هذا يقول الله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

فقد كانوا أبر هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، وأقومها هديًا، وأحسنهم حالاً، فلنعرف لهم فضلهم، ولنتبع آثارهم، فهم أصحاب الصراط المستقيم.

قال قبيصة بن عقبة ـ رحمه الله ـ:

«حب أصحاب النبى -ﷺ- كلهم سنة»[1].

وتتعجب أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- من هؤلاء الضالين، الذين يقعون

---

(١) خبر صحيح. أخرجه التيمى فى الحجة (٢/ ٣٦٨).

بألسنتهم فى الصحب الكرام، فتقول لابن أختها عروة بن الزبير ـ رحمه الله ـ:

يا ابن أختى..

أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبى -ﷺ- فسبوهم[١] !!

بل يجب ذكر محاسنهم، والترضى عنهم، والمحبة لهم، وترك التحامل على أحد منهم، واعتقاد العذر لهم، وإنما فعلوا ما فعلوا باجتهادٍ لا يوجب كفراً، ولا فسقًا.

بل ربما يثابون عليه لأنهم اجتهدوا ابتغاء الحق والصواب[٢] .

وكان الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ ينكر على من خاض، ويسلم أحاديث فضائلهم، وقد تبرأ ممن ضللهم، أو كفرهم، وقال: السكوت عما جرى بينهم أولى وأحرى[٣] .

وقال أبو جعفر الطحاوى صاحب الطحاوية:

نحب أصحاب رسول الله -ﷺ-، ولا نفرط فى حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحدٍ منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير[٤] .

---

(١) خبر صحيح. أخرجه مسلم (٣٠٢٢)، والتيمى (٣٦٥) فى الحجة.

(٢) انظر: لوائح الأنوار (٢/ ٩٩) للعلامة السفارينى.

(٣) لوائح الأنوار (٢/ ٩٩).

(٤) العقيدة الطحاوية (ص٥٢٨).

قصة التحكيم

رفع أهل الشام المصاحف لما دارت عليهم الدائرة، ولم يخب ظنهم فقد قبل على إيقاف القتال، والبحث عن لجنة تقضى فى النزاع الذى حدث من بدايته، وتتبنى ما فيه الخير للمسلمين.

واتفق الفريقان على أن يحكم كل واحدٍ منهما ـ على ومعاوية ـ رجلاً من طائفته، ثم يتفق الحكمان على ما فيه مصلحة المسلمين.

فوكل معاوية، عمرو بن العاص، ووكل على أبا موسى الأشعرى رضى الله عنهم أجمعين.

واستعد على لما يقضى به الحكمان استعدادًا تامًا حتى قال لأبى موسى الأشعرى.

اذهب يا أبا موسى، فاحكم ولو خر عنقى[1] .

ثم أخذ الحكمان من علىّ ومعاوية العهود والمواثيق، أنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما، والأمة لهما أنصار على الذى يتفقان عليه.

فلما كان الموعد سار هذا من الشام، وسار هذا من العراق، إلى أن التقت الطائفتان بدومة الجندل، وهى طرف الشام.

وهذه تسمية من شهد على هذا التحكيم من جيش على -رضي الله عنه-:

عبد الله بن عباس، والأشعث بن قيس الكندى، وسعيد بن قيس الهمدانى،

(١) خبر صحيح. أخرجه ابن أبى شيبة (٨/ ٧٢٤) من طريقين، وأورده الذهبى (٤/ ٥٤٨) فى تاريخ الإسلام من أحدهما.

وعبد الله بن الطفيل وحجر بن يزيد الكندى، وورقاء بن سمى العجلى، وعبد الله بن بلال العجلى، وعقبة بن زياد الأنصارى، ويزيد بن جحفة التميمى، ومالك بن كعب الهمدانى، فهؤلاء عشرة.

وأما من الشاميين فعشرة آخرون، وهم: أبو الأعور السلمى، وحبيب بن مسلمة، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، ومخارق بن الحارث الزبيدى، ووائل ابن علقمة العدوى، وعلقمة بن يزيد الحضرمى، وحمزة بن مالك الهمدانى، وسبيع بن يزيد الحضرمى، وعتبة بن أبى سفيان، أخو معاوية، ويزيد بن الحر العبسى[١].

وكان مبدأ الاتفاق هو أن من ولياه الخلافة فهو الخليفة، ومن اتفقا على خلعه، خلع، وتواعدا أن موعد التحكيم فى شهر رمضان[٢].

وقد ذكر بعض أهل العلم فى تفاصيل التحكيم وصفته مرويات كثيرة جلها إلا القليل منها، هو الصحيح، وغالبها ما بين موضوع، وتألف، وضعيف.

ولذا قال ابن العربى ـ رحمه الله ـ:

قالوا فيه ما لا يرضى الله، وإذا لاحظتموه بعين المروءة، دون الديانة رأيتم أنها سخافة حمل على سطرها فى الكتب فى الأكثر عدم الدين، وفى الأقل جهل بين.

والذى يصح من ذلك ما روى الأئمة كخليفة بن خياط، والدارقطنى، أنه لما خرجت الطائفة العراقية فى مائة ألف، والشامية فى سبعين أو تسعين ألفًا،

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٧/ ٣٠٣).

(٢) انظر: تاريخ الطبرى (٥/ ٥٤)، تاريخ الإسلام (٤/ ٥٤٨).

ونزلوا على الفرات بصفين، اقتتلوا فى أول يوم، وهو يوم الثلاثاء على الماء فغلب أهل العراق عليه، ثم التقوا يوم الأربعاء لسبع خلون من صفر سنة (سبع وثلاثين). ويوم الخميس، ويوم الجمعة، وليلة السبت، ورفعت المصاحف من أهل الشام، ودعوا إلى الصلح، وتفرقوا على أن تجعل كل طائفة أمرها إلى رجلٍ، فكان من جهة عليٍّ: أبو موسى، ومن جهة معاوية: عمرو بن العاص.

وكان أبو موسى رجلاً تقيًّا، فقيهًا، عالمًا، وزعمت الطائفة التاريخية الركيكة أنه كان أبله ضعيف الرأى مخدوعًا فى القول، وأن ابن العاص كان ذا دهاء وأرب، حتى ضربت الأمثال بدهائه تأكيدًا لما أرادت من الفساد، وتبع فى ذلك بعض الجهال بعضًا، وصنفوا فيه حكايات، وغيره من الصحابة كان أحذق منه وأدهى.

وإنما بنوا ذلك على أن عمرًا لما غدر بأبى موسى فى قصة التحكيم صار له الذكر والدهاء.

وقالوا: إنهما لما اجتمعا بأذرح من دومة الجندل، وتفاوضا اتفقا على أن يخلعا الرجلين، فقال عمرو لأبى موسى: اسبق بالقول فتقدم، فقال: إنى نظرت فخلعت عليًّا عن الأمر، ولينظر المسلمون لأنفسهم كما خلعت سيفى هذا من عاتقى، وأخرجه من عنقه فوضعه فى الأرض.

وقام عمرو فوضع سيفه فى الأرض، وقال: إنى نظرت فأثبت معاوية فى الأمر، كما أثبت سيفى هذا فى عاتقى، وتقلدم.

فأنكره أبو موسى، فقال عمرو: كذلك اتفقنا، وتفرق الجمع على ذلك من الاختلاف[1].

---

(١) خبر موضوع: انظر كلام ابن كثير عليه فى البداية والنهاية (٧/ ٣٨٥).

هذا كله كذب صراح، ما جرى منه حرف قط، وإنما هو شيءٌ اخترعته المبتدعة، ووضعته التاريخية للملوك، فتوارثته أهل المجانة، والجهارة بمعاصى الله والبدع.

وإنما الذى روى الأئمة الثقات الأثبات أنهما لما اجتمعا للنظر فى الأمر فى عصبة كريمة من الناس منهم ابن عمر ونحوه، عزل عمرو معاوية. ذكر الدارقطنى بسنده إلى حضين بن المنذر[١] :

لما عزل عمرو معاوية جاء حضين بن المنذر فضرب فسطاطه قريبًا من فسطاط معاوية، فبلغ ثناه[٢] معاوية، فأرسل إلى فقال: إنه بلغنى عن هذا ـ يعنى عن عمرو ـ كذا وكذا، فاذهب فانظر ما هذا الذى بلغنى عنه.

فأتيته فقلت: أخبرنى عن الأمر الذى وليت أنت وأبو موسى، كيف صنعتما فيه؟

قال: قد قال الناس فى ذلك ما قالوا، والله ما كان الأمر على ما قالوا، ولكن قلت لأبى موسى: ما ترى فى هذا الأمر؟ قال: أرى أنه فى النفر الذين توفى رسول الله -ﷺ- وهو عنهم راضٍ.

قلت: فأين تجعلنى أنا ومعاوية؟ فقال: إن يستعن بكما ففيكما معونة، وإن يستغنِ عنكما، فطالما استغنى أمر الله عنكما.

قال: فكانت هى التى قتل معاوية منها نفسه، فأتيته، فأخبرته أن الذى بلغه عنه، كما بلغه.

---

(١) كان من أمراء على بصفين.

(٢) أى عزله علىّ ومعاوية وتفويضه الأمر إلى كبار الصحابة الكرام.

فخرج عمرو إلى فرسٍ تحت فسطاطه، فخرج يركضه نحو فسطاط معاوية، وهو يقول:

إن الضجور[١] قد تحتلب العلبة[٢] . يا معاوية إن الضجور قد تحتلب العلبة.

فقال معاوية: وتريد الحالب فتدق أنفه، وتكفأ إناءه.

فهذا كان بدء الحديث ومنتهاه، فأعرضوا عن الغاوين، وازجروا العادين، وعرجوا عن سبيل الناكثين، إلى سنن المهتدين، وأمسكوا الألسنة عن السابقين إلى الدين.

وإياكم أن تكونوا يوم القيامة من الهالكين بخصومة أصحاب رسول الله -ﷺ-، فقد هلك من كان أصحاب النبى -ﷺ- خصمه.

دعوا ما مضى، فقد قضى الله فيه ما قضى، وخذوا لأنفسكم الجد فيما يلزمكم اعتقادًا، وعملاً، ولا تسترسلوا بألسنتكم فيما لا يعنيكم[٣] .

وبسبب مسألة قبول التحكيم كان خروج الخوارج، وانفتحت فتنة جديدة على المسلمين.

❑❑❑

(١) ، (٢) الضجور: الناقة التى ترغو وتعربد عند الحلب، وأما قوله: «قد تحلب الضجور العلبة» فهذا مثل، ومعناه: أن الناقة التى ترغو قد تحلب ما يملأ العلبة، ويضرب المثل للمسيء الخلق قد يصاب منه الرفق واللين، وللبخيل قد يستخرج منه المال.

(٣) العواصم من القواصم (ص١٨٢).

كلام أمير المؤمنين فى الزهد

ترك لنا أمير المؤمنين جملة نافعة من كلامه فى الزهد والرقائق مما يستحسن الوقوف عندها لأخذ العبرة، واستلهام العظة.

فهذا خبر فى بيان صفة أبواب جهنم، أعاذنا الله من عذابها.

يروى حطان الرقاشى ـ رحمه الله ـ أنه سمع عليًّا -رضي الله عنه- يقول: هل تدرون كيف أبواب جهنم؟

قال: قلنا: هى مثل أبوابنا هذه؟ قال: لا، إن أبواب جهنم هكذا، بعضها فوق بعضٍ، فيملأ الأول، ثم الثانى، ثم الثالث، ثم الرابع، ثم السابع[١].

ويحذرنا على -رضي الله عنه- من الأمل الطويل، الذى ينسى الاستعداد ليوم الرحيل.

فيروى مهاجر العامرى أن عليًّا -رضي الله عنه- قال:

«إنما أخشى عليكم اثنتين: طول الأمل، واتباع الهوى، فإن طول الأمل ينسى الآخرة، وإن اتباع الهوى يصد عن الحق، وإن الدنيا قد ترحلت مدبرة، وإن الآخرة مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل»[٢].

---

(١) خبر صحيح. أخرجه ابن أبى شيبة (٨/ ٩٢) فى مصنفه، وابن المبارك (٨٥) زوائد الزهد، وهناد (٢٤٧) فى الزهد.

(٢) خبر حسن. أخرجه ابن أبى شيبة (٨/ ١٥٥)، وابن المبارك (٨٦)، وهناد (٥٠٩)، والبخارى (١١/ ٢٣٥ فتح) تعليقًا.

وفى رواية: إن أخوف ما أخاف عليكم: اتباع الهوى، وطول الأمل.

وعن فضل الإنفاق على الإخوان، وبيان فضل المحبة فى الرحمن، يقول على -رضي الله عنه-:

لأن أجمع نفرًا من إخوانى على صاعٍ أو صاعين من طعامٍ، أحب إلى من أن أخرج إلى سوقكم فأعتق رقبة[١] .

وعن هدى المسلم الحقيقى الإسلام، المتصف بحسان الخصال، والمجتنب للأهواء، يروى ربيعة بن ناجذ أنه سمع عليًّا -رضي الله عنه- يقول:

كونوا فى الناس كالنحلة فى طيرانها، ليس من الطير شىء إلا وهو يستضعفها، ولو يعلم الطير ما فى أجوافها من البركة لم يفعلوا ذلك بها. خالطوا الناس بألسنتكم وأجسادكم، وزايلوهم بأعمالكم وقلوبكم، فإن للمرء ما اكتسب، وهو يوم القيامة مع من أحب[٢] .

ويحدد معالم الخير التى ينبغى لكل مسلمٍ الوصول إليها، والحرص على الاتصاف بها.

فيقول على -رضي الله عنه-:

احفظوا عنى خمسًا، فلو ركبتم الإبل فى طلبهن لأنضيتموهن قبل أن تدركوا مثلهن: لا يرجو عبد إلا ربه، ولا يخاف إلا ذنبه، ولا يستحيى جاهل أن يتعلم، ولا يستحيى عالم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: الله أعلم.

واعلموا أن منزلة الصبر من الإيمان، كمنزلة الرأس من الجسد، فإذا ذهب

---

(١) خبر حسن. أخرجه البخارى فى الأدب المفرد (١٤٨)، وهناد (٦٤٢) فى الزهد.

(٢) خبر حسن. أخرجه الدارمى (١/ ٩٢) فى سننه، والبيهقى (١٨٩) فى الزهد.

الرأس، ذهب الجسد، وإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان[١] .

ويعلمنا أمير المؤمنين على -رضي الله عنه- أن العالم الحقيقى، التام فى علمه هو من لا يقنط الناس من سعة رحمة رب العالمين، وفى نفس الوقت لا يجعلهم يغترون، وبأنفسهم يعجبون، يقول:

ألا إن الفقيه كل الفقيه الذى لا يقنط الناس من رحمة الله، ولا يؤمنهم من عذاب الله، ولا يرخص لهم فى المعاصى، ولا يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره، ولا خير فى عبادة لا علم فيها، ولا خير فى علم لا فهم فيه، ولا فى قراءة لا تدبر فيها[٢] .

وفى هذا الباب الكثير من الأقوال والخطب ضربنا عنها صفحًا فهى لم تصح سندًا، وإن كانت جميلة المعانى، بليغة الألفاظ، لما اشترطناه من الوقوف على الصحيح.

□□□

---

(١) خبر حسن لغيره. أخرجه ابن أبى شيبة (٨/ ١٥٦)، ووكيع (١٩٩) فى الزهد، وأبو نعيم (١/ ٧٥، ٧٦) فى الحلية.

(٢) خبر حسن. أخرجه أبو نعيم (١/ ٧٧) فى الحلية.

إعلام أمير المؤمنين أنه مقتول

كانت الدلائل البينة أمام أمير المؤمنين بعد موقعة صفين، وخروج نابتة الخوارج عليه أن المكائد ستدبر له، وأن تحت جنح الظلام تحاك المؤامرة له.

لذا كان يكثر أن يقول: ما يحبس أشقاها؟ أى ما ينتظر؟ ما له لا يقتل؟ ثم يقول: والله لتخضبن هذه ـ ويشير إلى لحيته ـ من هذه، ويشير إلى هامته.

وقد روى هذا المعنى عن جمٍّ غفير من الرواة، القريبى الصلة من أمير المؤمنين، وأصح ما روى فى ذلك، ما رواه أبو الطفيل ـ رحمه الله ـ يقول: دعا علىٌّ الناس إلى البيعة، فجاء عبد الرحمن بن ملجم فرده مرتين، ثم أتاه فقال: ما يحبس أشقاها؟!

لتخضبن أو لتصبغن هذه من هذا، يعنى لحيته من رأسه، ثم تمثل بهذين البيتين:

اشدد حيازيمك للموت ... فإن الموت آتيك

ولا تجزع من القتل ... إذا حل بواديك[1]

والحيازيم جمع حيزوم، وهو الصدر، وقيل: وسطه.

وهذا الكلام كناية عن الاستعداد للأمر، وأخذ الأهبة له من قبل مجيئه.

وقد أحس أبناء على مبكرًا كأن بلاءً ينتظر من وراء الخوارج، ومن خلف

(١) خبر صحيح. أخرجه ابن سعد (٣/ ٣٣)، والطبرانى (١٦٩) فى الكبير عن أبى الطفيل، وعن عبد الله بن سبع أخرجه أحمد (١٠٧٨)، (١٣٣٩)، وابن الأثير (٣/ ١١٦) فى أسد الغابة، وعن أبى فضالة أخرجه أحمد (٨٠٢) وعن صهيب أخرجه ابن الأثير (٣/ ١١٧)، وعن على أخرجه ابن الأثير (٣/ ١١٦).

ابن ملجم على وجه الخصوص لما ظهر من بوادر تؤيد ذلك، وتوضحه.

يروى محمد ابن الحنفية ـ رحمه الله ـ فيقول:

دخل علينا ابن ملجم الحمام، وأنا وحسن، وحسين جلوسًا فى الحمام، فلما دخل كأنهما اشمأزا منه وقالا: ما أجرأك تدخل علينا!!

قال: فقلت لهما: دعاه عنكما، فلعمرى ما يريد بكم أحشم من هذا.

فلما كان يوم أُتى به أسيرًا، قال ابن الحنفية: ما أنا اليوم بأعرف به منى يوم دخل علينا الحمام!

فقال علىٌّ: إنه أسيرٌ، فأحسنوا نزله، وأكرموا مثواه، فإن بقيت قتلت، أو عفوت، وإن مت فاقتلوه قتلتى، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين[١].

وهذا أبو مجلز ـ رحمه الله ـ يقول:

جاء رجلٌ من مراد إلى علىّ، وهو يصلى فى المسجد، فقال:

احترس، فإن ناسًا من مراد يريدون قتلك، فقال علىٌّ:

إن مع كل رجلٍ ملكين يحفظانه مما لم يقدر، فإذا جاء القدر خلى بينه وبينه، وإن الأجل جنة حصينة[٢].

ويروى عبيدة ـ رحمه الله ـ أن عليًّا -رضي الله عنه- كان إذا رأى ابن ملجم قال:

أريد حياته ويريد قتلى ... عذيرك من خليلك من مراد[٣]

---

(١) خبر حسن. أخرجه ابن سعد (٣/ ٣٥) فى طبقاته، وابن الأثير (٤/ ١١٨) فى أسد الغابة.

(٢) خبر صحيح. أخرجه ابن سعد (٣/ ٣٤).

(٣) خبر صحيح. أخرجه ابن عبد البر (٣/ ١١٢٦) فى الاستيعاب، والأصفهانى (١٥/ ٢١٩) فى الأغانى.

وفى رواية: قال علىٌّ: أما إن هذا قاتلى.

قيل: فما يمنعك منه؟ قال: إنه لم يقتلنى بعد[1] .

أليس ذلك يعد من باب الفراسة؟

ولكن علم أمير المؤمنين يجعله لا يعاقب بالظن، ولا يأخذ بالريبة، بل باليقين والبرهان.

❑❑❑

(1) إسناده حسن. أخرجه ابن عبد البر (3/ 1127).

العباس بن عبد المطلب

إنه العباس بن عبد المطلب، القرشى.

كان شريفًا مهيبًا، وحسن الصورة، جهير الصوت، وافر الحلم والسؤدد.

وكان يمنع الجار، ويبذل المال، ويعطى فى الشدائد بسخاء وجودٍ.

وثبت العباس يوم حنين، وقت الهزيمة، آخذًا بلجام بغلة النبى -ﷺ-، وثبت معه حتى جاء نصر الله.

ووقع رجلٌ من الأنصار فى أبٍ للعباس كان فى الجاهلية، فلطمه العباس، فجاء قومه، فقالوا: والله لنلطمنه كما لطمه، فلبسوا السلاح.

فبلغ ذلك رسول الله -ﷺ-، فصعد المنبر، وقال:

«أيها الناس، أى أهل الأرض أكرم على الله؟».

قالوا: أنت، قال: «فإن العباس منى وأنا منه، لا تسبوا أمواتنا فتؤذى أحياءنا».

«وإن عم الرجل صنو أبيه، من آذى العباس فقد آذانى»[(١)] .

فجاء القوم فقالوا: نعوذ بالله من غضبك يا رسول الله.

وبعث رسول الله -ﷺ- عمر على الصدقة ساعيًا، فمنع ابن جميل، وخالد، والعباس.

---

(١) حديث صحيح. أخرجه ابن سعد (٤/ ٢٤)، وأحمد (١/ ٣٠٠)، والحاكم (٣/ ٣٢٩) وصححه، وأقره الذهبى.

فقال رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ:

«ما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيراً فأغناه الله، وأما خالد، فإنكم تظلمون خالدًا، إنه قد احتبس أدراعه، وأعتاده فى سبيل الله، وأما العباس، فهى علىَّ ومثلها، أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه»(١).

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يرى للعباس ما يرى الولد لوالده، ويفخمه، وسار على ذلك أبو بكر، والفاروق، فكانوا إذا قحطوا استسقوا بالعباس بن عبد المطلب، فاستسقى عمر عام الرمادة بالعباس، فقال: «اللهم هذا عم نبيك، وإنا كنا إذا قحطنا على عهد نبيك توسلنا به، وإنا نستسقى إليك بعم نبيك العباس»(٢).

فقال العباس -رضي الله عنه-:

اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنبٍ، ولم يكشف إلا بتوبة، وقد توجه القوم بى إليك لمكانى من نبيك، وهذا أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث.

فنزل الماء من السماء مدراراً، وفتحت السماء فكانت أبوابًا.

وقد عمَّر العباس -رضي الله عنه- فعاش ثمان وثمانين سنة، وتوفى سنة اثنتين وثلاثين، وصلى عليه الخليفة عثمان بن عفان -رضي الله عنه-، ودفن بالبقيع - فرضى الله عن العباس وأرضاه، وجعل أعلى عليين مأواه.

---

(١) حديث صحيح. أخرجه البخارى (٣/ ٢٦٢)، ومسلم (٩٨٣)، وأبو داود (١٦٢٣)، والترمذى (٣٧٦٠)، والنسائى (٣/ ٣٣)، وأحمد (٢/ ٣٢٢).

(٢) حديث صحيح. أخرجه البخارى (٢/ ٤١٣)، والحاكم (٣/ ٣٣٤)، وطبقات ابن سعد (٤/ ٢٨، ٢٩).

زوجة العباس بن عبد المطلب

أم الفضل بنت الحارث

نسبها وإسلامها:

هى أم الفضل بنت الحارث بن حزن بن بُجير، الهلالية، عُرفت بكنيتها، واسمها: لُبابة.

وهى زوجة العباس عم النبى -ﷺ-، وأخت أم المؤمنين ميمونة، وخالة خالد بن الوليد، وأخت أسماء بنت عميس لأمها.

أسلمت مبكرًا جدًّا، ولذلك كان ابنها عبد الله يقول:

كنت أنا و أمى من المستضعفين من النساء والولدان، وكنت أنا وأمى ممن عذر الله تعالى[١].

فقد أسلمت قبل زوجها، وعجزت عن الهجرة لضعفها عن ذلك -رضي الله عنها-.

كرمها وجودها:

عُرفت أم الفضل بنت الحارث بالكرم، والجود، ومن ذلك ما رواه ابن عباس فقال: أفطر رسول الله -ﷺ- بعرفة، وأهدت له أم الفضل لبنًا فشرب بعرفة[٢].

(١) خبر صحيحٌ. أخرجه البخارى (٨/ ١٩٢).

(٢) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه عبد الرزاق (٧٨١٤)، وأحمد (٦/ ٣٣٨)، والترمذى (٧٤٧).

حمزة بن عبد المطلب

إنه البطل الضرغام، أسد الله.

إنه الشهيد القرشى، الهاشمى، البدرى.

هو حمزة بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصى، أبو عمارة القرشى.

لما أسلم حمزة -رضي الله عنه- علمت قريش أن الرسول عليه الصلاة والسلام صار فى حمايته، لذلك كفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه.

ولما كان يوم بدر، ودنا الناس من الرسول -ﷺ- إذا رجل منهم على جملٍ له أحمر يسير فى القوم، فقال رسول الله -ﷺ-:

«يا على، ناد لى حمزة» وكان أقربهم من المشركين، من صاحب الجمل الأحمر؟

وماذا يقول لهم؟

فجاء حمزة، فقال: هو عتبة بن ربيعة، وهو ينهى عن القتال.

فبرز عتبة وشيبة والوليد فقالوا: من يبارز؟ فخرج فتيةٌ من الأنصار، فقال عتبة: لا نريد هؤلاء، ولكن يبارزنا من بنى عمنا.

فقال رسول الله -ﷺ-: «قم يا على، قم يا حمزة، قم يا عبيدة بن الحارث»[1].

(١) حديث صحيح. أخرجه ابن سعد (٣/ ١ - ٦) فى طبقاته، والحاكم (٣/ ١٩٤) وصححه، وأبو داود (٢٦٦٥)، والبيهقى (٣/ ٢٧٦) فى سننه الكبرى، والبغوى (١١/ ٦٦) فى شرح السنة.

فبارز حمزةُ عتبة فقتله.

فكان شجاعًا مقدامًا، ولذا كان فى مقتله شدة ومصاب جللٍ على المؤمنين، سئل وحشىٌّ: كيف قتلت حمزة -رضي الله عنه-؟

فقال: كنت عبد جبير بن مطعم، وكـان عمه طعيمة بن عدى قتل يوم بدر، فقـال لى: إن قتلت حـمزة فأنت حـر، وكنت صاحب حربة أرمـى قلَّما أخطئ بها.

فخرجت مع الناس فلما التقوا، أخذت حربتى، وخرجت أنظر حمزة، حتى رأيته فى عرض الناس مثل الجمل الأورق[١] يهد الناس بسيفه هدًّا ما يُليق شيئًا.

فوالله إنى لأتهـيأ له إذ تقدمنى إليـه سباع بن عبـد العزى، فلما رآه حـمزة قال: هلم إلىَّ يا ابن مقطعة البظور[٢].

ثم ضربه حمزة، فـوالله لكأن ما أخطأ رأسه، ما رأيت شيـئًا قط كان أسرع من سقوط رأسه، فهـززت حربتى حتى إذا رضيت عنها، دفعتهـا عليه، فوقعت فى ثنته[٣]، حتى خرجت بين رجليـه. فوقع، فذهب لينوء[٤] فغُلب، فتـركته وإياها، حتـى إذا مات قمت إليـه، فأخـذت حربتى، ثم رجعت إلى الـعسكر، فقعدتُ فيه، ولم يكن لى حاجة بغيره.

فلمـا افتتـح رسول الله -ﷺ- مكة هربت إلى الطائف، فلمـا خرج وفـد الطائفَ ليسلموا، ضاقت علىَّ الأرض بما رحُبت.

---

(١) الأورق: الذى لونه بين الغبرة والسواد.

(٢) يقال ذلك لختانة النساء.

(٣) الثنته: أسفل البطن إلى العانة.

(٤) لينوء: ينهض متثاقلاً.

وقلت: ألحق بالشام، أو اليمن، أو بعض البلاد، فوالله إنى لفى ذلك من همى، إذ قال رجلٌ:

والله إن[١] يقتل محمدٌ أحدًا دخل فى دينه، فخرجت حتى قدمت المدينة على رسول الله -ﷺ-، فقال: «وحشى؟!» قلت: نعم.

قال: «اجلس.. اجلس.. فحدثنى كيف قتلت حمزة؟».

فحدثته، فقال: «ويحك غيب عنى وجهك فلا أرينك»[٢].

قال: فكنت أتنكب[٣] رسول الله -ﷺ- حيث كان، لئلا يرانى حتى قبضه الله.

فلما خرج المسلمون إلى مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة خرجت معهم، وأخذت حربتى التى قتلت بها حمزة، فلما التقى الناس رأيت مسيلمة الكذاب قائمًا فى يده السيف، وما أعرفه، فتهيأت له، وتهيأ له رجل من الأنصار من الناحية الأخرى، كلانا يريده، فهززت حربتى حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه، فوقعت فيه، وشد عليه الأنصارى فضربه بالسيف، فربك أعلم أينا قتله، فإن أنا قتلته فقد قتلت خير الناس بعد رسول الله -ﷺ-، وقتلت شر الناس.

وبعد مقتل أسد الله، وقف الرسول -ﷺ- عليه، وقد جُدِعَ ومُثِّل به،

---

(١) إن بمعنى «ما» النافية.

(٢) حديث صحيح. أخرجه البخارى (٤٠٧٢)، والطبرى (٢/ ٥١٦، ٥١٧) فى تاريخه، والبيهقى (٣/ ٢٤١، ٢٤٢) فى الدلائل وبنحوه عند ابن أبى شيبة (٨/ ٤٨٦) فى مصنفه، وابن سعد (٣/ ١٢) فى طبقاته.

(٣) أتنكب: أمشى خلفه، وأصل التنكب: التنحى والمجانبة، والعدول عن الأمر.

فقال: «لولا أن تجد صفية في نفسها، لتركته حتى يحشره الله من بطون السباع والطير» وكفن في نمرةٍ، إذا خُمِّر رأسه، بدت رجلاه، وإذا خمرت رجلاه بدا رأسه.

ولم يُصلِّ على أحدٍ من الشهداء، وقال: «أنا شهيدٌ عليكم»[1].

وكان يجمع الثلاثة في قبر، والاثنين، فيسأل: أيهما أكثر قرآنًا فيقدمه في اللحد، وكفن الرجلين والثلاثة في ثوبٍ.

وقد انتشر المسلمون بعد موقعة أحد يلتمسون قتلاهم، فلم يجدوا قتيلاً إلا وقد مثلوا به، إلا حنظلة بن أبي عامر، وكان أبوه عامر مع المشركين، فترك لأجله، وزعموا أن أباه وقف عليه قتيلاً، وقال: كنت واصلاً بالرحم برًّا بالوالد.

ووجدوا حمزة قد بقر بطنه، واحتمل وحشي كبده إلى هند في نذرٍ نذرته حين قتل أباها يوم بدر، فدفن في نمرة كانت عليه، إذا رُفعت إلى رأسه بدت قدماه، فغطوا قدميه بشيءٍ من الشجر[2].

وقد حزن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ حزنًا شديداً، لأنه رأى التمثيل بأجساد الشهداء، فإن هند بنت عتبة، والنسوة اللواتي كن معها قطعن الآذان، والأنوف حتى اتخذت من آذان الرجال وأنوفهم خلخالاً وقلائد، وأعطت قلائدها وخلخالها وقرطها إلى وحشي، وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها[3] فلم

---

(١) حديث حسن. أخرجه أبو داود (٣١٣٦)، والترمذي (١٠١٦)، وابن سعد (٣/ ١ ـ ٨)، وأحمد (٣/ ١٢٨)، والحاكم (٣/ ١٩٦) وصححه، وأقره الذهبي.

(٢) خبر صحيح. أخرجه ابن سعد (٣/ ١ ـ ٦)، والحاكم (٣/ ١٩٤) وصححه، وأقره الذهبي.

(٣) لاكتها: أي مضغتها بفمها كما تلوك اللقمة.

تستطع أن تسيغها[١] فلفظتها[٢] وأقبلت امرأة تسعى، حتى إذا كادت أن تشرف على القتلى كره النبى -ﷺ- أن تراهم، فقال: «المرأة.. المرأة.. المرأة».

قال الزبير -رضي الله عنه-: فتوسمت أنها أمى صفية، فخرجت أسعى إليها، فأدركتها قبل أن تنتهى إلى القتلى، فلدمت[٣] فى صدرها، كانت امرأة جلدة، قالت:

إليك لا أرض لك.

فقلت: إن رسول الله -ﷺ- عزم عليك، فوقفت وأخرجت ثوبين معها، فقالت: هذان ثوبان جئت بهما لأخى حمزة، فقد بلغنى مقتله، فلفوه فيهما.

فجئنا بالثوبين لنكفن فيهما حمزة، فإذا إلى جنبه رجل من الأنصار قتيل، قد فعل به كما فعل بحمزة، فوجدنا غضاضة وحياء أن نكفن حمزة فى ثوبين، والأنصارى لا كفن له فقلنا: لحمزة ثوب وللأنصارى ثوب، فقدرناهما فكان أحدهما أكبر من الآخر، فأقرعنا بينهما فكفنا كل واحد منهما فى الثوب الذى صار له[٤].

فلما كان أيام معاوية كتب إلى عامله بالمدينة أن يجرى عينًا إلى أحد فكتب إليه عامله: إنها لا تجرى إلا على قبور الشهداء.

---

(١) تسيغها: تقبلها وتبلعها.

(٢) لفظتها: طرحتها وألقتها.

والخبر فى تاريخ الطبرى (٢/ ٥٢٤، ٥٢٥)، والسيرة النبوية (٣/ ٥٠) برقم (١١٥٥)، بتحقيقى.

(٣) لدمت: ضربت صدرها.

(٤) حديث حسن. أخرجه أحمد (١/ ١٦٥)، والبيهقى (٤/ ٤٠١، ٤٠٢) فى سننه الكبرى.

فكتب إليه أن أنفذها، فأخرجوا الشهداء على أعناق الرجال كأنهم قوم نيام، حتى أصابت المسحاة[١] قدم حمزة فانبعث دمًا[٢] .

فرضي الله عن حمزة أسد الله وأرضاه، وجعل الله أعلى عليين مأواه.

❑❑❑

(١) المسحاة: المجرفة من الحديد.

(٢) صفة الصفوة (١/ ٣٧٧) لابن الجوزى.

فضل الحسن والحسين - رضي الله عنهما -

يقول الشيخ الشعراوى:

وقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «حسين منى ـ أى بضعة ونسبًا ـ وأنا من حسين» أى محبة وتقديراً وحسبًا، وفى قوله -ﷺ-: «الحسن والحسين سبطان من الأسباط» تنويه بشرفهما، وعظم مجدهما، وفى قوله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: «أحب الله من أحب حسينًا»: على أن الجملة خبرية، ـ أو دعائية ـ إفادة عظم الثمرة لمحبة الحسين -رضي الله عنه- فما أعظم محبة الله تعالى، وفيها الخير كله، ومن ذلك: الوقاية من شر الدنيا، وضررها، وفتنتها، وتيسير الصالحات، ومنها: حلمه، وعفوه، فقد جنى بعض مواليه جناية توجب التأديب، فأمر بتأديبه، فقال له: يا مولاى، قال الله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ فقال عليه رضوان الله تعالى: خلوا عنه، فقد كتمت غيظى، فتلا ذلك العبد الآية، المذكور فيها ذلك القول السابق، فعند ذكره قوله تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ قال الحسين ـ عطر الله مثواه ـ: قد عفوت عنك، فأتم العبد الآية: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. فقال الحسين -رضي الله عنه وأرضاه- للعبد: أنت حر لوجه الله تعالى.

وكان رضوان الله عليه يقاتل مع أبيه -رضي الله عنه- أصحاب الجمل، فجنود معاوية، فالخوارج، وينتقل ـ مع جيوش المسلمين ـ إلى أقطار الأرض، فى فتح أفريقية، وغزو قسطنطينية، وغيرهما.

يوم الطف ـ يوم كربلاء ـ وهو اليوم الذى استشهد فيه -رضي الله عنه- رفع يديه، فقال: اللهم أنت ثقتى فى كل كرب، ورجائى فى كل شدة، وأنت لى فى كل أمر نزل ثقة وعدة، كم من هم يضعف فيه الفؤاد، وتقل فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق، ويشمت فيه العدو، أنزلته بك، وشكوته إليك. رغبة منى إليك عمن

سواك، ففرجته، وكشفته، وكفيتنيه، فأنت ولى كل نعمة، وصاحب كل حسنة، ومنتهى كل رغبة.

والطف: هو الموضع الذى يعرف أيضًا بكربلاء، فى أرض العراق.

وألقاب الحسين كثيرة منها: الرشيد، الطيب، الزكى، الوفى، السيد، المبارك، السبط، التابع لمرضات الله، وأعلاها رتبة ما لقبه به -ﷺ- فى قوله عنه وعن أخيه «أنهما سيدا شباب أهل الجنة» وكذلك السبط فإن صح عن رسول الله -ﷺ- أنه قال: «حسين سبط من الأسباط» أى أمة من الأمم.

يقول الرسول -ﷺ-: «أحشر أنا والأنبياء فى صعيد واحد، فينادى معاشر الأنبياء، تفاخروا بالأولاد فأفتخر بولدى الحسن والحسين».

وعن حذيفة بن اليمان -رضي الله عنه- قال: رأيت رسول الله -ﷺ- آخذًا بيد الحسين بن على وهو يقول: «أيها الناس هذا حسين بن على بن يعقوب، هذا الحسين جده فى الجنة، وأبوه فى الجنة، وأمه فى الجنة، وعمه فى الجنة، وعمته فى الجنة، وخاله فى الجنة، وخالته فى الجنة، وأخوه فى الجنة، وهو فى الجنة».

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: كنا مع رسول الله -ﷺ-، وإذا بفاطمة -رضي الله عنها- قد أقبلت تبكى، فقال لها النبى -ﷺ-: «ما يبكيك؟ لا أبكى الله لك عينًا» فقالت: يا أبت، إن الحسن والحسين ليسقيان البستان، وقد استوحشت لهما، قال -ﷺ- لها: «اذهب فاطلبهما، وأنت يا سلمان» ولم يزل يوجه حتى مضت طائفة فى طلبهما، فرجعوا ولم يصيبوهما فقام النبى -ﷺ-، ووقف على باب المسجد وقال: «إلهى بحق إبراهيم خليلك، وبحق آدم صفوتك، إن كان قرتا عينى فى بر، أو بحر، أو سهل، أو جبل فاحفظهما وسلمهما لأمهما فاطمة سيدة نساء العالمين» فنزل الأمين جبريل وقال: «السلام عليك يا رسول

الله، الحق يقرئك السلام ويقول لك: لا تحزن ولا تغتم، الغلامان هما الفاضلان فى الدنيا والآخرة، وهما سيدا شباب أهل الجنة، وأنهما فى حديقة بنى النجار، وقد وكلت بهما ملكًا يحفظهما، إن قاما، أو قعدا، أو ناما، أو استيقظا!» ففرح النبى -ﷺ- فقام ومعه صحابته حتى دخل الحديقة، فوجدهما نائمين فجثا النبى -ﷺ- على ركبته، وانكب عليهما يقبلهما ويقول: «حبيبى، حبيبى» حتى استيقظا فحملهما النبى -ﷺ- على كتفيه، الحسن على عاتقه الأيمن، والحسين على عاتقه الأيسر، وكان يقول كلما قبلهما: «من أحبكما فقد أحبنى، ومن أبغضكما فقد أبغضنى» فقال أبو بكر -رضي الله عنه-: «أعطنى أحمل أحدهما يا رسول الله» قال: «نعم المطى مطيهما، ونعم الركبان هما» ولم يزل النبى -ﷺ- سائرًا حتى دخل المسجد، وبعث بهما إلى ابنته، ففرحت البوحة والهزة وتولاها السرور والحبور.

وقد كان الحسين ملء العين والقلب من خلق وفى أدب وسيرة، وكانت فيه مشابهة من جده وأبيه، إلا أنه كان فى شدته أقرب إلى أبيه. كان كثير الصوم والصلاة والحج، فقد حج خمسًا وعشرين حجة ماشيًا على قدميه، كان متواضعًا يجالس المساكين.

رُبى الحسين -رضي الله عنه- بين رسول الله -ﷺ- أفصح من نطق بالضاد، وأمير المؤمنين الإمام على الذى كان كلامه بعد كلام الرسول ـ عليه السلام ـ، وفاطمة الزهراء التى تفرغ عن لسان أبيها -ﷺ- فلا غرو إن كان أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء.. وقد تعلم فى صباه العلم والأدب والفروسية.

□□□

الحسن والحسين ووصف النبى - ﷺ -

الرسول -ﷺ- أسوة والأسوة إنما تأتى فيما يمكن أن يصنعه المتأسى به، صفاته -ﷺ- الخلقية لا مجال لأحد أن يقول أتأسى بها لأنها هبة الله للإنسان إذن فالصفات الخلقية التى تكلم عنها الحديث إنما كانت مدخلاً ليعطينا الصورة حتى تقع التصورات كيف خلق ولو كانت صورة على الأشياء الأخرى حتى تقع التصورات المعنوية التى يمكن أن أحمل سلوكى عليها على شىء موضح فى الذهن ويستطيع الإنسان أن يجعل هذه الخلال قائمة إذن فالصفة الخلقية لا دخل لنا بالأسس فيها أبدًا ولا يمكن أن نقول: واحد تأسى برسول الله أن يكون طويلاً قصيرًا أو إلى آخره ولكن الأسوة الحقيقية هى ما يصدر عن هذه الذات ولو أن صفاته الخلقية التى يمكن أن تكون للأسوة فيها مجال.

«ورسول الله -ﷺ- مهمته عن ربه البيان، كان أول شىء انتقل إليه الحسن فى سؤال هند بن أبى هالة قال صف لى منطقه فأعطاه هند بن أبى هالة صورة عن منطقه فقال كان -ﷺ- متواصل الأحزان يعنى أنه كان يحزن للمهمة التى كان يقوم بها. يفسره الحق فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿**فلعلك باخع نفسك على آثارهم**﴾ [الكهف:٦] حينما يجد انصرافًا عن الدعوة وهى دعوى متضحة فى ذهنه وفطرته وبتكوينه يعجب أن هؤلاء لا يؤمنون بها فهو يحزن لهم، لا يحزن لأمر يتعلق به هو ولذلك يجب أن نلتفت جيدًا إلى أن الحزن من رسول الله -ﷺ- إنما يؤخذ أن الحزن كان لأمر يتعلق بشىء يناله ولكن الفهم إنما يتعلق بشىء ينال الآخرين، وهذا يدل على حرصه -ﷺ- فإذا أنا حزنت مثلاً لأن ابنى لا يلتفت إلى واجبه أو لأن من أحب لا يصنع كذا فهو لا يعتبر حزنًا لأنه عائد على وإنما هو حزن على من يحزن عليه لا على نفسه. فقال عنه كان

متواصل الأحزان دائم الفكرة، لأن فكره يستلزم ذلك كيف يقاضى هؤلاء كيف منهج الدعوة ماذا يصنع فى أتباعه المضطهدين ماذا يصنع فى القوم يتكالبون على الضعفاء يريدون أن يفتنوهم عن دينهم.

وبعد ذلك يقول وكان طويل السكوت ثم يفصح عن كلامه -ﷺ- فقال يفتح الكلام ويختمه بأشداقه يعنى لا يتكلم من طرف أنفه إنما كلامه يملأ فمه حتى يأتى من هذا الشدق قلنا سابقًا وبعد ذلك يتكلم بجوامع الكلم ومعنى جوامع الكلم، الكلمة الواحدة الموجزة تحمل المعانى الكثيرة لأنه عنده الإعجاز ومادام عنده الإعجاز فيستطيع أن يضم كثيراً من المعانى فى اللفظة الموحى اللفظ المعبر يقول القول فضلاً لا فضول فيه عن المطلوب لا زيادة فيه عن المطلوب يعنى لا فضل عن مطلوب ولا تقصير فيه عن المطلوب وبعد ذلك يقول كان دمثًا ومعنى دمثًا كان لين الخلق يأتى إليه من ينظر إليه ويلقاه يأنس إليه من يتحدث إليه يقول لا يذم ذواقًا ولا يمدحه لا يذمه لأنه نعمة ولماذا لا يمدحه؟ لأنه إذا مدح أى طعام ربما كان تعريضًا لأن الطعام الآخر الذى لم يمدحه مكروه فلا يذم ذواقًا ولا يمدحه لا يقام لغضبه إذا تعرض للحق بشىء حتى ينتصر له ولكنه كان لا يغضب لنفسه ولا يستفزه شىء.

وبعد ذلك يتكلم لا عن حالته الأدبية حتى يتكلم فيقول إذا أشار أشار بكفه كلها ولا يشير بالأصبع على عادة الناس جميعهم فإن وقفوا عليه لماذا إذن أشار بكفه كلها؛ فكأنه ادخر السبحة للتوحيد فقط فيشير بكفه كلها وإذا تعجب من أمر قلبها أى صار يقلب كفيه وإذا تحدث اتصل بها ومعنى اتصل بها أن يضرب بإبهام اليمنى راحته اليسرى وإذا أغضب أعرض وأشاح بمعنى إذا غضب أعرض وأشاح.

وأنه رءوف حتـى فى حالة غضـبه لا يريد أن يرى مـن أغضبـه شكله وهو غضبان، وإذا فرح غض طرفه، جل ضحكه التبسم لا يقهقه ويفتر عن مثل حب الغمام ذلك كان منطقه -ﷺ-.

فاستدل على دقة التوثيق فى كل ما نقل وينتهى هنا كلام الحسن رضوان الله عليه، ثم ينقل الكلام أخوه الحسين الحديث قال الحـسن فى بقية الحديث فكتمتها عن الحسين، ثم حدثته بها فوجـدته قد سبقنى إليه فسأل أباه عليًّا وليس هند بن أبى هالة وعلى هو من هو أداء وبيانًا وحبًّا واستقبالاً لصفات رسول الله -ﷺ- فسألته عن مدخل رسول الله -ﷺ- ومخرجه ومجلسه وشكله وكل شىء يتعلق به، فلم يدع من ذلك شيئًا.

الرواية هنا للحسين: قـال الحسين سألت أبى عليًّا عن دخول رسول الله -ﷺ- فقال كان دخوله -ﷺ- لنفسه مأذونًا له فى ذلك يعنى تميز رسول الله -ﷺ- بأنه كان إذا دخل على قـوم لا يستأذن لماذا؟ عنده الإشراقـيات وعنده نور يعرف أنه لا يدخل على إنسان وهو فى حالة لا يجب أن يراه رسول الله -ﷺ- وهو عليها ما مـعنى الاستئذان؟ معناه أن لا أقتحـم على أحد حجابه لماذا؟ لأنه ربما كان فى وضع لا يحب هو أن أراه عليه ولكن رسول الله -ﷺ- لإشراقياته يعرف أنه حين يدخل لا يكون من دخل عليه فى حال يجب أن يستر عن رسول الله -ﷺ-، ولأن الرسول -ﷺ- أولى بالمؤمنين من أنفسـهم، هب أن رسول الله -ﷺ- دخل فوجدنى على مـا عليه، هو أولى من نفسى ألم أطلع أنا على الشىء فى نفسى؟ أطلعت عليه الرسول -ﷺ- أولى بنفسى منى نعم كان دخوله لنفسه مأذونًا له فى ذلك وكان إذا آوى إلـى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء، جزءاً لله وهذا هو المعين الذى يتلقى منه الكمالات وجزءاً لأهله وجـزءاً لخاصة نفسه، فإذا ما نظرنا إلى هذا الجزء الخاص بنفسه مـاذا كان يصنع فيه؟ جزء جزأه الخاص

بنفسه بينه وبين أمته، فيرد ذلك على العامة بالخاصة الذين يذهبون إليه، يلتفون به يقول لهم فى هذا الجزء من خاصته نفسه ما ينقلونه إلى العامة لأنه ليس من المعقول أن عامة المسلمين كلهم يذهبون إلى بيت رسول الله -ﷺ- أو المكان الضيق الذى يذهب إليه فكان يرد ذلك على العامة بالخاصة وكان سيرته فى جزء الأمة إيساع أهل الفضل بإذنه يعنى يأذن لهم فى الدخول عليه وقسمته للوقت كأن كل واحد كان لمقامه من رسول الله -ﷺ- تقديم أو إعطاء وقت زائد على قدر فضلهم فى الدين فينظر لذى الحاجة حاجة واحدة يقضيها وينتهى منها وينظر للحاجتين وينظر للحوائج إذن فكان رسول الله -ﷺ- يجعل مقاييس الإذن وطول المدة معه أو طول الحديث معه يتحكم فيه منزلة الرجل من الدين ومادام المتحكم فيه منزلة الرجل من الدين فيكون لحاكمه أن يكون المقياس مقياسًا دينيًّا ليس مقياسًا لأنه ينافقنى أو يغشنى أو غير ذلك على مقدار حظه من دين الله يأخذ الإذن من رسول الله -ﷺ- ويأخذ قمته ينظر ذا الحاجة وينظر الحوائج، ثم بعد ذلك يتشاغل بهم يعنى لا يكونون معه ويسرح بعيدًا عنهم، وإنما يتشاغل بهم ويشغلهم بما يصلحهم، والأمة من مسألته عنهم وحينما يدخل يسأل الإنسان عن حال نفسه وهذه عملية نفسية لماذا؟ لأن الإنسان الذى يجىء عندك إذا كان عنده شىء من مشاغله الخاصة مشاغل لا يحسن استقبال ما تقول، ورسول الله -ﷺ- يريدهم أدوات استقبال.

الفرصة التى يجلسون معه فيها ينقلون إلى الناس شيئًا فإذا كانت هناك أمور تشغله فى خاصة نفسه ربما شغلته هذه الأمور أو ربما أخذت هذه الأمور كل فكره الذى يجب أن يستوعب عن رسول الله -ﷺ- من مسألته عنه وإخبارهم بالذى ينبغى لهم ينصت جيدًا ثم بعد ذلك ثمن الإذن عليه بثمن القسمة الزمنية التى يعطيها يطلب منهم أن يؤدوا مطلوبات هذه القسمة وهذا الإذن لماذا؟ يقول

ليبلغ الشاهد منكم الغائب وأبلغونى حاجة من لا يستطيع إبلاغ حاجته إذن، هذا يعطينا الدرس على أن الذين تكون لهم أسباب إلى السلطان أو أسباب إلى الحاكم أو أسباب إلى الوالى يكونون رسل خير وسفارة للناس الذين لا يستطيعون أن يأتوا إلى الوالى ولا إلى حضرته ليسمعوا عنه، ليبلغ الشاهد منكم الغائب، وأبلغونى حاجة من لا يستطيع إبلاغ حاجته ثم يعلم الحكم. فإنه من أبلغ سلطانًا حاجة من لا يستطيع إبلاغه ثبت الله قدميه يوم القيامة.

معنى ذلك أنه يعطى الأسوة المطلوبة فى أن يقوم الذين يحظون بآذان الحاكمين أو يحظون بمجالس الحاكمين أن يكونوا وسائل خير عندهم لمن لم يستطع أن يصل إلى ذلك المكان والثمن أن يثبت الله قدميه يوم القيامة قال فى رواية سفيان بن وكيع يدخلون روادًا أى يتطلبون الدخول لقصد الدخول، وإنما يتطلبون إلا ذوقًا ويخرجون أدلة يعنى الفقهاء.

الدخول ليكونوا رواد خير عالمين للناس ولا يتفرقون كل واحد منهم يستطيع أن ينقل ما سمعه عن رسول الله -ﷺ- وأن يقول ما فقهه عنه وبذلك تنتشر دعوته -ﷺ- عند من لم يحضر مجلسه بواسطة من حضر هذه المجالس.

قال الحسين: فسألته عن خروجه كيف كان يضع معه؟ -ﷺ- فقال: كان -ﷺ- يخزن لسانه إلا فيما ينفعهم ويؤلفهم ولا يفرقهم إلى حال معنى يجلس أنه كان قائمًا ومعنى يقوم أنه كان جالسًا إذن الرسول -ﷺ- بين قائم وجالس فإذا كان رسول الله -ﷺ- لا يجلس ولا يقوم يعنى إنه حين يكون فى أمر وينتقل إلى أمر آخر يذكر الحق سبحانه وتعالى ومعنى يذكر الحق سبحانه وتعالى أن يكون الذى صرفه عن القيام إلى الجلوس أمر يتعلق بالله والذى صرفه من الجلوس إلى القيام أمر يتعلق بالله مادام الله على ذكره. حين يقوم ومادام الله

على ذكره حين يجلس إذن يكون كل أموره دائمًا على ذكر للحق سبحانه وتعالى.

لا يوطن الأماكن وينهى من إيطانها يعنى ليس له مكان مخصوص يجلس فيه فكان إذا انتهى إلى قوم جلس هو -ﷺ- حيث ينتهى به المجلس فإذا كان الرسول حين يذهب إلى قوم يجلس حيث ينتهى به المجلس فيكون قدوة لئلا يكون هناك واحد يأخذ له مكانًا خاصًا بحيث يحفظ له إن كان غائبًا أو يقوم غيره عنه إن أقبل عليه. يعطى جلسائه نصيبه حتى لا يحسب أحد أن أحدًا أكرم عليه منه تلك هى عدالة الرعاية لا ينفرد بحديثه ولا بعينه ولا بإذنه إلى واحد دون الآخر بل يوزع هذه القوة على الجميع بالتسوية لماذا؟ لأنه إذا اتجه إلى إنسان ولم يتجه إلى آخر هذا الإنسان ربما أخذ منزلة الرسول -ﷺ- يكون معصومًا لكن حين يكون هو أسوة ليعلمنا أن الحاكم لا يصح عندما يأتيه أناس يوزع عنايته ورعايته على واحد خاص بل يجب عليه ماداموا أهلاً لأن يدخلوا عليه مجلسًا ويجلسوا عنده يجب عليه أن يوزع نظره وأذنه وتحيته إن حيَّ ويوزع كلامه إن تكلم على الجميع حتى لا يعرف أحد أن فلانًا خير منه عند رسول الله -ﷺ- لماذا؟ لأن المقاييس كما قلنا هى المقاييس الإيمانية أفضلهم عنده كما قلنا أعمهم نصيحة وأشدهم عنده منزلة أحسنهم مؤاساة ومؤازرة وأيضًا فإن الحسين -رضي الله عنه- حينما تكلم عن رسول الله -ﷺ- فى هذه المسألة زاد أمرًا آخر بعدما قال: يعطى كل جلسائه نصيبًا من جالسه أو قاومه لحاجة يعنى أخذ رسول الله -ﷺ- وجلس معه ليتكلم فى حاجة قاومه أى إذا أخذه وهو قائم صابره حتى يكون هو المنصرف عنه إذًا الإذن لمن؟ الإذن ليس له، إنهاء المقابلة ليس له وإنما هو لمن يجالسه أو لمن يقاومه من جالسه أو قاومه لحاجة صابرة حتى يكون هو المنصرف عنه، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول قد وسع

الناس بسطه وخلقه فصار لهم أبًا وصاروا عنده فى الحق سواء مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة لا ترفع عنده الأصوات ولا تؤمن فيه الحرم ولا تنسى فلتاته، هب أن واحدًا قال كلمة لا تليق فيه فلا يلتفت إليها الرسول -ﷺ-، بل تنسى كأنها لم تحدث. فمن كان موجودًا قام من مجلس رسول الله إلى غيره فكأنها لم تحدث. قال الحسين أيضًا فى روايته عن أبيه أن رسول الله -ﷺ- كان دائم البشر لين الجانب سهل الخلق هذه صفاته العامة وبعد ذلك قال يتغافل عما لا يشتهى يعنى شىء حدث أمامه وهو لا يشتهيه يتغافل وكأنه لم يره لأنه مقدر.

وقد ترك نفسه من ثلاث من الرياء ومن الأجفار وما لا يعنيه وترك الناس من ثلاث لا يذم أحدًا ولا يعيره ولا يطلب عورته ولا يتكلم -ﷺ- إلا فيما يرجو ثوابه ليس عنده فضول ما يبدو له أن هذه الكلمة تزيده ثوابًا يتكلم به وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأن على رءوسهم الطير، ومعنى يخزم لسانه يعنى لا عذر عنده فى الكلام لا يتكلم إلا فى الموضوع الذى يعلم أنه يؤلف القوم ويعنى هؤلاء القوم وكان يكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم، لأن معنى كريم كل قوم هو الذى يجد عنده القوم راحتهم فى ذوات نفوسهم وفى ذات أيديهم الضيقة مادام إنسان خصاله الكريمة متعدية إلى الغير وما عنده من خير الله متعد إلى الغير فمثل هذا يؤتمن أن يكون واليًا على هؤلاء وأنه إذا كان قد تعدي منه الخير وهو غير وال هذا يطمئن على أنه إن ولى الأمر على القوم فلن يأخذ شيئًا لنفسه فيستعين بذلك على أن يكرم كريم كل قوم، لأنه يستحق أن يكرم وبعد ذلك يوليه عليهم وبعد ذلك قال يحذر الناس من غير أن يمنع عن أحد بشره وخلقه يعنى فطن يعرف حين يتكلم الإنسان يزنه بميزان الاحترام بالميزان الحذر، لأن الرسول -ﷺ- كان عرضة ليدخل عليه المنافقون ويدخل عليه من يدس عليه فكان -ﷺ- يحذر نفسه لكن هذا الحذر لا يتعدى إلى انفعاله إلى الغير من غير

أن يلوى عن أحد بشره وخلقه، يتفقد أصحابه ومعناه أنه إذا غاب واحد سأل عنه أين فلان ولماذا؟ مريض فى حاجته فى أى شىء؟ وهذه تدل على حسن رعايته لأصحابه -ﷺ- وإذا ما نظرنا إلى أن مجرد سؤال القائد مجرد سؤال يعنى صاحب الجاه عن إنسان تردد عليه ثم انقطع هذا يعطيه معنوية فى ذاته يعطيه أنه مسئول يعطيه أنه إذا غاب افتقد هذا كله لصالح أمر الدعوة فيتفقد أصحابه ويسأل الناس عما فى الناس لأنه ربما كان إنسانًا عنده حياء لا يستطيع أن ينقل إلى رسول الله -ﷺ- ذات نفسه أو ظروفه الخاصة فيسأله فلانًا عن حال فلان ربما كان يستحى أن يقول الرسول شيئًا يحسن الحسن ويصوبه ويقبح القبيح ويهذبه معتدل الأمر لا يختلف لا يغفل مخافة أن يفعلوا أو يميلوا لا يغفل عن شىء مخافة أن تكون فيه أسوة للفضيلة وهذه تعطينا قاعدة أن الوالى أو الذى يتولى صدارة شىء لابد أن يحاسب الغير، لأنه إن أغفل من له الولاية على الأمر فى شىء يكون التابع فى شيئين وتابع التابع فى ثلاث وتابع التابع يكون فى أربعة إذًا فالعصمة تأتى من أن يكون من بيده الأمر الأعلى لا يغفل عن شىء حتى لا يستقله من هو دونه ليفعل فعله وإذا ما نظرنا إلى المفاسد التى أتت فى أى جهات أو أى إدارة نجد أن المرءوسين أو المتبوعين يجربون على الرئيس الأعلى شيئًا من النقص أو شيئًا من التهاون أو شيئًا من عدم الدقة والاحتياط فى الأمور وبعد ذلك يقولون هم كما يحبون ومن هنا ينشأ الفساد.

لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا لكل حال عنده عتاد لكل حال من الأحوال عنده قوة وميزان يعطى الحال على قدر حجمه لا يتجاوز الحق ولا يقصر عنه الذين يلونه من الناس خيارهم يلونه من الناس أى فى مجلس حتى فى المجلس خيارهم وأفضلهم عندهم أعمهم نصيحة، يعنى الذى إذا جلس معه ينصحه يقول لهذا كذا ولذلك كذا وليس الذى يغشه لكن إذا نظرنا فى مقاييس الإنسان الحكم الفاشل أو الإدارات الفاسدة نجد الذين يلون الناس من الناس هم

الذين ينافقونهم هم الذين يداهنونهم الذين يحسنون لهم القبيح هم الذين يقبحون لهم الحسن هم الذين يستطيعون أن ينقلوا إلى أذن الوالى أو الحاكم أو الرئيس أشياء غير واقعة لأغراض عندهم لا الذين يلونه من الناس خيارهم وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة ومعنى أعمهم نصيحة هو الذى ينصح فى كل أمر يرى فيه وجهة الخير لصالح منهج الدعوة وبعد ذلك يتكلم سيدنا الحسين عن شىء آخر يتعلق بمجلس الرسول -ﷺ-، لأن معنى لا يجلس هنا يعنى ينتقل من حال الطير هذه كناية عن أنه لما تكون جماعة على رءوسهم الطير يخاف الواحد أن يميل رأسه أو يغفل شيئًا خوفًا من الطير كأن على رءوسهم الطير فإذا سكت تكلموا هذا أدبهم مع حديثه -ﷺ- ويتكلم بعد ذلك عن أدبهم وعن حديث إخوانهم. حديثهم حديث أولهم. يعنى بالدور لما يتكلم أحد لا يقاطعه الآخرون.

فإذا تكلم عنده إنسان لا يقطعون عليه كلامه حتى يفرغ فإذا فرغ تكلموا بعد، ومعنى ذلك لا يتعالى عليه رسول الله -ﷺ- وهو فى المكانة العالية الخاصة به. يعجب مما يعجبون منه ويضحك مما يضحكون منه ويصبر للغريب على الجفوة فى المنطق يعنى واحداً لا يعرف قدر رسول الله -ﷺ- وبعد ذلك لو اشتد فى منطقة كان يتلطف معه ويصبر عليه حتى إن بعض أصحابه كانت أمثال هذه المسائل قد تغضبه وتضايقه وتجعله يقول ما يقول.

ولذلك النبى -ﷺ- حين جاء الرجل وطلب منه شيئًا فأعطاه رسول الله شيئًا وأعطاه ما عنده فقال له: «يا أخا العرب أأحسنت إليك وأجملت» وأخذ يقول للرسول -ﷺ- لا أحسنت ولا أجملت ماذا يكون موقف صحابة رسول الله -ﷺ- فقاموا عليه، فقال لهم «دعوه» ثم أخذه بيده ودخل البيت وزاده خيراً بما عنده فى بيته. فقال له: «قل يا أخا العرب أأحسنت وأجملت» قال

الأعرابى: نعم أحسنت وأجملت فبورك فيك من أهل وعشيرة قال: «إذن نحن إذا خرجنا إلى أصحابى فقل عندهم ما قلته لى حتى ترضى خواطرهم»، فلما خرجوا قال رسول الله -ﷺ-: «لقد قال أخى كذا وكذا» فقال الرجل: نعم فلما هدأ قال رسول الله -ﷺ-: «إنما مثلى ومثل هذا كمثل رجل له ناقة شردت منه فتبعها أصحابه فزادوها نفوراً. فقال الرجل للقوم يا قومى دعونى وناقتى فأنا أعلم بأمرها فسكتوا ثم أخذ يطلب شيئًا من الأرض ويمده إلى الناقة هكذا فجاءت الناقة لتأخذ ما فى يده حتى أناخها وامتطاها فمثلى ومثل هذا كمثل الرجل وناقته، ولو أنكم كنتم جئتم فقتلتموه أو صنعتم معه شيئًا لدخلتم النار» هذا هو موقفه -ﷺ- من أنه يصبر للغريب فى المنطق على الجفوة وبعد ذلك يقول الحسين -رضي الله عنه-: وكان لا يطلب الثناء إلا من مكافئ يعنى الذين يتطوعون بالمديح لا يقبل منهم أنها كلمة ثناء تقال ردًّا على موقف يجزيك خيراً لأنه صنع كذا ويقبله، لا يقبل التطوع بالثناء ويقبله من مكافئ على جميل قدمه رسول الله -ﷺ- وبعد ذلك يقول: وكان لا يقطع على أحد حديثه حتى يجوزه هو فيقطعه بانتهاء أو بقيام وهنا انتهى الحديث إلا أن حديث وكيع بن أبى سفيان زاد شيئًا: أنه سأله عن سكوته -ﷺ- ومنطق الأشياء ومادام قد سأله عن منطقه ولابد أن يكون قد سأله عن سكوته ومادام قد سأل عن المدخل فيكون سأل عن المخرج المتقابلان إذن فهذه التتمة كانت ضرورية فى رواية سفيان بن وكيع فقال: جمع له -ﷺ- السكوت فى أربع فى الحلم والحزم والتقدير والتفكر: أما التقدير كما قلنا سابقًا ففى تسويته النظر والاستماع بين جلسائه، وأما التفكر ففيما يبقى وفيما يفنى وجمع له الحلم فى الصبر فكان لا يغضبه شىء يستفزه فى ذاته، وجمع له فى الحذر أربع أخذه بالحسن ليقتدى به وتركه القبيح لينتهى عنه واجتهاد الرأى فيما أصلح الأمة والقيام لأمته بما جمع لهم أمر الدنيا والآخرة صلى الله عليه وعلى آله.

سيدا شباب أهل الجنة الحسن والحسين

«الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»(١) .

الحسن بن على بن أبى طالب، ريحانة رسول الله -ﷺ- وسبطه، أشبه الناس بالنبى -ﷺ- خلقًا، وحج كثيرًا ماشيًا من المدينة إلى مكة، وقيل: إنه حج خمس عشرة مرة.

كان الحسن عاقلاً، رزينًا، جوادًا، خيرًا، دينًا، ورعًا، كبير الشأن. سمع الحسن بن على رجلاً إلى جنبه يسأل الله أن يرزقه عشرة آلاف درهم، فانصرف فبعث بها إليه.

ومن مناقبه -رضي الله عنه-: أن أبا بكرة -رضي الله عنه- قال: رأيت رسول الله -ﷺ- على المنبر، والحسن بن على إلى جنبه، وهو يقبل على الناس مرة، وعليه أخرى، ويقول:

---

(١) صحيح. أخرجه أحمد (٣/٣، ٦٢، ٦٤، ٨٤)، وأبو نعيم (٥/ ٧١) فى الحلية، والطبرانى (٢٦١٠)، (٢٦١٢) فى الكبير، والحاكم (٣/١٦٦، ١٦٧)، والخطيب فى تاريخه (٤/ ٢٠٧)، (١١/ ٩٠) كلهم من حديث أبى سعيد.

* أخرجه أحمد (٥/ ٣٠٩١)، والترمذى (٣٧٨١)، والحاكم (٣/ ١٥١) وصححه، وأقره الذهبى، وابن حبان (٢٢٢٩)، والخطيب (٦/ ٣٧٢) فى تاريخه، كلهم من حديث حذيفة بن اليمان.

* أخرجه الحاكم (٣/ ١٦٧) وصححه، وأقره الذهبى، من حديث عبد الله بن مسعود.

* أخرجه الطبرانى (٢٦١٨) فى الكبير، من حديث أسامة بن زيد.

* أخرجه ابن حبان (٢٢٣٦)، من حديث جابر بن عبد الله.

* أخرجه أبو نعيم (٤/ ١٣٩، ١٤٠) فى الحلية، من حديث عمر.

* أخرجه الخطيب فى تاريخه (١/ ١٤٠) من حديث على.

* وله طرق أخرى عن قرة بن إياس، ومالك بن الحويرث، والبراء كما فى مجمع الزوائد (٩/ ١٨٢).

«إن ابنى هذا سيـدٌ، ولعل الله أن يصلح به بين فـئـتيـن عظيمـتين، من المسلمين»[١] .

السيد: هو الذى لا يغلبه غضبـه، وهو الذى يفوق قومه فى الخير، وحدث ما تنـبأ به -ﷺ-، فقـد حدث أن الحسن بن على ترك الخلافة حيـن صارت الخلافة إليه خـوفًا من الفتنة، وكراهة لإراقة دمـاء المسلمين فأصلح الله بين أهل العراق، وأهل الشام، وسمى ذلك العام سنة الجماعة.

ويكفى الحسن بهذا العمل منقبة، ومفخرة بين أقرانه، وفجأة يرقد الحسن فى فراشه يعانى من بطنه، فـيدخل عليه عُمير بن إسحاق ورجلٌ، فـيقول: يا فلان سلنى، فيقول له عمير: لا، والله، لا نسألك حتى يُعافيك الله.

قال: ثم دخل، ثم خرج إلينا فقال: سلنى قبل ألا تسألنى.

قال: بل يعافيك الله عز وجل.

قال الحسن: لقد ألقيت طائفة من كـبدى، وإنى سُقيت السم مرارًا فلم أسق مثل هذه المرة.

قال عميـر: ثم دخلت عليه من الغد، وهو يجود فى نفسـه، والحسين عند رأسه، قال: يا أخى من تتهم؟

قال: لم؟ لتقتله؟ قال: نعم.

قال: إن يكن الذى أظن فالله أشد بأسًا، وأشد تنكيلاً، وإلا يكن فما أُحبُّ أن يقتل بى برىء. ثم قضى الله عنه.

(١) البـخارى (٢٧٠٤)، (٣٦٢٩)، (٣٧٤٦)، (٧١٠٩)، وأبـو داود (٤٦٦٢)، والترمـذى (٣٧٧٥)، والنسائى (٣/ ١٠٧).

وهكذا قضى الحسن شهيدًا، ولم يشأ أن تقع بين المسلمين بعد موته فتنة، كما أوقف في حياته فتنة بين المسلمين.

وما إن سمع أبو هريرة بموت الحسن إلا جاء إلى مسجد رسول الله -ﷺ-، ووقف يبكي، وينادي بأعلى صوته: يا أيها الناس، مات اليوم حبُّ رسول الله -ﷺ-، فابكوا، وكأن أبا هريرة أراد أن يذكرنا بقول الرسول -ﷺ-:

«اللهم إني أحبه فأحبه، وأحب من يحبه»[١].

ومن كلمات الحسن الطيبة التي تصور لنا منهجه في الحفاظ على دماء الأمة قوله الطيب، الذي قاله عندما سئل لما قَبِل الصلح؟ قال:

إن أكيس الكَيْس[٢] التقي، وإن أحمق الحمق الفجور، ألا وإن هذه الأمور التي اختلفت فيها أنا ومعاوية، تركت لمعاوية إرادة إصلاح المسلمين، وحقن دمائهم.

فرحم الله أبا محمد، وجزاه خير الجزاء عما حقن به دماء المسلمين ورفع درجته في أعلى عليين.

وقد كان هذا الإمام سيدًا، وسيمًا، جميلاً، عاقلاً، رزينًا، جوادًا، ممدحًا، خيِّرًا، دينًا، ورعًا، محتشمًا، كبير الشأن. وكان منكاحًا، مطلاقًا، تزوج نحوًا من سبعين امرأة، وقلما كان يفارقه أربع ضرائر.

عن جعفر الصادق، أن عليًّا قال: يا أهل الكوفة! لا تزوجوا الحسن، فإنه مطلاق، فقال رجلٌ: والله لنُزَوجنَّه، فما رضي أمسك، وما كَرِه طلق.

---

(١) البخاري (٣٧٤٩)، ومسلم (٢٤٤٢)، واختصرا على الجزء الأول، وأخرجه كاملاً، أحمد (٢/ ٢٤٩، ٣٣١)، والترمذي (٣٧٨٢) وصححه.

(٢) الكيس: العاقل النبيه الذكي.

قال ابن سيرين: تزوج الحسن امرأة، فأرسل إليها بمائة جارية، مع كل جارية ألف درهم[(١)] .

وكان يعطى الرجل الواحد مائة ألف.

وقيل: إنه حج خمس عشرة مرة، وحج كثيرًا منها ماشيًا من المدينة إلى مكة، ونجائبه تقاد معه.

❑❑❑

(١) «حلية الأولياء» (٢/ ٣٨).

استخلاف الحسن بن على

فى آخر لحظات أبى تراب على -رضي الله عنه-، وهو يودع الدنيا، قالوا له: استخلف يا أمير المؤمنين، فقال: لا، ولكن أدعكم كما ترككم رسول الله -ﷺ- يعنى بغير استخلاف ـ فإن يرد الله بكم خيراً يجمعكم على خيركم، كما جمعكم على خيركم بعد رسول الله -ﷺ-.

فلما توفى -رضي الله عنه- صلى عليه ابنه الحسن -رضي الله عنه-، ودفن كما مر بنا بدار الإمارة على الصحيح، وكان ذلك فى شهر رمضان سنة أربعين.

وهنا بايع الناس الحسن بن على -رضي الله عنه-، وكان أول من تقدم إلى المبايعة قيس بن سعد بن عبادة، فقال قيس للحسن: ابسط يدك أبايعك على كتاب الله، وسنة نبيه -ﷺ- فبايعه.

ثم توالى الناس أفواجًا، فوج بعد فوج على مبايعة الحسن بن على -رضي الله عنه- وفى هذا الوقت كان معاوية بن أبى سفيان على إمرة الشام ينظر إليه من أهل الشام كخليفة للمسلمين.

ألح أهل العراق على الحسن -رضي الله عنه- على مقاتلة أهل الشام، ولم يكن فى نية الحسن -رضي الله عنه- أن يقاتل أحدًا، ولكن كثرة إلحاح أهل العراق، واجتماع الناس اجتماعًا عظيمًا لم يسمع بمثله.. من قبله جعله يدعو الناس إلى الخروج لقتال أهل الشام.

سار الحسن بن على -رضي الله عنه- بالجيوش قاصداً ديار الشام حتى نزل المدائن، وأمر قيس بن سعد على المقدمة فى اثنى عشر ألفًا، فبينما هو فى المدائن معسكراً بظاهرها، إذ نادى منادٍ:

أيها الناس.. ألا إن قيسًا قد قتل، فثار الناس، واختلفوا، وانتهب الغوغاء، فكرههم الحسن بن على -رضي الله عنه- كراهية شديدة.

وهنا اقترب رجل من الخوارج ـ قبحهم الله ـ وحاول طعن الحسن -رضي الله عنه- بخنجرٍ، فوثب الناس عليه فقتلوه، ونجا الحسن -رضي الله عنه-.

نزل الحسن بن على القصر الأبيض بالمدائن، وكان عامله على المدائن سعد ابن مسعود الثقفى، هنا تفكر الحسن فى حالة جيشه، وتفرقهم، وما هم عليه من حب الدنيا، فخلع نفسه لهذا، وقام فيهم خطيبًا قائلاً:

أيها الناس.. ما ثنانا عن أهل الشام شك ولا زيغ، لكن كنتم فى منتدبكم إلى صفين، ودينكم أمام دنياكم، فأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم[1].

وهكذا كانت الأحوال ترشح قيام الحسن -رضي الله عنه- بالدخول فى الصلح، وكذا كان حال معاوية -رضي الله عنه-.

فكلاهما فكر فى الصلح، وشرع فيه، وإن كان الفضل باديًا للحسن بن على -رضي الله عنه-.

ولعل أصح ما ورد فى المصالحة بينهما ما رواه الحسن البصرى ـ رحمه الله ـ، قال: استقبل ـ والله ـ الحسن بن علىٍّ معاوية بكتائبٍ أمثال الجبال، فقال عمرو ابن العاص: إنى لأرى كتائب[2] لا تولى[3] حتى تقتل أقرانها.

(١) انظر: تاريخ الطبرى (٥/ ١٥٩، ١٦٠)، الكامل (٣/ ٤٠٤)، لابن الأثير، تاريخ الإسلام (٥/ ٦) للذهبى، تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ٢٢٣) لابن بدران مقاتل الطالبيين (ص٦٣) للأصفهانى، البداية والنهاية (٨/ ١٧) لابن كثير.

(٢) الكتائب: جمع كتيبة، وهى طائفة من الجيش، والمراد الدلالة بأنها أمثال الجبال فى كثرتها وشدة بأسها.

(٣) أى لا تدبر حتى تقتل التى تقابلها.

فقال له معاوية: أى عمرو! إن قتل هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاء، من لى بأمور الناس؟! من لى بنسائهم؟! من لى بضيعتهم؟! من لى بذرارى المسلمين[١]؟!

فبعث ـ يعنى معاوية ـ إليه رجلين من قريش من بنى عبد شمس ـ عبد الرحمن بن سمرة، وعبد الله بن عامر ـ فقال: «اذهبا إلى هذا الرجل ـ يعنى الحسن بن على ـ فأعرضا عليه[٢] وقولا له[٣] ، واطلبا إليه[٤] » [٥] فأتياه، فتكلما وقالا له، وطلبا إليه، فقال لهما الحسن بن على:

إنا بنو عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال، وإن هذه الأمة قد عاثت فى دمائها.

قالا: فإنه يعرض عليك كذا وكذا، ويطلب إليك ويسألك.

قال: فمن لى بهذا؟! قالا: نحن لك به. فما سألهما شيئًا إلا قالا: نحن لك به. فصالحه[٦] .

ومن أهم ما اشترطه الحسن -رضي الله عنه- هو توليه الخلافة من بعده، ويبدو ذلك

---

(١) يريد معاوية -رضي الله عنه- من ذلك الإشارة إلى أن رجال المعسكرين معظم من فى الإقليمين، فإذا قتلوا ضاع أمر الناس، وفساد حال أهلهم بعدهم وذراريهم، والمراد «ضيعتهم» الأطفال والضعفاء سموا باسم ما يؤول إليه أمرهم لأنهم إذا تركوا ضاعوا لعدم استقلالهم بأمر المعاش.

(٢) فأعرضا عليه: أى ما شاء من الشروط.

(٣) قولا له: أى فى حقن دماء المسلمين بالصلح.

(٤) اطلبا إليه: أى اطلبا منه خلعه نفسه من الخلافة، وتسليم الأمر لمعاوية، وابذلا له فى مقابلة ذلك ما شاء.

(٥) هذا يدل على أن معاوية -رضي الله عنه- كان يرغب فى الصلح، وأنه عرض على الحسن الشروط التى يريدها، وحثه على رفع السيف.

(٦) خبر حسن. أخرجه البخارى (٢٧٠٤)، (٧١٠٩).

جليًّا مما رواه أبو بصرة ـ رحمه الله ـ، يقول: سمعت الحسن بن على يقول فى خطبته عند معاوية: إنى اشترطت على معاوية لنفسى الخلافة بعده[١] .

وبتمام هذا الصلح تمت النبوءة، يقول الحسن البصرى: سمعت أبا بكرة يقول: بينا النبى -ﷺ- يخطب، جاء الحسن بن على إلى جنبه، فرأيت رسول الله -ﷺ- على المنبر، وهو يقبل على الناس مرةً، وعليه أخرى، ويقول:

«إن ابنى هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[٢] .

ومن هذا الموقف نرى علمًا من أعلام نبوته -ﷺ- وقد تحقق، وفيه منقبة للحسن بن على -رضي الله عنه- فإنه ترك الملك لا لقلةٍ، ولا لذلةٍ، ولا لعلةٍ، بل لرغبته فيما عند الله لما رآه من حقن دماء المسلمين، فراعى أمر الدين ومصلحة الأمة.

وفى هذا الموقف الرد على الخوارج الذين كانوا يكفرون عليًّا -رضي الله عنه- ومن معه، ومعاوية -رضي الله عنه- ومن معه بشهادة النبى -ﷺ- للطائفتين بأنهما من المسلمين.

وفى هذا الموقف دلالة على رأفة معاوية -رضي الله عنه- بالرعية، وشفقته على المسلمين ونظره فى العواقب.

وفيه فضيلة الإصلاح بين الناس، ولاسيما فى حقن دماء المسلمين.

---

(١) خبر صحيح. أخرجه محمد بن قدامة فى «الخراج» بسند قوى كما فى الفتح (١٣/ ٦٥).

(٢) حديث صحيح. أخرجه البخارى (٢٧٠٤)، (٧١٠٩)، وأبو داود (٤٦٦٢)، والترمذى (٣٨٦٢)، والنسائى (٣/ ١٠٧)، وأحمد (٥/ ٣٧، ٥١)، والبيهقى (٦/ ٤٤٢) فى الدلائل، والبغوى (١٤/ ١٣٦) فى شرح السنة.

وفيه: ولاية المفضول الخلافة مع وجود الأفضل لأن الحسن ومعاوية ولى كل منهما الخلافة، وسعد بن أبى وقاص وسعيد بن زيد فى الحياة، وهما بدريان.

وفيه: جواز خلع الخليفة نفسه إذا رأى فى ذلك صلاحًا للمسلمين[1] .

وقد سميت سنة إحدى وأربعين عام الجماعة، لاجتماع الأمة على خليفة واحد وهو معاوية بن أبى سفيان -رضي الله عنه-.

وارتحل الحسن بن على -رضي الله عنه- عائدًا إلى المدينة النبوية، تاركًا الملك، زاهدًا، فى أبهة الخلافة، وظل فى المدينة إلى أن توفى فى سنة تسع وأربعين.

وهكذا نشأت دولة بنى أمية، وملكت تسعين سنة وأحد عشر شهرًا، وثلاثة عشر يومًا، وذلك ألف شهرٍ.

منها أيام الحسن بن على وهى خمسة أشهرٍ، وعشرة أيامٍ، وأيام ابن الزبير، وهى سبع سنين وعشرة أشهر وثلاثة أيام، فيكون خلاصة مدة حكمهما بعيداً عن أيام الحسن وابن الزبير ثلاثًا وثمانين سنة وأربعة أشهر.

□□□

---

(١) نقلاً عن الفتح (١٣/ ٦٧).

مواقف جليلة مع الحسن بن على

قال ابن عباس: ما ندمت على شىء فاتنى فى شبابى إلا أنى لم أحجَّ ماشيًا، ولقد حج الحسن بن على خمسًا وعشرين حجةً ماشيًا، وإنَّ النجائب لتقاد معه، ولقد قاسم الله ماله ثلاث مرات، حتى إنه يعطى الخف ويمسك النعل[١] .

ويروى أبو هارون قال: انطلقنا حجاجًا، فدخلنا المدينة، فدخلنا على الحسن، فحدثناه بمسيرنا وحالنا، فلما خرجنا، بعث إلى كل رجل منا بأربعمائة، فرجعنا، فأخبرناه بيسارنا، فقال: لا تردُّوا علىَّ معروفى، فلو كنت على غير هذه الحال، كان هذا لكم يسيراً، أما إنى مزودكم: إن الله يباهى ملائكته بعباده يوم عرفة[٢] .

وعن ابن عباس، قال: خرجنا إلى الجمل ستمائة، فأتينا الربذة، فقام الحسن فبكى، فقال على: تكلم ودع عنك أن تحن حنين الجارية، قال: إنى كنت أشرت عليك بالمقام، وأنا أُشيره الآن، إنَّ للعرب جولةً، ولو قد رجعت إليها عوازب أحلامها، قد ضربوا إليك آباط الإبل حتى يستخرجوك ولو كنت فى مثل جحر ضب، قال: أترانى لا أبالك كنت منتظراً كما ينتظر الضبع اللَّدمَ؟

اللدم: اللطم والضرب بشىء ثقيل يسمع وقعه، وكانوا إذا أرادوا صيد الضبع، يجيئون إلى جحرها فيضربون بحجر أو بأيديهم، فتحسبه شيئًا تصيده، فتخرج لتأخذه، فتصاد.

أراد: أى لا أخدع كما تخدع الضبع باللدم.

(١) حلية الأولياء (٢/ ٣٧)، تهذيب ابن عساكر (٤/ ٢١٦، ٢١٧).
(٢) تهذيب ابن عساكر (٤/ ٢١٨).

عن الشعبـى، قال: شهدت الحسن بن على حـين صالحه معـاوية بالنخيلة، فقال مـعاوية: قم فأخبـر الناس أنك تركت هذا الأمر وسلمته إلى فـقام الحسن فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أما بعد: فـإن أكيس الكيس التقى، وأحمق الحمق الفـجور، وإن هذا الأمر الذى اختلفت فيه أنا ومعاوية إمـا أن يكون حق امرئ فهو أحق به منى، وإما أن يكون حقًّا هو لى فقد تركـته إرادة إصلاح الأمة وحقن دمائـها، لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين.



أروع الكلام بين على والحسن

سأل على ابنه الحسن عن أشياء من أمر المروءة فقال:

يا بنى ما السداد؟ قال: يا أبت السداد دفع المنكر بالمعروف.

قال: فما الشرف؟ قال: اصطناع العشيرة، وحمل الجريرة.

قال: فما المروءة؟ قال: العفاف وإصلاح المال.

قال: فما الرأفة؟ قال: النظر فى اليسير ومنع الحقير.

قال: فما اللؤم؟ قال: إحراز المرء نفسه وبذله عرضه.

قال: فما السماح؟ قال: البذل فى العسر واليسر.

قال: فما الشح؟ قال: أن ترى ما فى يديك شرفًا، وما أنفقته تلفًا.

قال: فما الإخاء؟ قال: المواساة فى الشدة والرخاء.

قال: فما الجبن؟ قال: الجرأة على الصديق، والنكول عن العدو.

قال: فما الغنيمة؟ قال: الرغبة فى التقوى والزهادة فى الدنيا هى الغنيمة الباردة.

قال: فما الحلم؟ قال: كظم الغيظ وملك النفس.

قال: فما الغنى؟ قال: رضى النفس بما قسم الله تعالى لها وإن قل، وإنما الغنى غنى النفس.

قال: فما الفقر؟ قال: شره النفس فى كل شىء.

قال: فما المنعة؟ قال: شدة البأس ومنازعة أعزاء الناس.

قال: فما الذل؟ قال: الفزع عند المصدوقة.

قال: فما العى؟ قال: العبث باللحية وكثرة البزق عند المخاطبة.

قال: فما الجرأة؟ قال: موافقة الأقران.

قال: فما الكلفة؟ قال: كلامك فيما لا يعنيك.

قال: فما المجد؟ قال: أن تعطى فى الغرم وتعفو عن الجرم.

قال: فما العقل؟ قال: حفظ القلب كلما استوعيته.

قال: فما الخرق؟ قال: معاداتك إمامك ورفعك عليه كلامك.

قال: فما السناء؟ قال: إتيان الجميل وترك القبيح.

قال: فما الحزم؟ قال: طول الأناة والرفق بالولاة.

قال: فما السفه؟ قال: اتباع الدناة ومصاحبة الغواة.

قال: فما الغفلة؟ قال: تركك المجد وطاعتك المفسد.

قال: فما الحرمان؟ قال: تركك حظك وقد عرض عليك[1].

❑❑❑

(١) الحلية (٢/ ٣٦).

تواضع الحسن بن على

جاء رجل إلى الحسين فـاستعان به على حاجـة فوجده معتكفًـا فقال: لولا اعتكافى لخرجت معك فـقضيت حاجتك، ثم خرج من عنده فـأتى الحسن فذكر له حاجته فخرج معه لحاجته فذكر له قول أخيه الحسين فقال لقضاء حاجة أخ لى فى الله أحب إلى من اعتكاف شـهر. وكان فى الطواف فقـال له رجل وسأله أن يذهب معه فى حاجة فترك الطواف وذهب معه فلما ذهب خرج إليه رجل حاسد للرجل الذى ذهب معـه فقال: يا أبا محمـد! تركت الطواف وذهبت مع فلان، فقـال له الحسن: كيف لا أذهب معـه ورسول الله -ﷺ- قال: «من ذهب فى حاجة أخيه المسلم فقضيت كتبت له حجة وعمرة، وإن لم تقض كتبت له عمرة» فقد اكتسبت حجة وعمرة ورجعت إلى طوافى[1] .



وفاة الحسن بن على

لما احتضر الحسن بن على. قال: أخرجونى إلى الصحراء لعلى أنظر فى ملكوت السماء ـ يعنى الآيات ـ فلما أخرج به. قال: اللهم إنى احتسبت نفسى عندك فإنها أعز الأنفس على، فكان مما صنع الله ـ عز وجل ـ له أنه احتسب نفسه[١] .

وعن عمير بن إسحاق، قال: دخلنا على الحسن بن على نعوده، فقال لصاحبى: يا فلان! سلنى. ثم قام من عندنا، فدخل كنيفًا، ثم خرج، فقال: إنى والله قد لفظت طائفةً من كبدى قلبتها بعود، وإنى قد سقيت السم مراراً، فلم أسق مثل هذا، فلما كان الغدُ أتيته وهو يسوق، فجاء الحسين، فقال: أى أخى! أنبئنى من سقاك؟

قال: لم! لتقتله؟ قال: نعم. قال: ما أنا محدثك شيئًا، إن يكن صاحبى الذى أظن، فالله أشد نقمةً، وإلا فوالله لا يقتل بى برىء[٢] .

وعن ابن عمر، قال: حضرت موت الحسن، فقلت للحسين، اتق الله، ولا تثر فتنةً، ولا تسفك الدماء، ادفن أخاك إلى جنب أمه، فإنه قد عهد بذلك إليك.

وعن أبى حازم، قال: فلما حضر الحسن، قال للحسين: ادفنى عند أبى، يعنى النبى -ﷺ- إلا أن تخافوا الدماءَ، فادفنِّى فى مقابر المسلمين، فلما

---

(١) الحلية (٢/ ٣٨، ٣٩).

(٢) الحلية (٢/٣٨).

قبض، تسلح الحسين، وجمع مواليه، فقال له أبو هريرة: أنشدك الله ووصية أخيك، فإن القوم لن يدعوك حتى يكون بينكم دماء، فدفنه بالبقيع، فقال أبو هريرة: أرأيتم لو جىء بابن موسى ليدفن مع أبيه، فمنع، أكانوا قد ظلموه؟ فقالوا: نعم. قال: فهذا ابن نبى الله -ﷺ- قد جىء ليدفن مع أبيه.

قال أبو هريرة مرةً يوم دفن الحسن: قاتل الله مروان، قال: والله ما كنت لأدع ابن أبى تراب يدفن مع رسول الله -ﷺ-، وقد دُفن عثمان بالبقيع.

عن الحسن بن محمد ابن الحنفية، قال: جعل الحسن يوعز للحسين: يا أخى إياكَ أن تسفك دمًا، فإن الناس سراع إلى الفتنة. فلما توفى، ارتجت المدينة صياحًا، فلا تلقى إلا باكيًا، وأبرد مروان إلى معاوية يخبره، وأنهم يريدون دفنه مع النبى -ﷺ- ولا يصلون إلى ذلك أبدًا وأنا حىٌّ. فانتهى حسين إلى قبر النبى -ﷺ-، فقال: احفروا، فنكب عنه سعيد بن العاص، يعنى أمير المدينة، فاعتزل، وصاح مروان فى بنى أمية، ولبسوا السلاح، فقال له حسين يا ابن الزرقاء، ما لك ولهذا! أوالٍ أنت؟ فقال: لا تخلص إلى هذا وأنا حى.

فصاح حسين بحلف الفضول، فاجتمعت هاشم، وتيم، وزهرة، وأسد فى السلاح، وعقد مروان لواءً، وكانت بينهم مراماةٌ. وجعل عبد الله بن جعفر يُلح على الحسين ويقول: يا ابن عم! ألم تسمع إلى عهد أخيك؟ أذكرك الله أن لا تسفك الدماء، وهو يأبى.

قال الحسن بن محمد: فسمعت أبى، يقول: لقد رأيتنى يومئذ وإنى لأريد أن أضرب عنق مروان، ما حال بينى وبين ذلك إلا أن أكون أراه مستوجبًا

لذلك. ثم رفعت بأخى، وذكرته وصية الحسن، فأطاعنى.

قال جويرية بن أسماء: لما أخرجوا جنازة الحسن، حمل مروان سريره، فقال الحسين: تحمل سريره! أما والله لقد كنت تجرعه الغيظ.

قال: كنت أفعل ذلك بمن يوازن حلمه الجبال[١] .

❑❑❑

(١) السير (٣/ ٢٧٥، ٢٧٦).

الحسين بن على الشهيد رضي الله عنه

الإمام الشريف، سبط رسول الله -ﷺ-، وريحانته من الدنيا، ومحبوبه، أبو عبد الله الحسين ابن أمير المؤمنين أبى الحسن على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى القرشى الهاشمى.

مولده:

قال الزبير: مولده فى خامس شعبان سنة أربع من الهجرة.

قال جعفر الصادق: بين الحسن والحسين فى الحمل طهر واحد.

وصفه:

عن على، قال: الحسين أشبه برسول الله -ﷺ- من صدره إلى قدميه[١].

عن أنس، قال شهدت ابن زياد حيث أتى برأس الحسين، فجعل ينكت بقضيب معه، فقلت: أما إنه كان أشبههما بالنبى -ﷺ-[٢].

عن عبيد الله بن أبى يزيد، قال: رأيت الحسين بن على أسود الرأس واللحية إلاَّ شعراتٍ فى مقدم لحيته.

❑❑❑

(١) حديث حسن. أخرجه الترمذى (٣٧٨١)، وابن حبان (٢٢٣٥).

(٢) خبر صحيح. أخرجه البخارى (٧/ ٧٥)، والترمذى (٣٧٧٨).

فضائل الحسين بن على

عن ابن أبى نعم، قال: كنت عند ابن عمر، فسأله رجل عن دم البعوض، فقال ممن أنت؟ فقال: من أهل العراق. قال: انظر إلى هذا يسألنى عن دم البعوض، وقد قتلوا ابن رسول الله -ﷺ-. وقد سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: «هما ريحانتاى من الدنيا»(١) .

وعن يعلى بن مرة أنهم خرجوا مع رسول الله -ﷺ- إلى طعام دعوا إليه فإذا حسين يلعب مع صبية فى السكة، فاستقبله رسول الله -ﷺ- أمام القوم، فشبك يديه فطفق الغلام يقع ههنا وههنا، ويضاحكه رسول الله -ﷺ- حتى أخذه فجعل إحدى يديه تحت ذقنه والأخرى فى فأس رأسه، ثم اتبعه فقبله وقال: «حسين منى وأنا من حسين أحب الله من أحب حسينًا، حسين سبط من الأسباط»(٢) .

وعن عبد الله: رأيت رسول الله -ﷺ- أخذ بيد الحسن والحسين، ويقول: «هذان ابناى، فمن أحبهما فقد أحبنى، ومن أبغضهما فقد أبغضنى»(٣) .

روى جعفر بن محمد، عن أبيه: أن عمر جعل للحسين مثل عطاء على، خمسة آلاف.

وعن الزهرى: أن عمر كسا أبناء الصحابة، ولم يكن فى ذلك ما يصلح

---

(١) حديث صحيح. أخرجه البخارى (٧/ ٧٧)، وأحمد (٢/ ٩٣)، والترمذى (٣٧٧٠).
الريحانة: الرزق والراحة.

(٢) حديث صحيح. أخرجه البخارى فى الأدب المفرد (٣٦٤)، وأحمد (٤/ ١٧٢)، والترمذى (٣٨٦٤)، وابن ماجه (١٤٤).

(٣) حديث حسن. أخرجه الترمذى (٣٧٦٩)، والبزار كما فى المجمع (٩/ ١٨٠)، وأحمد (٥/ ٣٦٦).

الحسن والحسين، فبعث إلى اليمن، فأتى بكسوةٍ لهما، فقال: الآن طابت نفسى.

وعن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمى، عن أبيه، أن عمر ألحق الحسن والحسين بفريضة أبيهما لقرابتهما من رسول الله -ﷺ- لكل واحدٍ خمسة آلاف.

وعن العيزار بن حُريث، قال: بينا عمرو بن العاص فى ظل الكعبة، إذ رأى الحسين، فقال: هذا أحب أهل الأرض إلى أهل السماء اليوم[1].

تلك جملة من الفضائل المذكورة فى شأن الحسين بن على -رضي الله عنه- وأرضاه-.

□□□

(١) السير (٣/ ٢٨٥).

أئمة التابعين يحذرون من حدوث الفتنة

قال سعيد بن المسيب ـ رحمه الله ـ:

لو أن حسينًا لم يخرج لكان خيرًا له.

وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن: قد كان ينبغى لحسين أن يعرف أهل العراق ولا يخرج إليهم، ولكنه شجعه على ذلك ابن الزبير، وكتب إليه المسور بن مخرمة: إياك أن تغتر بكتب أهل العراق، وبقول ابن الزبير لك: الحق بهم، فإنهم ناصروك.

إياك أن تبرح الحرم، فإنهم إن كانت بهم إليك حاجة فسيضربون آباط الإبل حتى يوافوك فتخرج فى قوةٍ وعدة، فجزاه خيرًا، وقال: استخير الله فى ذلك.

وكتبت إليه عمرة تعظم عليه ما يريد أن يصنع، وتأمره بالسمع والطاعة، ولزوم الجماعة، وتخبره أنه إنما يساق إلى مصرعه، وتقول:

أشهد لحدثتنى عائشة أنها سمعت رسول الله -ﷺ- يقول:

«يقتل حسين بأرض بابل».

فلما قرأ كتابها، قال: لابُدّ إذن لى من مصرعى، ومضى.

وأتاه أبو بكر عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنصحه، وحذره الخروج، وذكره بغدر أهل العراق، فشكره الحسين، وقال له:

مهما يقض الله من أمرٍ يكن.

وكتب إليه عبد الله بن جعفر يحذره أهل العراق، فأجابه بأنه رأى رؤيا، ورأى فيها رسول الله -ﷺ-، وأنه أمره بأمرٍ، وهو ماض إليه.

ثم قال: ولست بمخبر بها أحداً إلا فى عملى.

وكتب إليه عمرو بن سعيد بن العاص:

إنى أسأل الله أن يلهمك رشدك، وأن يصرفك عما يرديك، بلغنى أنك قد عزمت على الشخوص إلى العراق، فإنى أعيذك بالله من الشقاق، فإن كنت خائفًا فأقبل إلىّ، فلك عندى الأمان، والبر، والصلة.

فكتب إليه الحسين: إن كنت أردت بكتابك وصلتى فجزيت خيرًا فى الدنيا والآخرة، وإنه لم يشاقق من دعا إلى الله، وعمل صالحًا، وقال إننى من المسلمين.

وخير الأمان أمان الله، ولم يؤمن بالله من لم يخفه فى الدنيا، فنسأل الله مخافة فى الدنيا توجب لنا أمان الآخرة عنده.



محاولات ابن عباس قبل الفتنة

ودخل عبد الله بن عباس على الحسين فكلمه ليلاً طويلاً، وقال:

أنشدك بالله إن تهلك غداً بحال مضيعة لا تأت العراق، وإن كنت لا بُدّ فاعلاً فأقم حتى ينقضى الموسم، وتلقى الناس، وتعلم على ماذا يصدرون، ثم ترى رأيك، وكان ذلك فى عشر ذى الحجة سنة ستين.

فأبى الحسين أن لا يمضى إلى العراق، فقال له ابن عباس: والله إنى لأظنك ستقتل غداً بين نسائك وبناتك كما قتل عثمان بين نسائه وبناته، والله إنى أخاف أن تكون الذى يقاد به عثمان، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

فقال له: يا ابن عباس، إنك شيخٌ قد كبرت!

فقال له: لولا أن يزرى ذلك بى أو بك لنشبت يدى فى رأسك، ولو أعلم أننا إذا تناصبنا أقمت لفعلت، ولكن لا أخال ذلك نافعى.

فقال له الحسين: لأن أقتل بمكان كذا وكذا أحب إلىَّ من أن تستحل بى مكة، فبكى ابن عباس، وقال:

أقررت عين ابن الزبير، فذاك الذى سلى بنفسى عنه.

ثم خرج عبد الله بن عباس من عنده وهو مغضب، وابن الزبير على الباب، فلما رآه قال له:

يا ابن الزبير قد أتى ما أحببت قرت عينك هذا، أبو عبد الله يخرج، ويتركك والحجاز.

يا لك من قنبرة بمعمر خلا لك الجو فبيضى واصفرى

ونقرى ما شئت أن تنقرى

على بن الحسين زين العابدين

نسبه:

هو على بن الحسين بن الإمام على بن أبى طالب بن عبد المطلب، الهاشمى.

وأُمُّه: أم ولدٍ، اسمها سلاَّمة أو سلافة بنت ملك الفرس يزدجرد.

وقيل: اسمها: غزالة.

ولقبوه بزين العابدين لعبادته.

مولده ونشأته:

وُلد فى سنة ثمانٍ وثلاثين تقريبًا، وكان مع والده الشهيد الحسين فى يوم كربلاء، وله ثلاث وعشرون سنة، وكان يومئذ مريضًا فلم يُقاتل، ولا تعرضوا له.

بل أحضروه مع آله إلى دمشق، فأكرمه يزيد بن معاوية، ورده إلى المدينة.

تواضعه:

كان عبيد الله بن عبد الله من العلماء، وكان إذا دخل فى صلاته، فقعد إليه إنسان، لم يُقبل عليه حتى يفرغ، وإن على بن الحسين، كان من أهل الفضل، وكان يأتيه، فيجلس إليه، فيطوِّل عبيد الله فى صلاته، ولا يلتفت إليه، فقيل له: علىٌّ وهو ممن هو منه!!

فقال: لابُدّ لمن طلب هذا الأمر أن يُعنَّى به[1] .

---

(١) طبقات ابن سعد (٥/ ٢١٥، ٢١٦)، المعرفة والتاريخ (١/ ٥٤٥).

وقال نافع بن جبير لعلى بن الحسين:

إنك تجالس أقوامًا دونًا؟!

فقال على بن الحسين: آتى من أنتفع بمجالسته فى دينى.

وقال هشام بن عروة: كان على بن الحسين يخرج على راحلته إلى مكة، ويرجع لا يقرعها، وكان يُجالس أسلم مولى عمر، فقيل له: تدع قريشًا، وتجالس عبد بنى عدى؟!

فقال: إنما يجلس الرجل حيث ينتفع[1].

وكان على بن الحسين يدخل المسجد، فيشق الناس حتى يجلس فى حلقة زيد بن أسلم، فقال له نافع بن جبير:

غفر الله لك، أنت سيد الناس، تأتى تتخطى حتى تجلس مع هذا العبد؟!

فقال على بن الحسين: العلم يبتغى، ويؤتى، ويُطلب من حيث كان[2].

وقد كان على بن الحسين بتواضعه من أفضل أهل بيته، وأحسنهم طاعة، وأحبهم إلى مروان بن الحكم، وإلى عبد الملك بن مروان.

علو فضله وقدره:

قال الزهرى: لم أدرك من أهل البيت أفضل من على بن الحسين.

وقال زيد بن أسلم: ما رأيت فيهم مثل على بن الحسين.

وقال مالك: لم يكن فى أهل البيت مثله، وهو ابن أمة.

---

(١) طبقات ابن سعد (٥/ ٢١٦).

(٢) الحلية (٣/ ١٣٧، ١٣٨).

نصيحته إلى أهل العراق:

يروى يحيى بن سعيد أنه سمع على بن الحسين، وكان أفضل هاشمى أدركه، يقول:

يا أيها الناس:

أحبُّونا حُبَّ الإسلام، فما برح بنا حبكم حتى صار عاراً علينا[1] .

وقال ـ رحمه الله ـ: يا أهل العراق أحبونا حب الإسلام، ولا تُحبونا حُبَّ الأصنام، فما زال بنا حبكم حتى صار علينا شيئًا.

وقال أبو بكر بن البرقي: نسل الحسين كله من قبل ابنه على الأصغر، وكان أفضل أهل زمانه، ويقال: إن قريشًا في أمهات الأولاد بعد الزهد فيهن حين نشأ على بن الحسين، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله.

ورع زين العابدين:

قال رجلٌ لابن المسيب: ما رأيت أورع من فلانٍ!!

قال ابن المسيب: هل رأيت على بن الحسين؟ قال: لا. قال: ما رأيت أورع منه.

وقال جويرية بن أسماء:

ما أكل عليٌّ بن الحسين بقرابته من رسول الله -ﷺ- درهمًا قط.

وبعث المختار الثقفى إلى على بن الحسين بمائة ألفٍ، فكره أن يقبلها، وخاف أن يَرُدَّها فاحتبسها عنده، فلما قتل المختار، بعث يخبر بها عبد الملك،

(١) طبقات ابن سعد (٥/ ٢١٤)، الحلية (٣/ ١٣٦).

وقال: ابعث من يقبضها، فأرسل إليه عـبد الملك: يا ابن العم، خذها قد طيبتها لك، فقبلها[١] .

خشوعه وخشيته:

يقـول أبو نوح الأنصارى: وقع حـريق فى بيتٍ فيـه على بن الحسـين وهو ساجد، فجعلوا يقولون: يا ابن رسول الله النار، فما رفع رأسه حتى طفئت.

فقيل له فى ذلك، فقال: ألهتنى عنها النار الأخرى[٢] .

وكان إذا توضأ اصفر.

وحج على بن الحسين، فلما أحرم، اصفرَّ، وانتفض، ولم يستطع أن يُلبى، فقيل: ألا تلبى؟ قال: أخشى أن أقول: لبيك.

فيقول لى: لا لبيك.

فلما لبى، غُشى عليه، وسقط من راحلته[٣] .

تعلمه وتعليمه:

روى زين العابدين عن والده الحسين، وعن جده مـرسلاً، وعن صفـية أم المؤمنين، وعن أبى هريرة، وعائشـة، وعن أبى رافع، وعمه الحسـن، وعبد الله ابن عباس، وأم سلمة، والمسور بن مخرمة، وزينب بنت أبى سلمة، وعن مروان ابن الحكم، وعبـيد الله بن أبى رافع، وسعيـد بن المسيب، وسعيد بـن مرجانة، وذكوان مولى عائشة.

---

(١) طبقات ابن سعد (٥/٢١٣).

(٢) السير (٤/ ٣٩٢).

(٣) السير (٤/ ٣٩٢).

ومرويات على بن الحسين فى كتب الأصول الستة.

وقد أخذ العلم عنه جمٌّ غفير، فحدث عنه أبناؤه:

أبو جعفر محمد، وعمر، وزيد، وعبد الله، والزهرى، وعمرو بن دينار، والحكم بن عتبة، وزيد بن أسلم، وحبيب بن أبى ثابت، والقعقاع بن حكيم، وأبو الأسود يتيم عروة، وهشام بن عروة، وأبو حازم الأعرج، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وطاوس.

وكان على بن الحسين باتفاق علماء الجرح والتعديل ثقة، مأمونًا، كثير الحديث، عاليًا، رفيعًا، ورعًا.

قضاء الحوائج وفعل الخيرات:

كان على بن الحسين يحمل الخبز بالليل على ظهره يتبع به المساكين فى الظلمة، ويقول: إن الصدقة فى سواد الليل تطفئ غضب الرب[1].

وكان ناسٌ من أهل المدينة يعيشون، لا يدرون من أين كان معاشهم، فلما مات على بن الحسين، فقدوا ذلك الذى كانوا يؤتون بالليل.

ويقول عمرو بن ثابت: لما مات علىٌّ بن الحسين، وجدوا بظهره أثرًا مما كان ينقل الجُرُبَ بالليل إلى منازل الأرامل.

ولما مات علىٌّ وجدوه يعول مائة أهل بيت.

وقال بعضهم: ما فقدنا صدقة السر حتى تُوفى على بن الحسين.

ودخل على بن الحسين على محمد بن أسامة بن زيد فى مرضه؛ فجعل

---

(١) الحلية (٣/ ١٣٦).

محمد يبكى، فقال على: ما شأنك؟ قال: علىَّ دين. قال: وكم هو؟

قال: بضعة عشر ألف دينار، قال: فهى علىَّ[1] .

وكان زين العابدين ـ رحمه الله ـ يقول:

إنى لأستحيى من الله أن أرى الأخ من إخوانى، فأسأل الله له الجنة، وأبخل عليه بالدنيا، فإذا كان غداً قيل لى:

لو كانت الجنة بيدك لكنت بها أبخل وأبخل[2] .

ثناؤه على الصدِّيق:

جاء رجلٌ إلى أبى، فقال: أخبرنى عن أبى بكر؟ قال: عن الصديق تسأل؟

قال: وتُسمِّيه الصديق؟!

فقال على بن الحسين: ثكلتك أمك، قد سماه صدِّيقًا من هو خير منى، رسول الله -ﷺ-، والمهاجرون، والأنصار، فمن لم يُسَمِّه صديقًا، فلا صدَّق الله قوله، اذهب فأحبَّ أبا بكر وعمر، وتولَّهُما، فما كان من أمرٍ ففى عنُقى[3] .

دعوته للرضا وإصلاح السرائر:

قال على بن الحسين ـ رحمه الله ـ: إن الجسد إذا لم يمرض أشر، ولا خير فى جسدٍ يأشر[4] .

---

(١) الحلية (٣/ ١٤١).

(٢) السير (٤/ ٣٩٤).

(٣) السير (٤/ ٣٩٥).

(٤) الحلية (٣/ ١٣٤).

وكان من دعائه: اللهم إنى أعوذ بـك أن تُحسن لوائح العيون[١] علانيتى، وتُقبِّح فى خفيات العيون سريرتى، اللهم كما أسأت وأحسنت إلىَّ، فإذا عُدتُ، فعُدْ علىَّ.

اللهم لا تكلنى إلى نفسى فأعجز، ولا تكلنى إلى المخلوقين فيضيعونى[٢].

براءته من المخالفين:

يقول عيسى بن دينار: سألت أبا جعفر عن المختار، فقال: قام أبى على باب الكعبة، فلعن المختار، فقيل له: تلعنه، وإنما ذُبح فيكم؟!

قال: إنه كان يكذب على الله، وعلى رسوله[٣].

وقال علىٌّ بن الحسين: والله ما قُتل عثمان ـ رحمه الله ـ على وجه الحق[٤].

ونقل أكثر من واحدٍ أن على بن الحسين كان يخضب بالحناء، والكتم، وكان له كساء أصفر يلبسه يوم الجمعة.

مكانته الرفيعة:

كان على بن الحسين أهلاً للإمامة العظمى، لعلمه، وعلو قدره، ولما حج هشام بن عبد الملك قُبيل ولايته للخلافة، فكان إذا أراد أن يستلم الحجر الأسود، زُوحم عليه، وإذا دنا على بن الحسين من الحجر تفرقوا عنه إجلالاً له، فوجم لها هشام، وقال: من هذا؟ فما أعرفه!!

---

(١) لوائح العيون: لوائح الشىء ما يبدو منه وتظهر علامته عليه.
والأثر فى الحلية (٣/ ١٣٤).

(٢) السير (٢/ ٣٩٦).

(٣) طبقات ابن سعد (٥/ ٢١٣).

(٤) طبقات ابن سعد (٥/ ٢١٦).

فأنشأ الفرزدق يقول:

هذا الذى تعرف البطحاءُ وطأته والبيت يعرفه والحلُّ والحرمُ
هذا ابن خير عباد الله كُلِّهم هذا التقىُّ الطاهر العَلَمُ
إذا رأته قريش قال قائلها إلى مكارم هذا ينتهى الكرمُ
يكاد يُمسكه عرفان راحته ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
يُغضى حياءً ويُغضى من مهابته فما يُكلَّمُ إلا حين يبتسم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله بجدِّه أنبياء الله قد خُتموا[1]

فأمر هشام بن عبد الملك بحبس الفرزدق، فحُبس بعُسفان، وبعث إليه علىُّ ابن الحسين باثنى عشر ألف درهم، وقال: اعذر أبا فراس.

فردها وقال: ما قلتُ ذلك إلا غضبًا لله ولرسوله، فردها إليه، وقال: بحقى عليك لما قبلتها، فقد علم الله نيتك ورأى مكانك، فقبلها[2].

وفاته:

الصحيح فى وفاة على بن الحسين زين العابدين أنها كانت فى سنة أربعٍ وتسعين، وقبره بالبقيع، فرحمه الله رحمة واسعة[3].

---

(١) الحلية (٣/ ١٣٩)، السير (٢/ ٣٩٩).

(٢) السير (٢/ ٣٩٩).

(٣) انظر: طبقات ابن سعد (٥/ ٢١١)، طبقات خليفة (٢٠٤٤)، التاريخ الكبير (٦/ ٢٦٦)، الحلية (٣/ ١٣٣)، وفيات الأعيان (٣/ ٢٦٦)، تهذيب الكمال (ص٩٦٥)، تذكرة الحفاظ (١/ ٧٠)، البداية والنهاية (٩/ ١٠٣)، التهذيب (٧/ ٣٠٤)، النجوم الزاهرة (١/ ٢٢٩).

جعفر الصادق رحمه الله

نعود إلى المؤمن الذى ينصح صاحبه الكافر، ويُعلِّمه كيف يستقبل نعمة الله عليه: ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ [الكهف:٣٩] (لَوْلاَ) بمعنى: هلاَّ وهى للحثِّ والتحضيض، وعلى الإنسان إذا رأى ما يعجبه فى مال أو ولد حتى لو أعجبه وجهه فى المرآة عليه أن يقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

وفى الحديث يقول رسول الله -ﷺ-: «ما قيل عند نعمة: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، إلا ولا ترى فيها آفة إلا الموت»[1] .

فساعة أن تطالع نعمة الله كان من الواجب عليك ألاَّ تُلهيكَ النعمة عن المنعم، كان عليك أن تقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، أى: أن هذا كله ليس بقوتى وحيلتى، بل فضل من الله فتردّ النعمة إلى خالقها ومُسديها، ومادُمْتَ قد رددْتَ النعمة إلى خالقها فقد استأمنْتَهُ عليها واستحفظته إياها، وضمنْتَ بذلك بقاءها.

وذكرنا أن سيدنا جعفر الصادق -رضي الله عنه- كان عالمًا بكنوز القرآن، ورأى النفسَ البشرية، وما يعتريها من تقلُّبات تعكر عليها صَفو الحياة من خوف أو قلق أو همٍّ أو حزن أو مكر، أو زهرة الدنيا وطموحات الإنسان فيها.

فكان -رضي الله عنه- يُخرج لهذه الداءات ما يناسبها من علاجات القرآن، فكان يقول فى الخوف: «عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قول الله تعالى: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ

---

(١) حديث ضعيف. رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط، وفيه عبد الملك بن زرارة، وهو ضعيف، قاله الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٤٠).

وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣] فإنى سمعت الله بعقبها يقول: **﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾** [آل عمران:١٧٤].

وعجبتُ لمن اغتمّ ـ لأن الغَمَّ انسداد القلب وبلبلة الخاطر من شىء لا يعرف سببه ـ وعجبتُ لمن اغتمَّ ولم يفزع إلى قول الله تعالى: **﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾** [الأنبياء:٨٧]، فإنى سمعت الله بعقبها يقول: **﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾** [الأنبياء:٨٨]، ليس هذا وفقط، بل: **﴿وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾** [الأنبياء:٨٨] وكأنها (وصْفة) عامة لكل مؤمن، وليست خاصة بنبىّ الله يونس عليه السلام.

فقول المؤمن الذى أصابه الغم: **﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ﴾** [الأنبياء:٨٧] أى: لا مفزع لى سواك، ولا ملجأ لى غيرك **﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾** [الأنبياء:٨٧] اعتراف بالذنب والتقصير، فلعل ما وقعتُ فيه من ذنب وما حدث من ظلم لنفسى هو سبب هذا الغم الذى أعانيه.

وعجبتُ لمن مُكر به، كيف لا يفزع إلى قول الله تعالى: **﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾** [غافر:٤٤] فإنى سمع الله بعقبها يقول: **﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾** [غافر:٤٥] فالله تبارك وتعالى هو الذى سيتولى الرد عليهم ومقابلة مكرهم بمكره سبحانه، كما قال تعالى: **﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾** [آل عمران:٥٤].

وعجبت لمن طلب الدنيا وزينتها ـ صاحب الطموحات فى الدنيا المتطلع إلى زخرفها ـ كيف لا يفزع إلى قول الله تعالى: **﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾** [الكهف:٣٩] فإنى سمعت الله بعقبها يقول: **﴿فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن**

جَنَّتِكَ﴾ [الكهف:٤٠] فإن قلتها على نعمتك حُفظتْ ونمَتْ، وإن قلتها على نعمة الغير أعطاك الله فوقها.

والعجيب أن المؤمن الفقير الذى لا يملك من متاع الدنيا شيئًا يدل صاحبه الكافر على مفتاح الخير الذى يزيده من خير الدنيا، رغم ما يتقلب فيه من نعيمها، فمفتاح زيادة الخير فى الدنيا ودوام النعمة فيها أن نقول: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ [الكهف:٣٩].

ويستطرد المؤمن، فيُبيِّن لصاحبه ما عَيَّره به من أنه فقير وهو غنى، وما استعلى عليه بماله وولده: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا﴾ [الكهف:٣٩] ثم ذكَّره بأن الله تعالى قادر على أن يُبدِّل هذا الحال، فقال:

﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ [الكهف:٤٠].

وعسى للرجاء، فإن كان الرجاء من الله فهو واقع لا شكَّ فيه؛ لذلك حينما تقول عند نعمة الغير: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ يعطيك الله خيرًا مما قُلْت عليه: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾، وإن اعترفتَ بنعمة الله عليك ورددْتَ الفضل إليه سبحانه زادك، كما جاء فى قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧].

فقوله: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ [الكهف:٤٠] أى: ينقل مسألة الغنى والفقر ويُحولها، فأنت لا قدرة لك على حفظ هذه النعمة، كما أنك لا قدرةَ لك على جَلْبها من البداية، إذن: يمكن أنْ يعطينى ربى نعمة مثل نعمتك، فى حين تظل نعمتك كما هى، لكن إرادة الله تعالى أن يقلبَ نعمتك ويزيلها.

جعفر بن محمد العلوى

نسبه:

جعفر بن محمد بن على بن الشهيد أبى عبد الله، ريحانة النبى -ﷺ- وسبطه ومحبوبه الحسين بن أمير المؤمنين أبى الحسن على بن أبى طالب بن عبد مناف بن شيبة، وهو عبد المطلب بن هاشم، واسمه عمرو بن عبد مناف بن قُصى، الإمام الصادق، شيخ بنى هاشم أبو عبد الله القرشى، الهاشمى، العلوى، النبوى، المدنى، أحد الأعلام.

وأمه هى أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبى بكر التيمى، وأمها: هى أسماء بنت عبد الرحمن بن أبى بكر ولهذا كان يقول: ولدنى أبو بكر الصديق مرتين.

مولده:

ولد جعفر الصادق فى سنة ثمانين هجرية، ورأى من الصحابة كبارهم كأنس بن مالك، وسهل بن سعد.

فضله:

قيل للشافعى: كيف جعفر بن محمد عندك؟ قال: ثقة.

وقال أبو حاتم الرازى: جعفر بن محمد الصادق لا يُسأل عن مثله.

عقيدته:

قال أبو زهير معاوية لجعفر بن محمد: إن لى جاراً يزعم أنك تبرأ من أبى بكر وعمر بن الخطاب.

فقال جعفر الصادق: برئ الله من جارك، والله إنى لأرجو أن ينفعنى الله بقرابتى من أبى بكر.

وقال سالم بن أبى حفصة: سألت أبا جعفر وابنه جعفراً عن أبى بكر وعمر، فقال: يا سالم تولَّهما، وابرأ من عدوهما، فإنهما كانا إمامى هدى.

ثم قال جعفر: يا سالم، أَيَسُبُّ الرجلُ جده؟ أبو بكر جدى، لا نالتنى شفاعة محمد -ﷺ- يوم القيامة إن لم أكن أتولاهما، وأبرأ من عدوهما[١].

وسئل جعفر بن محمد عن أبى بكر وعمر، فقال: إنك تسألنى عن رجلين قد أكلا من ثمار الجنة[٢].

وسئل عن القرآن، فقال: ليس بخالقٍ ولا مخلوق، ولكنه كلام الله.

من روائع كلامه:

الصلاة قربان كل تقى، والحج جهاد كل ضعيف، وزكاة البدن الصيام، والداعى بلا عمل كالرامى بلا وتر، واستنزلوا الرزق بالصدقة، وحصنوا أموالكم بالزكاة.

وما عال من اقتصد، والتقدير نصف العيش، ومن أحزن والديه، فقد عقهما، ومن ضرب بيده على فخذه عند مصيبةٍ فقد حبط أجره، والصنيعة لا تكون صنيعة إلا عند ذى حسبٍ أو دين، والله ينزل الصبر على قدر المصيبة، وينزل الرزق على قدر المؤنة، ومن قدَّر معيشته رزقه الله، ومن بذر معيشته حرمه الله.

---

(١) ، (٢) السير (٦/٢٥٩، ٢٦٠).

حكمته وزهده:

وقع الذباب على الخليفة المنصور فذّبه عنه، فعاد فذبه حتى أضجره، فدخل جعفر بن محمد، فقال له المنصور:

يا أبا عبد الله، لِمَ خلق الله عز وجل الذباب؟

قال: ليُذِلّ به الجبابرة[1].

من لم يغضب من الجفوة لم يشكر النعمة.

وكان رجل من أهل السواد يلزم جعفر بن محمد ففقده فسأل عنه، فقال له رجل: إنه نبطى!! يريد أن يضع منه.

فقال جعفر: أصل الرجل عقله، وحسبُه دينه، وكرمه تقواه، والناس فى آدم مستوون.

وعن سفيان الثورى قال: سمعت جعفر بن محمد الصادق يقول:

عزت السلامة حتى لقد خفى مطلبها، فإن تكن فى شيء فيوشك أن تكون فى الخمول، فإن طُلبت فى الخمول فلم توجد فيوشك أن تكون فى التخلى، وليس كالخمول، فإن طلبت فى التخلى ولم توجد فيوشك أن تكون فى الصمت، وليس كالتخلى، فإن طلبت فى الصمت فلم توجد فيوشك أن تكون في كلام السلف الصالح، والسعيد من وجد فى نفسه خلوة يشتغل بها.

وقال جعفر بن محمد: أوحى الله إلى الدنيا: أن اخدمى مَنْ خدمنى، وأتعبى من خدمك.

(١) صفة الصفوة (٢/ ١٧٠).

وسئل جعفر بن محمد: لم حرم الله الربا؟ قال: لئلا يتمانع الناس المعروف.

وكان من دعائه: اللهم أعزنى بطاعتك، ولا تخزنى بمعصيتك، اللهم ارزقنى مواساة من قترت عليه رزقه بما وسعت على من فضلك.

وقال نصر بن كثير: دخلت أنا وسفيان الثورى على جعفر بن محمد فقلت: إنى أريد البيت الحرام فعلمنى شيئًا أدعو به، فقال:

إذا بلغت البيت الحرام فضع يدك على الحائط، ثم قل: يا سابق الفوت، يا سامع الصوت، ويا كاسى العظام لحمًا بعد الموت، ثم ادع بما شئت.

فقال له سفيان شيئًا لم أفهمه، فقال له: يا سفيان إذا جاءك ما تحب فأكثر من الحمد لله، وإذا جاءك ما تكره فأكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله، وإذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار[1].

وقال جعفر بن محمد ـ رحمه الله ـ:

إذا بلغك عن أخيك شىء يسوءك فلا تغتم، فإنه إن كان كما يقول: كانت عقوبة عجلت، وإن كان على غير ما يقول كانت حسنة لم يعملها.

مفاتيح الرزق:

قال سفيان الثورى لجعفر بن محمد: لا أقوم حتى تحدثنى؟ فقال جعفر بن محمد: أنا أحدثك، وما كثرة الحديث لك بخيرٍ يا سفيان، إذا أنعم الله عليك بنعمةٍ فأحببت بقاءها، ودوامها، فأكثر من الحمد والشكر عليها، فإن الله عز

---

(١) الحلية (٣/١٩٦ ـ ١٩٨).

وجل قال فى كتابه:

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم:٧].

وإذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار، فإن الله تعالى قال فى كتابه: ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [نوح:١٠-١٢].

يا سفيان إذا حزبك أمرٌ من سلطانٍ أو غيره فأكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها مفتاح الفرج، وكنز من كنوز الجنة.

فعقد سفيان بيده، وقال ثلاث، وأى ثلاثٍ.

قال جعفر بن محمد: عقلها والله أبو عبد الله، ولينفعنه الله بها[١].

---

(١) الحلية (٣/ ١٩٣)، وصفة الصفوة (٢/ ١٦٨) لابن الجوزى، والسير (٦/ ٢٦١).

وصية جعفر بن محمد لابنه

عن بعض أصحاب جعفر الصادق قال: دخلت على جعفر وموسى بين يديه وهو يوصيه بهذه الوصية فكان مما حفظت منها أن قال: يا بنى اقبل وصيتى واحفظ مقالتى فإنك إن حفظتها تعش سعيدًا وتمت حميدًا، يا بنى إنه من قنع بما قسم الله له استغنى ومن مد عينه إلى ما فى يد غيره مات فقيرًا، ومن لم يرض بما قسم الله عز وجل له اتهم الله تعالى فى قضائه، ومن استصغر زلة نفسه استعظم زلة غيره، ومن استصغر زلة غيره استعظم زلة نفسه. يا بنى من كشف حجاب غيره، انكشفت عورات بيته، ومن سل سيف البغى قتل به، ومن احتفر لأخيه بئرًا سقط فيها، ومن داخل[١] السفهاء حقر، ومن خالط العلماء وقر، ومن دخل مداخل السوء اتهم، يا بنى قل الحق لك وعليك، وإياك والنميمة فإنها تزرع الشحناء فى قلوب الرجال، يا بنى إذا طلبت الجود فعليك بمعادنه[٢]، فإن للجود معاند وللمعادن أصولاً، وللأصول فروعًا، وللفروع ثمرًا. ولا يطيب ثمر إلا بفرعٍ، ولا فرع إلا بأصل، ولا أصل إلا بمعدنٍ طيب . زر الأخيار ولا تزر الفجار، فإنهم صخرة لا يتفجر ماؤها، وشجرة لا يخضر ورقها، وأرض لا يظهر عشبها.

يا بنى إياك أن تُزرِىَ بالرجال، فيزرى بك، وإياك والدخول فيما لا يعنيك فتذِلَّ.

يا بنى قل الحق لك وعليك تستشار بين أقربائك، وكن للقرآن تاليًا، وللإسلام غاشيًا، وللمعروف آمرًا، وعن المنكر ناهيًا، ولمن قطعك واصلاً، ولمن

(١) داخل: خالط.

(٢) صفة الصفوة (٢/ ١٧٠).

سكت عنك مبتدئًا، ولمن سائلك معطيًا[١] .

وكان ينصح ولده قائلاً:

إياك والخصومة فى الدين، فإنها تشغل القلب، وتورث النفاق.

ولا زاد أفضل من التقوى، ولا شىء أحسن من الصمت، ولا عدو أضر من الجهل، ولا داء أدوأ من الكذب.

ولا يتم المعروف إلا بثلاثةٍ: بتعجيله، وتصغيره، وستره[٢] .

جعفر الصادق وأسرار الحج:

يقول سفيان الثورى ـ رحمه الله ـ:

قدمت مكة المكرمة فإذا أنا بأبى عبد الله جعفر بن محمد قد أناخ بالأبطح، فقلت له: يا ابن رسول الله، لِمَ جعل الموقف ـ يعنى فى عرفة ـ من وراء الحرم؟ ولم يُصيَّر فى المشعر الحرام؟!

فقال: الكعبة بيت الله، والحرم حجابه، والموقف بابه، فلما قصده الوافدون أوقفهم بالباب يتضرعون، فلما أذن لهم فى الدخول، أدناهم من الباب الثانى وهو المزدلفة.

فلما نظر إلى كثرة تضرعهم، وطول اجتهادهم رحمهم، فلما رحمهم أمرهم بتقريب قربان، فلما قربوا قربانهم وقضوا تفثهم، وتطهروا من الذنوب التى كانت حجابًا بينه وبينهم، أمرهم بزيارة بيته على طهارة.

---

(١) السير (٦/ ٢٦٣).

(٢) السابق.

قال سفيان: فلم كُره الصوم أيام التشريق؟

قال: لأنهم في ضيافة الله، ولا يجب على الضيف أن يصوم عند من أضافه.

قلت: جعلت فداك فما بال الناس يتعلقون بأستار الكعبة، وهي خرق لا تنفع شيئًا؟

قال: ذلك مثل رجل بينه وبين رجلٍ جُرم، فهو يتعلق به، ويطوف حوله رجاء أن يهب له ذاك، ذاك الجرم[1].

□□□

جعفر الصادق ينصح الخليفة المنصور

حج أبو جعفر سنة سبع وأربعين ومائة فقدم المدينة وقال: ابعث إلى جعفر ابن محمد من يأتينا به تعبًا، قتلنى الله إن لم أقتله، فتغافل عنه الربيع لينساه. ثم أعاد ذكره للربيع وقال: أرسل إليه من يأتى به متعبًا. فتشاغل عنه. ثم أرسل إلى الربيع برسالة قبيحة فى جعفر وأمره أن يبعث إليه ففعل. فلما أتاه قال له:

يا أبا عبد الله اذكر الله فإنه قدْ أرسل إليك التى لا سوى لها قال جعفر: لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم أعلم أبا جعفر حضوره، فلما دخل أودعه وقال: أى عدو الله اتخذك أهل العراق إمامًا يجبون إليك زكاة أموالهم وتلحد فى سلطانى وتبغيه الغوائل؟ قتلنى الله إن لم أقتلك.

فقال: يا أمير المؤمنين إن سليمان عليه السلام أعطى فشكر، وإن أيوب ابتلى فصبر، وإن يوسف ظلم فغفر، وأنت من ذلك السنخ فقال له أبو جعفر: إلىَّ وعندى، أبا عبد الله، البرىء الساحة، السليم الناحية، القليل الغائلة، جزاك الله من ذى رحمٍ أفضل ما جزى ذوى الأرحام من أرحامهم[1] .

❑❑❑

(١) صفة الصفوة (٢/ ١٧٢).

جعفر الصادق فى قصر المنصور

عن الفضل بن الربيع، عن أبيه، قال: دعانى المنصور فقال: إن جعفر بن محمد يلحد فى سلطانى قتلنى الله إن لم أقتله، فأتيته، فقلت: أجب أمير المؤمنين، فتطهر ولبس ثيابًا، أحسبه قال جددًا فأقبلت به فاستأذنت له، فقال: أدخله، قتلنى الله إن لم أقتله، فلما نظر إليه مقبلاً قام من مجلسه فتلقاه وقال:

مرحبًا بالنقى الساحة، البرىء من الدغل والخيانة، أخى وابن عمى، فأقعده معه على سريره وأقبل عليه بوجهه، وسأله عن حاله، ثم قال: سلنى عن حاجتك فقال: أهل مكة والمدينة قد تأخر عطاؤهم فتأمر لهم به. قال: أفعل. ثم قال:

يا جارية ائتنى بالتحفة، فأتته بمدهن زجاج فيه غالية فغلفه بيده وانصرف.

فاتبعته، فقلت: يا ابن رسول الله، أتيت بك ولا أشك أنه قاتلك، فكان منه ما رأيت، وقد رأيتك تحرك شفتيك بشىء عند الدخول فما هو؟ قال: قلت: اللهم احرسنى بعينك التى لا تنام، واكنفنى بركنك الذى لا يرام، واحفظنى بقدرتك علىَّ، ولا تهلكنى، وأنت رجائى. ربِّ كم من نعمةٍ أنعمت بها علىَّ قل لك عندها شكرى، وكم من بليةٍ ابتليتنى بها قل لها عندك صبرى! فيا من قل عند نعمته شكرى فلم يحرمنى، ويا من قل عند بليته صبرى فلم يخذلنى، ويا من رآنى على المعاصى فلم يفضحنى، ويا ذا النعم التى لا تحصى أبدًا، ويا ذا المعروف الذى لا ينقطع أبدًا، أعنى على دينى بدنيا، وعلى آخرتى بتقوى، واحفظنى فيما غبت عنه ولا تكلنى إلى نفسى فيما خطرت. يا من لا تضره الذنوب، ولا تنقصه المغفرة، اغفر لى ما لا يضرك، وأعطنى ما لا ينقصك، يا

وهاب أسألك فـرجًا قريبًا، وصبـرًا جميلاً، والعـافية من جمـيع البلايا، وشكر العافية[1] .

جعفر الصادق والأسئلة المحيرة:

قال ابن شبرمـة: دخلت أنا وأبو حنيفة على جعفر بن محـمد، فقال: لابن أبي ليلى: من هذا معك؟ قال: هذا رجلٌ له بصر ونفاذ في أمر الدين.

قال: لعله يقيس أمـر الدين برأيه؟ قال: نعم. فقال جعفـر لأبي حنيفة: ما اسمك؟ قال: نعمان.

قال: يا نعمان، هل قست رأسك بعد؟

قال: كيف أقيس رأسي؟!

قال: مـا أراك تحسن شيئًـا، هل علمت ما الملوحـة في العينين؟ والمرارة في الأذنين؟ والحرارة في المنخرين؟ والعذوبة في الشفتين؟

قال: لا. قال: ما أراك تحسن شيئًا.

قال: فهل علمت كلمة أولها كفر، وآخرها إيمان؟

فقـال ابن أبي ليلى: يا ابن رسول الله، أخـبرني بهذه الأشـياء التي سـألته عنها؟

قال جـعفـر الصادق: إن الله تعالى بمـنه وفضله جعل لابن آدم المـلوحة في العينين لأنهما شحمتان، ولولا ذلك لذابتا.

وإن الله تعـالى بمنه وفضله ورحـمتـه على ابن آدم جـعل المرارة في الأذنين

---

(١) السير (٦/ ٢٦٦).

حجابًا من الدواب، فإن دخلت الرأس دابة، والتمست إلى الدماغ، فإذا ذاقت المرارة، التمست الخروج.

وإن الله تعالى بمنه وفضله ورحمته على ابن آدم جعل الحرارة فى المنخرين يستنشق بهما الريح، ولولا ذلك لأنتن الدماغ.

وإن الله تعالى بمنه وكرمه ورحمته جعل لابن آدم العذوبة فى الشفتين يجد بهما استطعام كل شيء، ويسمع الناس بها حلاوة منطقه.

قال ابن أبى ليلى: فأخبرنى عن الكلمة التى أولها كفر، وآخرها إيمان؟

فقال جعفر: إذا قال العبد لا إله فقد كفر، فإذا قال إلا الله فهو إيمان، ثم أقبل على أبى حنيفة، فقال: يا نعمان، أول من قاس أمر الدين برأيه إبليس، قال الله تعالى له: اسجد لآدم فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢]، فمن قاس الدين برأيه قرنه الله تعالى يوم القيامة بإبليس لأنه اتبعه بالقياس.

ثم قال جعفر: أيهما أعظم قتل النفس أو الزنا؟

قال: قتل النفس.

قال: فإن الله تعالى قبل فى قتل النفس شاهدين، ولم يقبل فى الزنا إلا أربعة.

ثم قال: أيهما أعظم الصلاة أم الصوم؟

قال: الصلاة.

قال: فما بال الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة؟!

فكيف ويحك يقوم لك قياسك؟! اتق الله ولا تقس الدين برأيك[١] .

وفاته:

كان جعفر بن محمد من أئمة أهل البيت فقهًا، وعلمًا، وزهدًا، حتى قال الإمام مالك:

اختلفت إليه زمانًا فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال: إما مصل، وإما صائم، وإما يقرأ القرآن، وما رأيته يحدث إلا على طهارة.

وفي سنة ١٤٨ هـ كانت وفاة جعفر الصادق، رحمه الله رحمة واسعة[٢] .

معنى الإحاطة: هو عدم وجود منفذ للفرار؛ ولذلك نجد الحق سبحانه يتكلم عن الكافرين بقوله: ﴿**وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ**﴾ [البقرة:١٩].

أي: ليس هناك منفذ يفلتون منه.

ولحظة ظنهم أنه قد أحيط بهم؛ لا يسلمون أنفسهم لهذه الحالة؛ بدعوى الاعتزاز بأنفسهم غريزيًا، بل يتجهون إلى الله بالدعاء، هذا الإله الذى أنكروه، لكنهم لحظة الخطر لا يكذب أحد على نفسه أو يخدعها.

ولذلك نجد سيدنا جعفر الصادق يجيب على سائل سأله: أهناك دليل على وجود الصانع الأعلى؟ فيقول سيدنا جعفر: ما عملك؟ فيجيب السائل: تاجر

(١) طبقات خليفة (٢٦٩)، التاريخ الكبير (٢/١٩٨)، التاريخ الصغير (٢/٩١)، الجرح والتعديل (٢/٤٨٧)، الحلية (٣/١٩٢)، وفيات الأعيان (١/٣٢٧)، تهذيب الكمال (٢٠٢)، الميزان (١/٤١٤)، تذكرة الحفاظ (١/١٦٦)، التهذيب (٢/١٠٣)، شذرات الذهب (١/ ٢٠).

(٢) طبقات خليفة (٢٦٩)، التاريخ الكبير (٢/١٩٨)، التاريخ الصغير (٢/٩١)، الجرح والتعديل (٢/٤٨٧)، الحلية (٣/١٩٢)، وفيات الأعيان (١/٣٢٧)، تهذيب الكمال (٢٠٢)، الميزان (١/٤١٤)، تذكرة الحفاظ (١/١٦٦)، التهذيب (٢/١٠٣)، شذرات الذهب (١/ ٢٠).

أبحر فى البحر. فسأله سيدنا جعفر: أوَ لم يحدث لك فيه حال؟ قال الرجل: بل حدث. فسأل سيدنا جعفر: ما هو؟ قال: حملت بضائعى فى سفينة، فهبت الريح وعلا الموج وغرقت السفينة وتعلقت بلوح من الخشب. قال سيدنا جعفر: ألم يخطر على بالك أن تفزع إلى شىء؟ قال الرجل: نعم قال سيدنا جعفر: هذا الصانع الأعلى.

وكذلك لجأ هؤلاء الذين كفروا بالله إلى الله تعالى حين عصفت بهم الريح، وعلا عليهم الموج، وظنوا أنهم قد أحيط بهم ويقول الحق سبحانه وتعالى عنهم ـ وهم فى مثل هذه الحالة ـ: ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وهذا يعنى أنهم لم يدعوه فقط، بل دَعَوْه بإخلاص وأقروا بوحدانيته، وألاَّ شريك له أبدًا؛ لأنهم يعلمون أن مثل هذا الشريك لن ينفعهم أبدًا.

ثم يجىء الحق سبحانه بصيغة دعائهم: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ فهل وَفَّوْا بالعهد؟ لاَ؛ لأن الحق سبحانه يقول بعد ذلك:

﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٢٣].

وكان سيدنا يونس عليه السلام سببًا فى أن قدَّم الله سبحانه ـ لكل مؤمن به إلى أن تقوم الساعة ـ مَنْجًى من الهمِّ والغمِّ بالدعاء الذى ألهمه ليونس عليه السلام فى قوله تعالى:

﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

وهكذا تعدَّت «النجاة من الغم» من الخصوصية إلى العمومية، وقد أخذها جعفر الصادق -رضي الله عنه- وجعل منها «تذكرة طبية» للمؤمن حتى يستقبل أحداث الحياة كلها، فى كل جوانبها المفزعة؛ لأن الإنسان يهدده الخوف مما يعلم.

أما الهم فلا يعرف الإنسان فيه سبب الخطر، ولا يعلم الإنسان مكر الناس به؛ لأن الإنسان لا يعلم ماذا بَيَّتوا له.

وشغل الإنسان بأمر الدنيا وأن يكون منعَّمًا ومرفَّهًا فى كل أمور الحياة، يجعله عُرْضة للهموم.

وكان سيدنا جعفر الصادق له بصر وبصيرة بآيات القرآن ومتعلقاتها، فقال: عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قول الحق سبحانه:

﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

ولا يُتعجب لمن يخيفه شىء إلا إذا كان عند المتعجب شىء يزيل الخوف.

فمن عنده صداع يمكنه أن يعالجه بالأسبرين، أما الخوف فقد وصف سيدنا جعفر دواءه، بقول الله سبحانه:

﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

فذلك هو الدرع من كل خوف.

ويقدم جعفر الصادق لنا السبب فيقول: لأن الله سبحانه قال عقبها:

﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٤].

أى: أن سيدنا جعفرًا جاء بالحيثية من نفس القرآن، وأضاف جعفر الصادق:

وعجبت لمن اغتمَّ ـ وهو الموضوع الذى نبحثه الآن ـ ولم يفزع إلى قول الله سبحانه:

﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٧].

فإنى سمعت الله تعالى بعقبها يقول:

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٨].

وعجبت لمن مُكر به كيف لا يفزع إلى قول الله سبحانه:

﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [غافر:٤٤].

لأنى سمعت الله تعالى بعقبها يقول:

﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٥].

وعجبت لمن طلب الدنيا وزينتها كيف لا يفزع إلى قول الله سبحانه:

﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ [الكهف:٣٩].

لأنى سمعت الله تعالى بعقبها يقول:

﴿ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ [الكهف:٤٠].

وهكذا وجد جعفر الصادق -رضي الله عنه- فى كتاب الله أربع آيات لأربع حالات نفسية تصيب البشر، وجاء مع كل حالة دليلها من القرآن الكريم.

وقول الحق سبحانه وتعالى فى آخر سورة يونس:

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ﴾ [يونس:١٠٩].

مناسب لقوله سبحانه فى الآية الأولى من السورة التى تليها:

﴿ الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: ١].

لأن الوحى كتاب أحكمت آياته حقًّا وصدقًا.

❑❑❑

خصوصية نساء آل البيت

يقول الله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢].

كلمة: «نساء» نفهم أنها جمع، ومفردها «امرأة»، لأن هناك جموعًا نُسِيَ مفردها، لشهرة مفرد آخر أرق منه. فمفرد «نساء» هو «امرأة».

بعض المتفلسفين فى اللغة، قالوا: كلمة نساء هل هى مشتقة من النسأ والتأخير؟ فإن كانت من النسأ والتأخير، لعل مفردها: نسىء، من التأخير لأن خلقها متأخر عن خلق الرجل، وهذا يجوز وإن كنا لا نتكلفه.

بعد أن اختار نساء النبى -ﷺ- الله ورسوله والدار الآخرة، أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطيهن المنهج، وهذا التخيير هو لون من حب المفارقة الذى يعطى للمرأة، مثلما يقولون: «العصمة فى يدها»، ولكن هل بالتخيير يقع الطلاق؟

قالوا: إن خُيرت وقبلت؛ فهذا طلاق، وإن لم تختر ورفضت، لا يحدث طلاق وتنتهى المسألة.

إذن.. بعد أن خيرهن وقبلن، أراد الحق سبحانه أن يوضح لهن المبادئ التى سيعشن عليها، فقال سبحانه: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٠]، انتقل الخطاب هنا من كلام النبى -ﷺ- عن ربه، إلى كلام الله لهم مباشرة، لأنهن

اخترن الله ورسولـه، فارتفعن إلى مستوى أن يخـاطبهن الله تعالى، لأنهن أهل لذلك.

هنا القـرآن الكريم قـدم الحـديث عن الفـاحـشـة، لأن فى عـادة التـقنين والإصلاح، أن «درء المفسدة، مقدم على جلب المصلحة».

فمثلاً قبل أن نتوضأ للتـطهر، نُبرئ أنفسنا من النجاسة، ولو أن هناك اثنين أحدهمـا رمانى بحـجر، والآخـر ألقى إلىَّ تفاحـة فى وقت واحد، فـهل آخذ التفاحـة أم أرد الحجر؟ بالطبع أتقى الحجـر، لأن درء المفسدة ـ كمـا قلنا ـ مقدم على جلب المصلحة. فكان لابد أن يأتى المنهج أولاً بالكلام عما يلوث ويدنس، حتى نترفع عنه، فمثـلاً الثوب المتسخ، هل ينفع أن «تكويه» قبل أن تغسله؟ لا، بل لابد أن تغسله وتنظفه أولاً، ثم «تكويه» بعد ذلك.

فكأن الله تعـالى يقول: يا نسـاء النبى إياكن أن يدور بخلدكن أنكن مـجرد زوجات للرسول -ﷺ-، وأنكن أخذتن هذه المنزلة وانتهى الأمر، لا.. بل لابد أن تتـقين الله، وتكن قـدوة لغـيركن، وكـون الله تعالى يـحذر نسـاء النبى من الفاحشة فـهذا ليس انتقاصًا من قدرهن لأن الله تـعالى قال لرسول -ﷺ- وهو المعصوم: ﴿**لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [الزمر: ٦٥].

إذن.. فهذا ليس انتقاصًا من قدرة -ﷺ-، وليس انتقاصًا من قدر زوجاته الطاهرات، وإلا فهناك رسل خانتهم نساؤهم وكفرن بالله.

قال تعالى: ﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ**﴾ [التحريم: ١٠].

ومضاعـفة العذاب لأنهن قدوة، لأنها فـعلتها وهى فساد فى ذاتهـا، وفساد

لأنها أصبحت قدوة في بيت نبي.

كذلك إن فعلت حسنة، تأخذ أجرها مرتين لماذا؟ لأنها فعلت صالحًا في ذاتها. مثل غيرها، ولأنها صارت أسوة حسنة لغيرها.

وقوله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [الأحزاب:٣٢].

كلمة: «أحد» استعملت في اللغة بما يأتي: في العدد تقول: أحد عشرة إذا كان المعدود مذكرًا، وإذا كان مؤنثًا تقول: إحدى عشرة، لكن في النفي لا تستخدم إلا بصيغة واحدة فتقول: ما عندي أحد، ولذلك جاء قول الله تعالى في سورة الإخلاص: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٤].

وفي اللغة هناك شيء اسمه جنس، وتحته شيء اسمه نوع، وتحته شيء اسمه أفراد، فالجنس مثل إنسان يقابله جن، فالإنسان جنس، وهذا الجنس أنواع كالذكر والأنثى، فالذكر نوع والأنثى نوع، ولم يصيرا نوعين إلا لاختلاف نشأ عنهما بعد اتفاق كان في الجنس، فهما جنس لهما حد مشترك: حي، ناطق، مفكر، لكن هما نوعان، وكل واحد منهما له خصوصية فلا تخلط النوعين مع بعضهما فمعلوم أن الزمن ظرف للأحداث، ولكن أي أحداث؟ إن كانت أحداث حركة فهي خاصة بالنهار، وإن كانت أحداث سكون أو نوم فهي خاصة بالليل.

إذن.. الليل والنهار نوعان، وجنسهما زمن، وكل زمن له خصوصية، فلا تخلط هذا على ذاك، واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل:١ ـ ٤].

فالليل والنهار متناقضان ولكنهما متكاملان متقابلان، هذا له مهمة، وهذا له

مهـمة، مثل الإنسـان تمامًا ذكر وأنثى، وكل منهـما يكمل الآخر، وكـلاهما له مهمة تتناسب مع طبيعـته وتكوينه، فإن حاولت أن تحول النهار إلى ليل أو الليل إلى نهار وتعمل الرجل امـرأة والمرأة رجلاً فقد خالفت طبيـعة الشيء التى خلقه الله لها، وأفسدت مهمته.

إذن.. نحن عندنا جنس، وعندنا نوع، والنوع ينقـسم إلى أفراد، فهو غـير متسـاوٍ لأنه لو كان متسـاويًا لكان مكرراً لا فائدة فيه لكنه يخـتلف فى الأفراد، وكل فرد له ميزة فليس هناك فرد مثل الآخـر بل هذا له ميزة وذاك له ميزة أخرى تختلف عن الأول... لماذا؟ حـتى يرتبط الناس بعضهم ببعض ارتبـاط حاجة لا ارتباط تفضل، فالذى يكنس الشارع مميـز عنك لأنه يقوم بعمل تستنكف أنت أن تؤديه، مع أنه عمل ضرورى.

فله عمل لا تستطيعه أنت، مع أنك تبـذل جهدك فى تحصيل العلم والبحث والدراسة، وحين يحـتاج هذا العامل إلى فتوى منك يأتيك وتجيـبه دون أن تأخذ منه أجراً، مع أنك لو طلبت منه أن يكنس لك البيت لابد أن تعطيه أجراً إذن.. فكل واحد له مهـمة، ولا يوجد واحد مثل الآخر. كـما أن كل واحد له جنس وله نوع وله فردية شخصية.

فـهنا القرآن يخـاطب نسـاء النبى -ﷺ- مـبينًا أنهن نسـاء، أى: نوع من الإنسان، ولكن لهن خصوصية، إنهن نساء النبى -ﷺ-، فغيرهن لسن مثلهن يقول تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾، لأنهن أسوة؛ ولذلك ضاعف لهن ثواب الطاعات كما ضاعف عقاب المعصية.

وقوله تعالى: ﴿فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ أى: إن

اضطررتن أن تكلموا رجالاً فتكلمن بصوت لا ليونة فيه، ولا تكسر، ولا ميوعة ولا معه نظرات أو اقتراب، لأنكن عرضة للكلام مع بعض ضعاف الإيمان أو من فى قلوبهم مرض فلا تعطين لهم هذه الفرصة، وهذا ليس معناه أن تتكلمن مع الناس بغلظة أو بخشونة، ولكن المطلوب منكن كما قال تعالى: ﴿وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾، ولذلك حين تتكلم فلا تأخذ إلا بأذنك، وإياك أن تمد عينك لها، أو تمد هى عينها لك، حتى لا يحدث فى النفس شىء ويطمع من فى قلبه مرض.

إذن.. الحق سبحانه وتعالى يريد أن تبتعد المرأة عن أى فعل يجرئ عليها من فى قلبه مرض.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب:٥٩].

لأن الرجل حين يجد المرأة تستر مفاتنها يعرف أنها ليست ممن يعرضن جمال أجسامهن على الرجال فلا يتجرأ على أن يكلمها أو يغازلها ويعرف أنها ملتزمة.

وقال بعض الحكماء: إذا رأيت امرأة تظهر محاسنها لغير محارمها فقل: إلحاح المرأة فى كشفها، إلحاح فى عرضها على الرجل.

إذن.. قول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى﴾ أى أقرب إلى أن يعرفن بأنهن لا يعرضن مفاتنهن فلا يتعرضن لمعاكسة البذئ أو المستهتر وهذا ليس طعنًا فى المرأة أو فى نساء النبى -ﷺ-، ولكن من يراهن من الناس لا نضمن إيمانه أو تقواه.

ويقول الحق سبحانه: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ﴾ [الأحزاب:٣٣].

أى: استقروا فى البيوت. . لماذا؟ لأن المرأة لو أدت مطلوبها فى البيت لما اتسع زمن الليل والنهار لها، بدليل أن المرأة التى تنشغل بمصالح بيتها ومصالح زوجها وأولادها لا يكفيها النهار كله، وتجدها دائمًا مشغولة بمصالح البيت والأولاد، ولذلك نقول للمرأة: ابحثى عن المصارف للمصالح التى يتطلبها البيت واصنعيها خارج بيتك عند أهل الصنعة وانظرى إليها كم تتكلف، فلو أنك فى كل أسبوع أتقنت عملاً واحدًا منها لكنت فى سنة واحدة لا تحتاجين لأى عامل فى البيت. ومعنى: ﴿وَلا تَبَرَّجْنَ﴾، البرج هو الحصن، وتبرج من الحصن، أى: برز منه، فمعنى: ﴿وَلا تَبَرَّجْنَ﴾ أى: لا تخرجن من حصن التستر.

ومعنى: ﴿تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾ هو ظهور العورة دون أن يجد الناس فى ذلك غضاضة، خاصة إذا كان هؤلاء النساء عبيدًا أو إماء أو جوارى. . ويقصد بالجاهلية الأولى الفترة التى سبقت الإسلام، ومع ذلك فإن من كانوا فى الجاهلية كانت لهن من الكرامة ما يفرق بين الحرة والأمة.

ولذلك فى بيعة النساء أخذ رسول الله -ﷺ- العهد على المؤمنات: «بألا يزنين ولا يسرقن»، فقالت هند زوجة أبى سفيان: أو تزنى الحرة يا رسول الله! فكأنه حتى فى فترة الجاهلية لا تزنى الحرة، لأنها تستنكف أن تنحدر إلى هذا الخُلق.

وإذا كان الحق سبحانه قال هنا: ﴿وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾.

فإنه قال سبحانه وتعالى فى آية أخرى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ [النور: ٦٠].

فكأنه سبحانه يريد أن يرفع الحرج عنهن بشرط ألا يتبرجن بزينة لأنك فى زماننا هذا ترى أحيانًا امرأة قد بلغت من الكبر عتيًّا ومع ذلك تجدها تضع المساحيق والألوان على وجهها! وكان المفروض عليها أن تحترم سنها وشيخوختها وتطيع أمر ربها.

قال الحق سبحانه: ﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ ﴾ [الأحزاب:٣٣].

هذه عمدة التكاليف ولذلك لا تجد صلاة إلا مقرونة بالزكاة.. لماذا؟

لأن الزكاة ببعض المال، والمال فرع العمل، والعمل فرعه الزمن، والزمن تأخذه الصلاة، فأنت ضحيت بكل الزمن بالسبعة وتسعين فى المائة مع الاثنين ونصف فى المائة التى تخرجها فى الزكاة.

وأيضًا يُفهمُ منها أن للمرأة المسلمة ذمة مالية منفصلة عن ذمة الغير سواء كان أب أو زوج، بدليل أن الله تعالى أمرهن بإيتاء الزكاة، مما يدل على أنهن يملكن أموالاً بلغت حد النصاب، وحال عليها الحول، وهذا يدل على أن للمرأة فى الإسلام ذمة مالية، مع أن الحضارة الحديثة المال فيها للأب حينما تكون البنت عنده، وبعد أن تتزوج يصير المال إلى زوجها، وأهم من هذا كله أن هذه الحضارة التى يتشدق بها البعض تلغى اسم أبيها بعد زواجها وتنسبها إلى زوجها فتقطع صلتها بأبيها، لكن الإسلام حافظ على كرامة المرأة واسمها وذمتها المالية، فنحن عندنا عائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنهما فلا ننسبها إلى زوجها وإن كان هو رسول الله -ﷺ-! ولكن إلى أبيها.

وبعض العلماء قالوا إن البرج[1] هو الاتساع فى الشىء كأنه يقول لها: لا

---

(١) فى مختار الصحاح: البرج الحصن ركنه، وجمعه بروج وأبراج وربما سُمى الحِصن به، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء:٧٨].

توسعى أماكن ظهور الجسد ويكفيك الوجه والكفان.

والمسألة ليست فى إقامة الصلاة، وإيتـاء الزكاة فقط، ولكن طاعة الله تعالى ورسوله -ﷺ- تأتى فى المقدمة لأن هناك مسائل كثيرة غير الصلاة والزكاة.

❑❑❑

من خصائص آل البيت

من الخصائص التى اختص الله بها آل البيت: تحريم الصدقة عليهم صغاراً كانوا أو كباراً، فلا يحل لهم الأكل من الصدقة.

روى أبو هريرة -رضي الله عنه- أن الحسن بن على أخذ تمرةً، من تمر الصدقة فجعلها فى فيه، فقال رسول الله -ﷺ-: «كخ.. كخ».

«ارم بها، أما علمت أنَّا لا نأكل الصدقة؟!»(١).

وفى روايةٍ أخرى: «أما علمت أنَّا أهل البيت لا تحل لنا الصدقة؟!».

وفى هذا الحديث تحريم الصدقة على رسول الله -ﷺ-، وعلى أهل بيته.

وفى الحديث دليل على أن من وجد فى طريق تمرةً أو نحوها من الطعام يُباح له أكلها، ولا يكون حكمها حكم اللقطة التى سبيلها التعريف.

وقد صح عن عبد المطلب بن ربيعة عن النبى -ﷺ- قال:

«إن هذه الصدقات إنما هى أوساخ الناس، وإنها لا تحل لمحمدٍ، ولا لآل محمد»(٢).

وهذا الحديث أصل فى الورع، وهو أن ما شك فى إباحته يتوقاه المرء ما استطاع إليه سبيلاً.

فهذا الحسن بن على طفل صغير، ومع ذلك يعلمه الرسول -ﷺ- البُعد عن المنهيات.

---

(١) حديث صحيح. أخرجه البخارى (٢/ ١٥٧)، ومسلم (١٠٦٩)، وأحمد (٢/ ٤٠٩، ٤٤٤، ٤٧٦)، وابن أبى شيبة (٣/ ٢١٤) فى مصنفه، والبيهقى (٧/ ٢٩) فى سننه الكبرى.

(٢) حديث صحيح. اخرجه مسلم (١٠٧٢)، وأحمد (٤/ ١٦٦).

«كِخْ. . كِخْ» بفتح الكاف أو كسرها وتسكين الخاء، وهى كلمة تقال: لردع الصبى عند تناوله ما يستقذر.

وفى روايةٍ: فنظر إليه فإذا هو يلوك تمرة فحرك خده، وقال: «ألقها يا بُنى، ألقها يا بنى».

ويجمع بين هذا وقوله: «كخ كخ» بأنه كلَّمه أولاً بهذا، فلما تمادى قال له: «كخ كخ» إشارة إلى استقذار ذلك له.

ويحتمل العكس بأن يكون كلمه أولاً بذلك فلما تمادى نزعها من فمه.

وتحريم الصدقة على آل البيت تتجلى من قوله عليه الصلاة والسلام:

«إنا لا تحل لنا الصدقة».

وفى روايةٍ أخرى: «إنا لا نأكل الصدقة».

وفى روايةٍ أخرى: «إن الصدقة لا تحل لآل محمدٍ».

وفى روايةٍ أخيرة: «إنا آل محمدٍ لا تحل لنا الصدقة».

وقد كان النبى -ﷺ- يتحرى فى الصدقات، فيروى أبو هريرة أن رسول الله -ﷺ- قال: «إنى لأنقلب إلى أهلى، فأجد التمرة ساقطة على فراشى أو فى بيتى، فأرفعها لآكلها، ثم أخشى أن تكون من الصدقة فألقيها»[1] .

وقد مرَّ النبى -ﷺ- بتمرةٍ فى الطريق، فماذا فعل؟

قال أنس -رضي الله عنه-: قال الرسول -ﷺ-: «لولا أنى أخاف أن تكون من الصدقة لأكلتها».

«لأكلتها» ظاهر فى جواز أكل ما يوجد من المحقرات ملقى فى الطريق.

---

(١) حديث صحيح. أخرجه البخارى (٢٤٣٢)، ومسلم (١٠٧٠)، وعبد الرزاق (٦٩٤٤) فى مصنفه.

دعوة نساء آل البيت إلى الطاعة

يقول تعالى: ﴿ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ عطف رسول الله على ربه، لكن الفعل واحد، وإذا استقرأنا آيات القرآن الكريم نجد مرة يقول: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ﴾.

وفى آية أخرى يقول: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ [آل عمران:١٣٢].

يقول سبحانه: ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء:٥٩].

فساعة يقول: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ فكأن لله فى الأمر طاعة فى الإجمال وللرسول طاعة فى التفصيل، فحين يأمرنا الله بأداء الزكاة نطيعه، ولكن كيف نؤديها، على ضوء ما يوضحه النبى -ﷺ- لنا.

إذن.. طاعة لله تعالى فى إجمال الحكم، وللرسول طاعة فى تفصيله؛ ولذلك يقول الرسول -ﷺ-: «صلوا كما رأيتمونى أصلى»(١). ويقول -ﷺ-: «لتأخذوا مناسككم»(٢).

وإذا قال: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ فهنا توارد أمر الرسول مع أمر ربه فهى طاعة واحدة.

وهب أن الرسول -ﷺ- له فعل، والله تعالى له فعل، فلم يفصل الله عن

---

(١) حديث صحيح. أخرجه البخارى (١/ ١٦٢)، (٨/ ١١)، والشافعى (٣٧٤)، (٥٥) فى مسنده، والبيهقى (٢/ ٣٤٥) فى السنن الكبرى، وابن عبد البر (٥/ ١١٧) فى التمهيد.

(٢) حديث صحيح. أخرجه مسلم (١٢٩٧)، وأبو داود (١٩٧٥)، وأحمد (٣/ ٣١٨، ٣٣٧)، (٣/ ٣٧٨)، والبيهقى (٥/ ١٣٠) فى سننه الكبرى.

الرسول بدليل أن الفعل يكون لهما مثل قوله تعالى: ﴿ **وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ** ﴾ [التوبة:٧٤].

فالفعل هنا واحد؛ وكذلك فى قـوله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ** ﴾ [التوبة:٦٢]. لأن رضاهما واحد فإرضاء الله وإرضاء الرسول واحد لا ينفصل، ورضا الرسول -ﷺ- من رضا الله تعالى.

❑❑❑

نساء النبى ﷺ وذكر الله تعالى

يقول الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيراً﴾ [الأحزاب:٣٤].

آيات الله هى القرآن الكريم، والحكمة هى حديث رسول الله -ﷺ-، والذكر هو استحضار المعلومة التى كانت مرة فى بؤرة الشعور ثم تحولت إلى حاشية الشعور، فإياك أن تغفل عنها، واجعلها فى بالك دائمًا.

إذن.. فالذكر هو استعادة معلومة كانت فى بؤرة الشعور ثم حُفظت، وبعد ذلك تستدعيها المناسبة، والذكر أكبر من كل عبادة، قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥].

وذلك لأن العبادات كلها، تحتاج إلى وقت وجهد وعدم انشغال بشىء غيرها، لكن ذكر الله يكون فى بالك وأنت تأكل، وأنت تشرب، وأنت تمشى، وأنت جالس، وأنت نائم، وأنت تعمل، فليس له وقت محدد؛ ولذلك يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيراً﴾ [الأحزاب:٤١].

فإياك أن تظن أن ذكر الله تعالى له مناسبات أو مواعيد، ولكن اذكر الله فى جميع أوقاتك، وعلى كل حال، فكأن الذكر أهون عملية عليك، لأنه لم يتطلب منك زمنًا خاصًا ولا تفرغًا تامًا، فتذكر الله فى عملك وأنت على راحتك، وفى نومك، وجلوسك، ومشيك وحركتك.

ولذلك يقول ربنا سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن

كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ [الأحزاب: ٢١]. لأن من عظمة سيدنا محمد -ﷺ- أن الله لم يخل من باله أبداً، ولذلك كان يقول: «إن عينىَّ تنامان، ولا ينام قلبى»[١] .

❑❑❑

(١) حديث صحيح. أخرجه البخاري (٤/ ٢٣٢)، وأحمد (٢/ ٢٥١، ٤٣٨)، وعبد الرزاق (٣٨٦٤) في مصنفه، وأبو داود (الطهارة/ ب ٨٠)، وابن حبان (٢١٢٤)، وابن خزيمة (٤٨).

مضاعفة الأجر لنساء النبى ﷺ

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣١].

أى: تخضع، وتتوسل إلى الله وتدعوه، لأن الله تعالى يحب من الطائع له، أن يدل الناس بطاعته عليه، ولذلك يقولون: «رب معصية أورثت ذلاً وانكسارًا، خير من طاعة أورثت عزًّا واستكبارًا»، لماذا؟

والمعنى: مبالغة فى الصلاح والورع حتى ذهب إلى القنوت وهو الخضوع والخشوع. وهنا الأجر على الطاعة مرتين، مثلما يكون الجزاء على المعصية ضعفين.

ومعنى: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ أى: فهو موجود وجاهز فى الجنة من الآن، هنا الأسلوب فيه عظمة الأداء القرآنى: لأنه فى الفاحشة قال: ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ﴾، وفى الطاعة قال: ﴿نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾، فلم يقل: «نضاعف لها العذاب» مثلما قال: ﴿نُّؤْتِهَا﴾، ولم يقل: «تؤتى أجرها مرتين»، لماذا؟ لأنه فى الأولى لم يرد الحق أن يواجه بذاته، ولكن واجه بالعذاب فقط، فقال سبحانه: ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ﴾. مع أن الذى يضاعفه هو الله، وهذه رحمة من الله، لأنه يحب عباده، فقال: ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ﴾، ولم يقل نضاعف لها العذاب، و لكن فى الرحمة والأجر جاء الكلام مباشر، فقال سبحانه: ﴿نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾، فهذا يدل على أن الحق سبحانه وتعالى، يحب خلقه جميعًا، ويتحبب إليهم، ويطلب من العاصى أن يرجع إلى ربه، ولذلك يقول رسول الله

-ﷺ-: «لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من أحدكم وقع على بعيره، وقد أضله فى فلاة. . .»[1] .

وجاء فى الحديث القدسى أن الله تعالى قال: «يا ابن آدم لا تخافن من ذي سلطان مادام سلطانى باقيًا، وسلطانى لا ينفد أبدًا، يا ابن آدم لا تخش من ضيق الرزق، وخزائنى ملآنة، وخزائنى لا تنفد أبدًا، يا ابن آدم خلقتك للعبادة فلا تلعب، وقسمت لك رزقك فلا تتعب»[2] . أى: اتعب جوارحك واعمل واجتهد ولكن لا تتعب قلبك، وتنظر إلى من عنده أكثر منك، والتعب والكلل لا يأتى على الجوارح أبدًا، فالشىء الذى يطيقه الصدر ويتحمله لا يتعب أبدًا، ولذلك الشعراء يقولون:

ليس بحمل ما أطاق الظهر ما الحمل إلا ما وعاه الصدر

إذن. . قوله سبحانه فى الحديث القدسى: «وقسمت لك رزقك فلا تتعب» ليس المقصود به تعب الجوارح، لأن تعب الجوارح مطلوب.

لأن الرسول -ﷺ- يقول: «من بات كالاً من عمل يده، بات مغفوراً له»[3] .

إذن. . قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣١].

---

(١) حديث صحيح. أخرجه البخارى (٨/ ٨٤) بنحوه، ومسلم، وأحمد (٢/ ٣١٦، ٥٠٠)، (٣/ ٨٣)، والترمذى (٢٤٩٨)، (٣٥٣٨)، والبيهقى (١٠/ ١٨٨) فى سننه الكبرى.

(٢) لا أصل له.

(٣) حديث ضعيف. وأخرجه ابن عساكر (٤/ ٢٨٤) فى تهذيب تاريخ دمشق، وانظر: الدرر المنتثرة (١٥٦).

قلنا: إن الحق فى قوله: ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ﴾ لم يتكلم عن ذاته ويقول: نضاعف، وإنما قال فى إيتاء الأجر مرتين: ﴿نُؤْتِهَا﴾ فكأنه فى جلب الخير أسنده إلى نفسه مباشرة، وفى مسألة الشر جاء بها مبنية لما لم يسم فاعله.

وقلنا إن هذه شهادة أن الله يحب لعبده أن يكون طائعًا، ويحب لعبده أيضًا ألا يكون عاصيًا ويفرح به حين يتوب إليه.

هنا يلاحظ فى قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ﴾ أن قياس الأسلوب أن يقول: «ومن تقنت»، لأنه قال: ﴿وَتَعْمَلْ صَالِحًا﴾ وذلك لأن «من» تأتى للمفرد مذكرًا ومؤنثًا، والمثنى بنوعيه، وللجمع بنوعيه فتقول: من جاءك فأكرمه، من جاءتك فأكرمها، ومن جاءاك فأكرمهما، ومن جاءوك فأكرمهم، ومن جئنك فأكرمهن.

إذن . . «من» تستخدم للكل فمرة يراعى لفظها فتكون مفردة، ومرة يراعى معناه فتكون مجموعة أو مؤنثة فقال: ﴿وَمَن يَقْنُتْ﴾ وقال: ﴿وَتَعْمَلْ﴾؛ ولذلك ابن مالك ـ رحمه الله ـ قال: ومن وما وأل تساوى ما ذكر، أى: تستعمل فى كل الاستعمالات.

ومعنى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ قلنا إن الرزق هو ما ينتفع به فكل شىء ينتفع به كالمأكل والمشرب، والمسكن والمرافق، والعلم، والحلم، والخلق الحسن، والزوجة الصالحة والأبناء البررة، كل هذا رزق. فالرزق هو ما ينتفع به، وما أكثر ما نحتاج فى الانتفاع.

هنا الحق سبحانه يقول: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ فهل الرزق هو الكريم،

أم أن من يـرزق هو الكـريم؟ من يـرزق هو الكـريم. لكـن هنا وصـف الرزق بالكريم، لأنه يتكلم عن الآخرة. ورزق الدنيا له أسباب، فالسبب هو الرازق من والد، أو من أجير، أو من تاجر يشترى ويبـيع للمستهلك، فالذى يجرى الرزق على يده هو الذى يوصف بالكرم لكن فى الآخرة يأتيك الرزق بدون سبب لأنك مع خالق الأسباب فالرزاق هو الكريم.

❑❑❑

طلاق زينب وزواجها بالنبى ﷺ

يقول الحق سبحانه: ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** ﴾ [الأحزاب:٣٦]، ساعة تسمع ﴿ **وَمَا كَانَ** ﴾ اعلم أن معناها لا يمكن أن يرد فى باب العقل أن مؤمنًا أو مؤمنة لا يمتثلان لأمر قضى به الله ورسوله، وإلا فإن حدث ذلك فهو دليل على عدم إيمان بالله ورسوله -ﷺ-، ومع أن الله أعطى الإنسان حرية الاختيار، لكن هناك فرقًا بين اختيار داخل فى التكليف إن شئت فعلته أو لم تفعله، وشىء فى إيجاد التكليف فليس لهم خيار فى الإتيان بشىء من التكليف لكن الله إذا كلفهم فهو صاحب التكليف وكونهم يطيعونه أو يخالفونه فهذا موضوع آخر؛ فهناك فرق بين خيار التكليف وخيار التكوين.

ومادام ثبت أنهم مؤمنون بالله ورسوله كان يجب عليهم أن يرتضوا الأمر.

هذه القصة صال المستشرقون فيها وجالوا وجعلوا منها ومن زوجات النبى -ﷺ- قضية للطعن فى رسول الله -ﷺ-، فزعموا أن زينب بنت جحش أعجبت الرسول فأراد من زيد أن يطلقها ليتزوجها هو!! وهذا كذب وافتراء، لماذا؟ لأن زينب كانت بنت عمة رسول الله -ﷺ- وكان مكلفًا بإدارة أموالها ورعاية شئونها، ولو أراد أن يتزوجها من البداية ما منعه أحد، بعد ذلك تجدهم يتحججون بأن الله شهد بذلك فى قوله تعالى: ﴿ **وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ** ﴾، نقول لهم: إن أردتم أن تعرفوا ما أخفاه رسول الله فخذوه مما أبداه الله. فما الذى أبداه الله؟ الذى أبداه الله وأراده فى هذه القضية هو قوله تعالى: ﴿ **لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا** ﴾ [الأحزاب:٣٧].

كـذلك هم يقولون إن قلب مـحمـد -ﷺ- انشغل بزينـب بنت جحش. فلماذا يجعلون هذا الانشـغال انشغالاً جنسيًّا، ولماذا لا ينظرون إلى القصة من بدايتها؟

فحينما ذهب رسول الله -ﷺ- ومن معه ليخطب زينب لزيد، ظن أخوها عبد الله وظنت هى وظنت أختها أن رسول الله -ﷺ- سيخطبهـا لنفسه، فلما عرفـوا أنه جاء ليخطبـها لزيد صـدموا وقالوا: كـيف نزوجها لعـبد؟ وغضـبوا وحزنوا، ولم يوافقوا إلا بعد أن علموا أن هذا أمر من الله ورسوله لحكمة يعلمها سبحانه، فوافقوا.

فحـين يقول المسـتشرقـون إنه انشغل بها، نقـول لهم: لو كان ذلك صـدقًا لانتهز الرسول الفـرصة حينما شكا إليه زيد من أن زينب لا تحـبه كزوج وتعامله بتكبر، ونصحه بأن يطلقها، لأن زينب كانت ترى أنـها قرشية وبنت عمة رسول الله -ﷺ-، وهو مولى وعبد!! فهى أطاعت أمر الله فى الزواج منه، ولكنها لم تتوافق مـعه لأن الأمر للقـالب وليس للقلب. وزيد -رضي الله عنه- كرجل كـانت تعز عليه نفسه ويغـضب من ذلك، ولكن حبه لرسول الله -ﷺ- كان يجعله يصبر على ابنة عمته التى اختارها له وزوجها له، لأن هذا شرف كبير.

ولهذا نقول لهم: ابحثوا فى علاقة الرجل والمرأة لتروا أن الذى خلقنا، خلق الرجل للمـرأة، وخلق المرأة للرجل؛ ولذلك السيـدة العربيـة لما جاءت لتـوصى ابنتها أم إياس لما خطبها الحارث وكانت بنتًا ذكيـة، فأمها تعظها فتقول لها: «أى بنية إنك لو تركت بلا نصيحة، لكنـت أغنى الناس عنها، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها وشدة حـاجتهما إليهـا، لكنت أغنى الناس، ولكن النساء للرجال خلقن، ولهن خلق الرجال...» ونحن نعلم أن الأب يستطيع أن يجعل

ابنته فى أحسن عيشة مأكلاً ومشربًا وملبسًا ومسكنًا، ولكنه لا يستطيع أن يجعلها تستغنى عن الزوج، مهما هيأ لها من أسباب الراحة والسعادة. لأن نفسها تتوق إلى هذا! ولذلك هذا هو السبب فى أن الرسول -ﷺ- يقول: «لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»[١] .

لماذا؟ لأنه يعطيها ما يعطيه الأب والأم والأخوة، وأكثر من ذلك مما لا يستطيعون ولا يقدرون؛ ولذلك تقول الأم العربية فى نصيحتها لابنتها أم إياس: «وإن النصيحة لو تركت لفضل أدب، لتركت ذلك منك، ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل».

فالخلاصة أن الرجل للمرأة والمرأة للرجل، ومهما ضربت على البنت من أسوار العز والجبروت، لا يمكن أن تعيش بدون رجل.

إذن.. المسألة كانت صعبة بالنسبة لزيد بن حارثة رضى الله تعالى عنه، لأن الزواج جعل الله له ثلاث مراحل، كما قال خالق الرجل والمرأة سبحانه وتعالى: **﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾** [الروم: ٢١].

هذه المراحل هى: السكن، والمودة، والرحمة، فأول مرحلة هى السكن، بمعنى سكون من حركة الخارج واطمئنان وراحة، وهى أسعد مرحلة، فإن امتنع السكن لمنغصات الحياة، فعلى الأقل خذوها من باب المودة، لأنك لو عاشرت صديقًا مدة من الزمن، تكون عشرتك ومودتك له لها عمق، فتتحمله من أجل هذه المودة التى كانت بينكما فى السابق، فإن لم يعد هناك سكن أو مودة،

(١) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (نكاح/ ب ٤١)، والترمذى (١١٥٩)، وأحمد (٤/ ٣٨١)، (٥/ ٢٢٧)، وابن أبى شيبة (٤/ ٣٠٦)، والحاكم (٢/ ١٨٧).

فليرحم الرجل زوجته إن لم تكن على وفق ما يريد بأن كبرت أو هرمت أو مرضت وهى تبادله هذه الرحمة.

فزيد بن حارثة -رضي الله عنه- لم يجد فى زواجه هذا، سكنًا ولا مودة ولا رحمة، فذهب يشتكى لسيدنا رسول الله -ﷺ-، فالرسول كان يقول له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب:٣٧].

فبالله عليكم لو كان رسول الله فى باله شىء، ألم يكن من السهل أن ينصحه بطلاقها حينما شكا له منها؟!

شىء آخر أن رسول الله -ﷺ-، إن كان قد فكر فى أمر زينب، فلماذا تعدلون به عن التفكير فى الغريزة، لماذا لا تعدلون به إلى مرتبة الإنصاف، لأنه أرغمها على أن تتزوج زيداً وهى له كارهة، لأنها قرشية وبنت عمة رسول الله -ﷺ-، وهو مولى، وعرف الرسول أنها كانت غير راضية، لا هى ولا أخوها ولا أختها. فإذا وجد أنها قلقة وغير مستقرة فى حياتها مع زوجها، أليس من واجبه أن يطيب هذا الخاطر، ويجبر الكسر الذى حدث ويضمها إليه لتكون أمًّا للمؤمنين.

فهؤلاء الناس لم يحسنوا الظن برسول الله -ﷺ-، فتجدهم يقولون لك: يا أخى إذا كان الله تعالى يقول: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب:٣٧].

نقول لهم: الخشية نوعان: خشية من شىء تخاف أن يضرك، وخشية استحياء، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِىَّ فَيَسْتَحْيِى مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِى مِنَ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب:٥٣].

إذن الخشية التى كان يخشاها الرسول -ﷺ-، أنهم سيقولون عنه إنه تزوج من زوجة ابنه بالتبنى، مع أن الله أراد إلغاء التبنى. . ومادام الله ألغى التبنى فلا حجة لهم. والرسول -ﷺ- جاء لينقض عادات وتقاليد الجاهلية، فلابد أن يتحمل وأن يكون أول واحد يتصدى لها.

ورسول الله -ﷺ- حينما يستحيى من أن يقول الناس عنه ذلك، فهو يريد أن يبرئ عرضه من أى شبهة، فهو ليس خائفًا منهم، ولكنه لا يريد أن يقف موقفًا فيه شبهة، ولذلك حينما مر عليه الصحابة وهو يتكلم مع زوجته صفية، لووا أنفسهم عنه، فقال -ﷺ-: «على رسلكما إنها صفية»، لأنه يريد أن يُبعد عن نفسه أى شبهة، فقالوا له: وهل نشك فيك يا رسول الله فقال: «إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم»[(١)] .

إذن. . رسول الله -ﷺ- عنده استحياء، ولا أدل على هذا وهو فى قمة انتصاره على قريش، ودخوله مكة فاتحًا، سماهم الطلقاء، وكان قد أهدر دم عبد الله بن سعد بن أبى السرح، لأنه نال من رسول الله كثيرًا، فلما أهدر دمه، جاء عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه يطلب من رسول الله الأمان لعبد الله بن سعد، فلم يرد عليه رسول الله وسكت، انتظارًا لأن يقتله أحد من المسلمين، ولكن عثمان رضى الله تعالى عنه أعاد السؤال وكرره، فلما استحى رسول الله -ﷺ- من عثمان، أمن عبد الله، فلما أمنه وأخذه عثمان وخرج من مجلس رسول الله -ﷺ-، قال الرسول للحاضرين: «ألم يكن فيكم رجل رشيد يقوم إلى الرجل فيقتله؟».

فقال عباد بن بشر، رضى الله تعالى عنه: يا رسول الله إن عينى كانت فى

(١) حديث صحيح. أخرجه البخارى (٣/ ٦٤)، ومسلم (٢١٧٥)، وأحمد (٦/ ٣٣٧)، وأبو داود (٢٤٧٠)، وابن ماجه (١٧٧٩).

عينك وأنا أنتظر منك إشارة أن أقتله، لكنك لم تفعل، فقال رسول الله -ﷺ-: «ما كان لنبى أن تكون له خائنة الأعين»(١) .

وكان النبى -ﷺ- إذا غاب زيد يذهب ليسأل عنه، فذهب مرة فرأى زينب، فلما دخل ووجدها مشغولة بشغل البيت وكانت حسنة المظهر فقال: تبارك الله أحسن الخالقين، مثلما ترى ابنتك وقد صارت عروسًا فتقول: ما شاء الله، كما أنه -ﷺ- أراد أن يخفف عنها ما هى فيه، ويطيب خاطرها لأنه زوَّجها لزيد مع أنها لم تكن راغبة فيه.

فلما حضر زيد قالت له: لقد جاء رسول الله -ﷺ- وسأل عنك وقال لى: ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون:١٤].

فقال لها زيد رضى الله تعالى عنه: «لو كان الرسول -ﷺ- يريدك لطلقتك لتتزوجيه»(٢) .

وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ يفهمها الناس على أنه حدث بينهما ما يحدث بين الرجل وزوجته من لقاء جنسى، لكن المعنى أشمل من ذلك، فالوطر هو الحاجة التى تناسب معاش الرجل، فوطر الرجل من المرأة هو السكن والمودة والرحمة، فإذا لم يوجد شىء من هذه الثلاثة فما الداعى لاستمرار العشرة، فالرجل ضاق بها واشتكى إلى رسول الله أكثر من مرة، وفى كل مرة ينصحه بالتمسك بها والصبر عليها. ولكن طلق زيد زينب، فلما انقضت عدتها، قال رسول الله -ﷺ- لزيد: «اذهب إلى زينب فاخطبها علىّ» ـ أى اخطبها لى ـ!! فانظروا أى عظمة هذه، الرسول يأتى بالمطلق ويقول له:

---

(١) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (٢٦٨٣)، والطحاوى (١/ ٤٦٩) فى مشكل الآثار.

(٢) ليس بصحيح.

اذهب إلى المطلقة واخطبها لى مسألة ليست هينة، ولكنه -ﷺ- كان واثقًا من أن زيدًا لم يكن راغبًا فيها ولم يكن نادمًا على طلاقها.

فلما ذهب زيد رضى الله تعالى عنه إلى زينب قال لها: أبشرى يا زينب فإن رسول الله -ﷺ- يخطبك!! فقالت: لا أجيب حتى أسجد لله. فلما عاد زيد وأخبر رسول الله -ﷺ- بما حدث ذهب -ﷺ- ثم دخل عليها بلا استئذان فكيف يفعل ذلك مع أن الزواج لم يتم بعد؟!

قالوا: لا.. إن الزواج قد حدث، وزوجها الله تعالى له، واقرأوا إن شئتم قول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾.

إذن.. فالتزويج قد وقع، فمن حقه أن يدخل عليها بلا استئذان لأنها صارت زوجته؛ ولذلك كانت السيدة زينب بنت جحش رضى الله تعالى عنها حينما تجلس مع أزواج النبى -ﷺ- تقول لهن: «أنا أفتخر عليكن جميعًا بأنكن تزوجتن بأوليائكن ولكن أنا زوجنى ربى فيسكتن جميعًا»[1]، ولم تقل لهن فقط بل قالت لرسول الله أيضًا يا رسول الله: أنا أدل عليك بثلاثة ـ أى لى الدلال بثلاثة أشياء ـ فضحك النبى -ﷺ- وقال: «أما الأولى» فقالت: أما الأولى فجدى وجدك واحد، وأما الثانية: فلأن الله زوجنى من فوق سبع سماوات، وأما الثالثة: فلأن سفيرى فى الزواج لم يكن زيدًا وإنما كان جبريل عليه السلام.

إذن.. هؤلاء الذين يقولون إن الرسول تزوج زينب لأنها أعجبته أو غير ذلك عليهم أن يسكتوا لأن الله هو الذى زوجه من فوق سبع سماوات لحكمة عليا أرادها سبحانه.. لأن هناك فرقًا بين أن يتزوجها هو وبين أن يزوجها الله له بأمر منه سبحانه وتعالى لأنه لا يخالف عن أمر الله.

---

(١) حديث صحيح. أخرجه البخارى (٧٤٢٠).

وكذلك قصته -ﷺ- مع كل زوجاته واقرأوا إن شئتم قول الله تعالى فى سورة التحريم: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم:٥].

إذن.. فالله تعالى هو الذى يزوج رسوله -ﷺ- ويختار له بحكمته العليا، والرسول -ﷺ- ما عليه إلا أن ينفذ أمر ربه سبحانه.

□□□

تعدد الزوجات.. وخصوصية النبى ﷺ

التعدد كان موجودًا ولم ينشئه رسول الله -ﷺ- بل كان موجودًا عند الأنبياء والرسل السابقين، وعند العرب أيضًا، وإذا كنتم تقولون إن الإسلام حدد التعدد بأربع فقط، بينما كان عند رسول الله تسع نساء بدليل أنه أمر من كان من المسلمين متزوجًا بأكثر من أربع: أمسك أربعًا وفارق سائرهن، فهنا خصوم الإسلام يقولون: لماذا لم يفعل الرسول ذلك مع نفسه؟

نقول لهم: الله تعالى حكم بأن زوجات الرسول أُمهات للمؤمنين وما دُمن كذلك فلن يستطيع أحد أن يتزوجهن فمن يطلقها الرسول لن تتزوج، فى حين أن التى يطلقها غيره ستتزوج، فهل من العدل أن تطلق امرأة من رسول الله لتظل دون زواج طول عمرها؟

وشىء آخر، قد يظن بعض الناس أن الله وسع لنبيه فى الزواج أو أنه وسع لنفسه، وهذا خطأ لأن رسول الله -ﷺ- ضيق عليه فى هذا الأمر، لماذا؟ لأن الله تعالى أباح لكل واحد من أمته أن يتزوج أربعًا، إذا متن يأتى بغيرهن، وإذا طلق إحداهن تزوج غيرها، ولكن رسول الله -ﷺ- قال له ربه: ﴿**لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ**﴾ [الأحزاب:٥٢].

إذن.. الرسول -ﷺ- ضُيق عليه فى هذا الأمر، فيا قوم تنبهوا للفرق فى الاستثناء العدد والمعدود، فهناك استثناء فى العدد واستثناء فى المعدود، هل استثنى الله نبيه من أربع إلى تسع فى العدد؟ لا، فقد استثناه فى المعدود لا فى العدد لأنه لو كان استثناه فى العدد كان إذا طلق واحدة جاء بأخرى مكانها ولو ماتت إحدى زوجاته تزوج غيرها، ولكنه ممنوع من الزواج بعد ذلك مطلقًا.

إذن.. الحق سبحانه وتعالى استثناه فى هذا المعدود بذاته، بحيث لو انتهين جميعًا ما صح لمحمد -ﷺ- أن يتزوج!

الاستمتاع بالزوجة بعد إيتاء المهر

يقول الحق سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ [الأحزاب:٥٠].
كيف يقول الله: ﴿أَحْلَلْنَا﴾ مع إنهن أزواج، فلابد إنهن كن محرمات قبل ذلك، وبعد ذلك حلَّلها الله، ومعنى أحله أى جعله حلالاً، فكأن الرسول أخذ بالحل أولاً، بدليل أنه دفع المهر. وقول الله تعالى: ﴿اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾، العلماء قالوا فيها كلامًا كثيرًا، خاصة فى تسمية المهر أجرًا، ومعنى الأجر فى اللغة، جُعل على منفعة موقوتة يؤديها المستأجَر ـ بفتح الجيم ـ لكن النكاح ليس منفعة موقوتة، فلا يتمشى معه كلمة الأجر. فهذا جعل بعض العلماء يقولون: نسمى المهر أجرًا، فرد البعض بأن الأجر منفعته موقوتة، والزواج منفعته مؤبدة ولو بالنية. إذن.. لماذا قال: ﴿آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾؟ قالوا: لأن الله تعالى أخبر الرسول -ﷺ- قائلاً: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ أى: تؤخر استمتاعك بها، أو تتركها وتضم إليك من تشاء، فمادامت الزوجة لك أن ترجئها وتمنعها من القسمة وتضم غيرها، هنا تصبح المنفعة موقوتة بأن تضم، لكن ساعة ترجىء لا تكون موجودة. فهذا ما جعل كلمة أجورهن تأتى هنا.

الرسول -ﷺ-، يعطيه الله فى كل مراحل سيرته، أزكى المواقف وأطهرها وأنبلها، فكلمة: ﴿آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ تفيد أنه لم يستمتع إلا بعد إيتاء المهر، وهل إيتاء المهر ضرورى؟ كان يمكن أن يتزوج ويسمى المهر ويجعله كله مؤخرًا، لكن الأكرم والأحسن أن يعطى المهر، لأن تأخير المهر كله يعطى المرأة حق الامتناع عن مضاجعته، فإن سمحت له بذلك فمن عندها.

إذن.. الرسول -ﷺ- قفل هذا الباب وفعل الأفضل، والأكمل بدفع المهر مقدمًا.

خديجة بنت خويلد رضي الله عنها

خديجة بنت خويلد رضى الله تعالى عنها هى أول من آمن برسالة رسول الله -ﷺ- وكانت رضى الله تعالى عنها تمتلك من الفقه الإيمانى ما يجعلها تدرك بفطرتها أن زوجها إنما هو رسول كريم، فعندما نزل الوحى عليه -ﷺ- لأول مرة فى غار حراء، جاءها الرسول -ﷺ- وهو فى حالة روع ويقول: «زملونى، زملونى».

ولما ذهبت عنه حالة الروع، قال لها:

لقد خشيت على نفسى.

وكانت خشية الرسول من أن لا يكون ما نزل عليه وحيًا من السماء.

لكن خديجة -رضي الله عنها- بفطرة الإيمان قالت:

إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ وتكسب المعدوم، وتَقْرى الضيف وتُعين على نوائب الحق، والله ما يخزيك الله أبدًا[1] .

كان هذا استنباطًا وقياسًا.

ولو سألنا من أين أتت خديجة -رضي الله عنها- بهذا الاستنباط والقياس؟

لقد كان لها من ذكائها ونضجها ما يجعلها تملك الحواس التى تجعلها تطمئن لصدق رسول الله -ﷺ- فيما قال.

أقول ذلك حتى نفهم أن زواج الرسول الكريم -ﷺ- منها وهى فى سن

---

(١) حديث صحيح. أخرجه البخارى (٣)، (٤٩٥٣).

الأربعين بينما كان عمـره خمسة وعشرين عامًا إنما كان ذلك من مشيئة الرحمن سبحانه فى الإعداد الإلهى لرسالة محمد -ﷺ-.

إن الرجل العـادى فى عمـر الخامـسة والعـشـرين لا يمكن أن يفكر إلا فى الزواج بمن تصغره بسنوات.

لكن الله يهيىء من الظروف حتى يتم زواج خديجـة بنت خويلد من محمد ابن عبد الله -ﷺ-.

خديجة -رضي الله عنها- هى أول زوجة لرسول الله -ﷺ-، لأن الرسول عندما بلغ الأربعين من عمره تلقى الرسالة، وكان يحتاج إلى من تفهم وتقدر العبء الملقى على عاتقه، كان يحتاج إلى حنان المرأة الناضجة التى تجيد الفهم والقياس.

لأن الله أراد لرسوله الكريم محمد -ﷺ- ظروفًا تجعل من أقرب المحيطين به من هم أكثر فهمًا له.

هكذا كانت خديجة رضى الله تعالى عنها.

ذلك أننا لو افـترضنا أن رسـول الله -ﷺ- قـد تزوج فى بداية حيـاته بمن تصغره فى العمر وجاءه الوحى، لكان استقبالها للحدث الإيمانى مختلفًا.

فالحدث الإيمانى الجليل كان لابد أن يجد فيه رسول الله -ﷺ- مشقة، وأن يجد فى ذات الوقت حنانًا ممثلاً فى حنان زوجته الأولى السيدة خديجة رضى الله تعالى عنها وأرضاها.

نتأمل حسن استقبالها واستنباطها، عندما يخبرها رسول الله -ﷺ- بمجىء الوحى وبما يقوله الملك جبريل، فتقوله له:

إذا جاءك الوحى أتستطيع أن تخبرنى؟

فيرد رسول الله -ﷺ-: «نعم».

وعندما جاء الوحى؛ قال الرسول -ﷺ- لخديجة -رضي الله عنها-:

«وهل ترين الوحى؟»

فأخذت خديجة رسول الله فى حجرها وقالت له:

هل ترى الوحى؟

ويرد الرسول:

«نعم أراه».

فأزاحت خديجة -رضي الله عنها- الخمار الذى تغطى به رأسها وسألت النبى الكريم -ﷺ-:

أما زلت ترى الوحى؟

قال الرسول -ﷺ-: «لا».

فتقول خديجة رضى الله تعالى عنها: اطمئن يا رسول الله ليس ما يجىء إليك بشيطان، إنما هو ملك من عند الله.. لماذا؟

لأن خديجة -رضي الله عنها- أزاحت الخمار عن رأسها، والشيطان، لا يختفى لمثل هذا التصرف، أما الملك جبريل فهو حيى كريم لا ينظر إلى السافرات.

أىُّ امرأة كانت تستطيع أن تستنبط مثل هذا الاستنباط من مثل هذا الموقف؟!

أىُّ امرأة كانت تستطيع أن تمتلك هذا القدر من الفهم والحكمة؟!

وتأخذ خديجة رسول الله إلى ورقة بن نوفل، فيـخبرهما ورقة بعد أن سمع رسول الله -ﷺ-، وقد حكى لـه ما رآه فى الغار، بأن هذا هو الـناموس الذى كان يأتى موسى عليه السلام ، وبشره ورقة رضى الله تعالى عنه بأنه رسول هذه الأمة وشد على يده وقال له: يا ليتنى فيها جَذَعٌ، ليتنى أكون حيًّا إذ يخرجك قومك.



خديجة بنت خويلد

إنها امرأةٌ لن ينساها التاريخ الإسلامى ما بقيت الدنيا بأهلها.

إنها السيدة التقية، والزوجة الوفية.

عُرفت فى الجاهلية بالطاهرة العفيفة، ولُقّبت فى الإسلام بأم المؤمنين.

مولدها:

ولدت فى أواسط بيوت قريش شرفًا وعزًّا، وسؤددًا ومجدًا، وكان مولدها قبل عام الفيل بخمس عشرة سنة.

وعُرفت بنجابة الرأى، والحزم والعقل، وحسن التصرف، ثم ورثت عن والدها خويلد بن أسد القرشى ثروة طائلة، وتجارة دائرة.

زواجها قبل الإسلام:

كانت خديجة بنت خويلد -رضي الله عنها- محط أنظار الرجال، فالكل يرغب فى الزواج منها، فهى الطاهرة، العفيفة، ذات المكانة والثروة.

وتم زواجها من أبى هالة بن زرارة التميمى، وعاشت معه فى نعمةٍ وسكينة وأنجبت خلال ذلك هالة، وهندًا.

ثم مات أبو هالة، فتزوجت من عتيق بن عائذ بن عبد الله المخزومى، فعاشت معه فترة من الزمان، حتى افترقا، فتقدم لها الكثيرون من أشراف قريش ولكن أبت الزواج مرة جديدة، فقد أحبت التفرغ لتربية الأبناء.

وتمر الأيام وتسمع الطاهرة خديجة بنت خويلد عن الرسول -ﷺ- بصفاته الفاضلة التى عُرف بها قبل البعثة النبوية.

من الصدق، والأمانة، ودماثة الأخلاق، وعلو الهمة، وكرم العشرة، وحسن الصحبة.

فأحبت أن تستأجره ليقود تجارتها، وحدث بالفعل، وقاد الرسول -ﷺ- تجارة خديجة، وأحست بفضله وعلو شأنه.

ومرت الأيام والتجارة تزداد نجاحًا بقيادة الصادق الأمين، وأُعجبت خديجة بأمانة الرسول -ﷺ-، وحسن قيادته للتجارة.

زواجها من الرسول ﷺ :

وتم الزواج بين الرسول -ﷺ-، والطاهرة العفيفة، التى تستحق أن توصف بأنها: «أوفى زوجة فى الدنيا».

ملامح الوفاء فى حياة خديجة:

حقًّا إنها تستحق أن تكون أوفى زوجةٍ فى الدنيا، فإنها آمنت برسول الله -ﷺ- إيمانًا راسخًا إذ كذبه الناس.

وليس ذلك بغريبٍ على امرأةٍ من أوسط نساء قريشٍ نسبًا، وأعظمهم شرفًا، وأكثرهم مالاً وعزًّا.

ومع كل ذلك فقد تحملت ما لم يتحمله الكثير من الرجال، تحملت مصاعب الدعوة الإسلامية فى بداياتها، ووضعت كل أموالها فى نصرتها، وضربت أروع الأمثلة فى البذل والعطاء، والصبر والثبات فى مواطن المحن والبلاء.

إنها أوفى زوجةٍ عرفها تاريخ بنى الإنسان.

عندما نتعرف على شخصية أوفي امرأة عرفها التاريخ الإنسانى نجد أنها شخصية مكتملة الملامح، فنسبها من أشرف أنساب نساء العرب.

أبوها هو خُويلد بن أسد بن عبد العزى بن قُصى القرشى، وأمها هى فاطمة بنت زائدة بن جندب بن رواحة بن حُجر القرشى.

كريمة عند أهلها، سخية على جيرانها، مصونة فى شبابها، عاقلة فى تدبيرها.

تزوجها الرسول -ﷺ- ولها أربعون سنة، وله خمس وعشرون سنة، فهى أسن بخمس عشرة سنة.

ومن أدل الدلائل على وفائها تحملها لمتاعب الدعوة الإسلامية، والمصائب التى واجهت خاتم الأنبياء فى بدء الدعوة، مع أنها كانت تحيا قبل الإسلام حياة الترف والدعة.

فالرجال يعملون لديها، وأموالها تدار فى الشام واليمن.

ومع كل ذلك فلما جاء جبريل عليه السلام إلى النبى فى أول مرة، وضمه إليه، وطلب منه أن يقرأ بسم ربه، وعاد الرسول -ﷺ- إلى بيته، ماذا حدث بعد ذلك؟

لقد رجع النبى -ﷺ- إلى داره يرجف فؤاده، فدخل على خديجة -رضي الله عنها- فقال: «زملونى[1] .. زملونى».

فزملوه حتى ذهب عنه الروع، وقص الأمر على خديجة قائلاً بعد ذلك:

«لقد خشيت على نفسى».

---

(١) زملونى: غطونى.

فقالت -رضي الله عنها-: كلا، فوالله لا يخزيك الله أبدًا، أبشر، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتُعين على نوائب الحق، وتكسبُ المعدوم، وتُقرى الضيف.

وانطلقت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان امرأً تنصَّر فى الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبرانى، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عَمِىَ، فقالت له خديجة:

يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخى، ما ترى.

فأخبره رسول الله -ﷺ- بما رأى وسمع، فقال له ورقة بن نوفل: هذا الناموس الذى نزله الله على موسى عليه الصلاة والسلام، يا ليتنى فيها جذعًا[1]، ليتنى أكون حيًّا إذ يخرجك قومك.

فقال رسول الله -ﷺ-: «أو مخرجى هم؟»[2].

قال: نعم، لم يأت رجلٌ قط بمثل ما جئت به إلا عُودى، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، ثم لم ينشب[3] ورقة أن تُوفى، وفتر[4] الوحى[5].

فما أروع موقف الزوجة الوفية!

لقد يسّرت أمرًا كان عسيرًا.

وهونت موقفًا كان صعبًا.

---

(١) جذعًا: شابًّا، والجذع هو الصغير من البهائم.

(٢) استبعد أن يخرجوه لما اشتمل عليه من مكارم الأخلاق، ولأنه لم يكن فيه سبب يقتضى الإخراج.

(٣) ينشب: يلبث.

(٤) فتر: انقطع.

(٥) حديثٌ صحيحٌ. اخرجه البخارى (٣)، (٤٩٥٣).

أليست هى أوفى امرأةٍ فى التاريخ؟!

إنها بمواقفها العطرة، وأعمالها الحسنى، وكلماتها الجميلة جعلت اسمها مدونًا فى سجل الطهر والعفاف، والهمة والإباء، والصبر والحمية.

إباء الإيمان ضد الكفران.

حمية الصبر والثبات أمام الشدائد العضال.

الوفاء المتبادل:

وظلت خديجة بنت خويلد -رضي الله عنها- بسيرتها العطرة ملء الأسماع والأذهان، حتى بعد وفاتها، ظل الرسول الأمين -ﷺ- وفيًا لها.

فكان رسول الله -ﷺ- لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة، فيحسن الثناء عليها، فذكرها يومًا من الأيام، فأدركت الغيرة عائشة -رضي الله عنها- فقالت:

وهل كانت إلا عجوزًا؟! فقد أبدلك الله خيرًا منها، فغضب رسول الله -ﷺ- حتى اهتز مقدم شعره من الغضب، ثم قال: «لا والله، ما أبدلنى الله خيرًا منها، آمنت إذ كفر الناس، وصدقتنى وكذبنى الناس، وواستنى فى مالها إذ حرمنى الناس، ورزقنى الله منها أولادًا إذ حرمنى أولاد الناس»[1] .

هكذا لا ينسى الرسول -ﷺ- وهو محاطٌ بأعباء كثيرة الوفاء لامرأةٍ ضربت أروع الأمثلة فى الوفاء لدعوتها.

---

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه أحمد (٦/١١٧، ١١٨)، والحاكم (١/١٥، ١٦) وصححه، والسلمى (٢٤) فى آداب الصحبة، وابن عبد البر (٤/١٨٢٣) فى الاستيعاب، والطبرانى (٢٣/١٣، ١٤) فى الكبير.

وتقول عائشة -رضي الله عنها-: كان رسول الله -ﷺ- إذا ذكر خديجة لم يكد يسأم من ثناءٍ عليها، واستغفارٍ لها، فذكرها يومًا، فحملتنى الغيرة، فقلت:

لقد عوضك الله من كبيرة السن!

فرأيته غضب غضبًا، أُسقطت فى خلدى، وقُلت فى نفسى:

اللهم إن أذهبت غضب رسولك عنى، لم أعد أذكرها بسوءٍ.

فلما رأى النبى -ﷺ- ما لقيتُ، قال: «كيف قلت؟!! والله لقد آمنت بى إذ كذبنى الناس، وآوتنى إذ رفضنى الناس، ورُزقت منها الولد، وحرمتموه منى».

ويتجلى قدر الزوجة الوفية عند خاتم الأنبياء من تقديره لصويحباتها، وحرصه على إكرامهن، تقول عائشة -رضي الله عنها-:

ما غرتُ على أحدٍ من نساء النبى -ﷺ- ما غرتُ على خديجة، وما رأيتها؟!

ولكن كان النبى -ﷺ- يُكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة، ثم يُقطعها أعضاءً، ثم يبعث فى صدائق[1] خديجة.

فربما قلت له: كأنه لم يكن فى الدنيا امرأة إلا خديجة؟!!

فيقول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إنها كانت، وكانت، وكان لى منها الولد»[2].

---

(١) صدائق: صويحبات، وصديقات.

(٢) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (٣٨١٨)، ومسلم (٣٤٣٥)، والترمذى (٣٨٨٥)، وابن ماجه (١٩٩٧).

البشارة بالمنزلة الكبرى:

ومن أجل كل ذلك استحقت أوفى امرأة فى التاريخ أن تكون خير نساء الأمة الإسلامية، ويتضح ذلك جليًّا من قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ:

«خير نسائها خديجة بنت خويلد، وخير نسائها مريم بنت عمران»[١] .

فالضمير فى «نسائها» عائدٌ على غير مذكورٍ، لكنه يفسره الحال والمشاهدة، يعنى به فى الدنيا، والمراد أن كل واحدةٍ خير نساء الدنيا فى زمانها.

فالضمير الأول يعود على هذه الأمة الإسلامية، والضمير الثانى يعود على الأمة التى كانت فيها مريم بنت عمران.

فيا لها من مكانة سامية، ورتبة عالية!

ألا يدعو ذلك كل امرأةٍ مسلمة إلى الوقوف مع زوجها عند الشدائد؟!

ألا يحض ذلك كل مسلمةٍ على التخفيف من النكبات التى تنزل بزوجها؟!

هذا هو ما تدعونا إليه أوفى امرأةٍ فى تاريخ بنى الإنسان، وعليه استحقت رضا الرحمن، والبشارة بالفوز بأعلى الجنان.

فهذا جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ، يأتى إلى الأمين محمد - ﷺ - فيقول:

«يا رسول الله، هذه خديجة، قد أتت معها إناءٌ فيه طعام، أو شرابٌ، فإذا هى أتتك، فاقرأ عليها السلام من ربها، وبشرها ببيتٍ فى الجنة من قصبٍ[٢] ،

---

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (٣٨١٥)، ومسلم (٢٤٣٠)، والترمذى (٣٨٨٧).

(٢) قصب: لؤلؤة مجوفة واسعة كالقصر المنيف.

لا صخب فيه، ولا نصب»[١] .

فقالت خديجة -رضي الله عنها-: إن الله هو السلام، وعلى جبريل السلام، وعليك يا رسول الله، ورحمة الله وبركاته.

فما أجل منزلة الصحابية الجليلة، أم المؤمنين، خديجة بنت خويلد!

وما أعظم علمها وفهمها!!

لقد علمت أن الله لا يرد عليه السلام كما يرد على المخلوقين، لأن السلام اسم من أسماء الله تعالى، وهو أيضًا دعاء بالسلامة.

فكأنها تقول: كيف أقول عليه السلام، والسلام اسمه، ومنه يطلب، ومنه يحصل؟!

فيستفاد منه أن لا يليق بالله تعالى إلا الثناء عليه، فجعلت مكان السلام عليه، الثناء عليه، ثم غايرت بين ما يليق بالله تعالى، وما يليق بغيره.

فقالت: «وعلى جبريل السلام» ثم قال: «وعليك السلام».

فمن تمام أدبها ردت السلام على من أرسله إليها، وعلى من بلغه إياه.

وما أجلَّ هذا البيت الذى لا صخب فيه ولا نصب، لا صياح يحتاج إليه فيه، ولا منازعة، بيت الطمأنينة، والأمان، والهدوء، والسلام.

وهكذا استحقت أوفى امرأة فى البيت النبوى الثناء الجميل، والسيرة العطرة فى الدنيا، والنعيم العظيم فى جنات الجليل فى الدار الآخرة.

---

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (٣٨١٧)، ومسلم (٢٤٣٥)، والترمذى (٣٨٧٩)، وابن ماجه (١٩٩٧).

أبناء الطاهرة خديجة:

ومن فضائل أوفى النساء، ومكارمها أن الله تعالى رزق نبيه -ﷺ- منها الولد، ولم يرزق من غيرها مع كثرة زوجاته الطيبات.

فرزق خاتم الأنبياء ـ عليه الصلاة والسلام ـ من خير النساء عدة من الأولاد، ترتيبهم كالتالى:

القاسم وهو أكبر ولده، ثم زينب، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، ثم رقية، ثم عبد الله، و كان يقال له: الطيب، والطاهر.

وكل أولاده -ﷺ- من أم المؤمنين خديجة كانوا قبل الإسلام، ما عدا عبد الله كان فى الإسلام.

وكلهم ماتوا فى حياته -ﷺ- ما عدا فاطمة -رضي الله عنها- كانت وفاتها بعده على خلافٍ فى مدة ذلك ما بين شهرين إلى ستة أشهرٍ.

تلك هى الذرية الطاهرة لأوفى امرأة فى بيت النبوة، وهى زوجة من زوجات خاتم الأنبياء فى جنات النعيم، فهى من سيدات نساء الجنة وأفضلهن.

القدوة والأسوة:

فهلا اقتدينا بسيدة نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد؟!

وهلا اتصفنا بشىءٍ من الوفاء لديننا؟!

وهلا سعينا فى نصرة الإسلام كما سعت أم المؤمنين خديجة -رضي الله عنها-؟!

يقول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «سيدات نساء أهل الجنة بعد مريم: خديجة، وفاطمة، وآسية امرأة فرعون»[1] .

---

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه الطبرانى (١٢١٧٩) فى الكبير، والحاكم (٣/ ١٨٥، ١٨٦) وصححه، وأقره الذهبى.

«أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد -ﷺ-، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون»[١] .

وبعد رحلة مليئة بصدق الإيمان، والعزيمة على بلوغ كل ما يرضى الرحمن، والصبر والثبات، واحتساب الأجر والثواب عند رب الأرض والسموات، فارقت أوفى امرأة فى البيت النبوى الدار الدنيا إلى الدار الآخرة، لتلقى روحًا وريحانًا، وربًا عنها راضٍ غير غضبان.

فقد كان موعد صعود روحها إلى أعلى عليين قبل الهجرة بثلاث سنين، ودفنت فى الحجون بمكة المكرمة.

وكان عمرها خمسًا وستين سنة[٢] .

فرضى الله عنها، وأرضاها، ولا يحرمنا أجرها، ولا يفتنا من بعدها.

وسلامٌ على أوفى النساء مع الصديقات.

وسلامٌ على أم المؤمنين مع المؤمنات.

وسلامٌ على خديجة بنت خويلد مع الصالحات.

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه أحمد (١/ ٣٢٢ ـ ٣٩٣)، والحاكم (٣/ ١٦٠ ـ ١٨٥) وصححه وأقره الذهبى، وأخرجه الطبرانى (١١٩٢٨) فى الكبير، وقال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٢٢٣): رجاله رجال الصحيح.

(٢) انظر المزيد من التفصيل حول ترجمة أم المؤمنين خديجة -رضي الله عنها-:

طبقات ابن سعد (٨/ ٥٢)، المستدرك (٣/ ١٨٢)، الاستيعاب (٤/ ١٨١٧)، أسد الغابة (٧/ ٧٨)، تاريخ الإسلام (١/ ٤١)، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٠٩)، الأعلام (١/ ٣٢٦) لكحالة، شذرات الذهب (١/ ١٤).

البنات الأربع حول الرسول ﷺ

رُزق النبى -ﷺ- من الإناث بأربعٍ هن:

«زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة».

وقد اختلف العلماء فى تحديد أكبرهن، وإن كان الراجح أن زينب هى أكبرهن، وفاطمة هى صغراهن.

وكلهن من الأم الجليلة، والصحابية الفاضلة، خديجة بنت خويلد -رضى الله عنها وأرضاها-.

وجميع بنات النبى -ﷺ- أدركن الإسلام، وهاجرن إلى المدينة هجرة الإسلام، كما أنهن قد توفين فى حياته -ﷺ-، ما عدا فاطمة الزهراء أصغرهن ماتت بعده ببضعة أشهرٍ وقد عاش البنات الأربع فى بيت النبوة، الوالد هو خاتم الأنبياء والمرسلين، والوالدة هى سيدة نساء أهل الجنة أجمعين.

وقد ربين على الشكر فى الرخاء والسراء، والصبر فى البأساء والضراء، والصفح عمن ظلمهن، والكرم عند ضيفهن، والصدق عند حديثهن، والتواضع أثناء سيرهن، والخشوع فى عبادتهن، والإخلاص فى سائر أعمالهن.

ومع الابنة الكبرى من بنات النبى -ﷺ- نمضى فى الصفحات التالية حيث عبق النبوة، وشذى الرسالة، وأريج الإسلام، وروائح الإيمان.

❑❑❑

البنت الكبرى حول الرسول ﷺ

إنها زينب -رضي الله عنها-، وجعل أعلى عليين مأواها.

أما عن مولدها فيحدثنا أصحاب السير والتراجم أنها ولدت وكانت سن النبى -ﷺ- ثلاثين سنة، وقد كان مولده -ﷺ- فى الثانى عشر من ربيع الأول من عام الفيل، الموافق للعشرين من أبريل سنة خمسمائة وإحدى وسبعين ميلادية.

فمولدها كان قبل البعثة النبوية بعشر سنين، وكان زواجها مبكرًا، فقد كانت أول من تزوج من بنات النبى -ﷺ-.

تزوجها أبو العاص بن الربيع، ابن خالتها هالة بنت خويلد، التى كانت إذا دخلت إلى بيت النبى -ﷺ- هش لها وسُرَّ بمجيئها.

وأبو العاص بن الربيع قد اختلف فى اسمه، فقيل: لقيط، أو مِقْسم، وقيل: الزبير أو هشيم، وقيل غير ذلك.

ولكنه اشتهر بكنيته، أما أبوه فهو الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف القرشى العبشمى.

فلما جاء نور الإسلام، وبعث النبى -ﷺ- بالرسالة والنبوة أسرعت زينب إلى الإيمان ودخلت إلى الإسلام، ولكن ظل الزوج على الشرك بالله والكفران.

وهنا أرادت الهجرة إلى المدينة حيث الوالد النبى -ﷺ-، والصحب الكرام، ولكن هيهات وهى تحت أبى العاص من كبار رجال مكة.

زينب -رضي الله عنها- تملك قلبًا حنونًا حتى على زوجها، المصر على كفره،

المتربص بكل من أحب الإسلام، فتتمنى الزوجة الوفية، والبضعة النبوية، أن لو هداه الله عز وجل إلى الإيمان، وشرح صدره لدخول الإسلام.

ولكن الحذر لا يغنى من القدر، وكل شىءٍ بقضاء وقدر.

وجاءت أول المعارك بين جيش الإسلام، وأتباع الطاغوت عبدة الأصنام، إنها «غزوة بدر الكبرى».

وهو يوم الفرقان، الذى أعز الله فيه الإسلام وأهله، وأذل الشرك وأهله، وهُزم الجمع، وولى الدبر.

وأخذ المسلمون فى الكفار يقتلون ويأسرون، وكان أبو العاص بن الربيع ممن شهد بدراً فى صف كفار قريشٍ، فأسره عبد الله بن جبير الأنصارى، فكان فى أسرى بدر.

فلما بعث أهل مكة فى فداء أسراهم، ماذا حدث لأبى العاص بن الربيع؟ تقول عائشة -رضي الله عنها-: لما بعث أهل مكة فى فداء أسراهم، بعثت زينب -رضي الله عنها- فى فداء أبى العاص بقلادةٍ من جزع ظفار[1] ـ وهى يومئذ بمكة ـ وكانت خديجة -رضي الله عنها- قد أدخلتها بها على أبى العاص حين بنى[2] بها.

تقول عائشة -رضي الله عنها-: فلما رآها رسول الله -ﷺ- رق لها رقة شديدة، وذكر خديجة -رضي الله عنها- وترحم عليها، وقال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذى لها فعلتم»[3] .

---

(١) جزع ظفار: نسبة إلى جبلٍ باليمن.

(٢) أى ليلة البناء بالعروس، وهى ليلة الزفاف.

(٣) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه أبو داود (٢٦٩٢)، وأحمد (٦/ ٢٧٦)، وابن سعد (٨/ ٣١) فى طبقاته، والحاكم (٤/ ٤٥) وصححه، وأقره الذهبى، وأخرجه البيهقى (٦/ ٣٢٢) فى سننه الكبرى، وله طرقٌ.

فقالوا: نعم يا رسول الله، فأطلقوه وردوا عليها الذى لها.

فما أجل هذا القلب الذى ينبض بالعطف والحنان!

ولقد كان رسول الله -ﷺ- أخذ على أبى العاص أن يخلى سبيل زينب لكى تهاجر إلى المدينة على صاحبها أفضل الصلاة، وأتم السلام.

وكان رسول الله -ﷺ- قد بعث زيد بن خارثة ورجلاً من الأنصار، فقال لهما: «كونا[(١)] ببطن يأجج[(٢)] حتى تمر بكما زينب فتصحباها حتى تأتيا بها».

ولقد وفى أبو العاص بن الربيع، فترك زينب -رضي الله عنها- تخرج مهاجرة إلى الله تعالى، وإلى رسوله -ﷺ- بالمدينة النبوية.

فلما فرغت بنت رسول الله -ﷺ- من جهازها للهجرة، قدم لها حموها[(٣)] كنانة بن الربيع أخو زوجها بعيراً فركبته، وأخذ قوسه وكنانته، ثم خرج بها نهاراً يقود بها، وهى فى هودجٍ لها، وتحدث بذلك رجالٌ من قريشٍ، فخرجوا فى طلبها حتى أدركوها بذى طوى فكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود، فروعها[(٤)] بالرمح، وهى فى هودجها، وكانت المرأة حاملاً، فلما روعت طرحت ما فى بطنها!

وهنا كانت المفاجأة: برك كنانة بن الربيع، ونثر كنانته، ثم قال:

والله لا يدنو منى رجلٌ إلا وضعت فيه سهمًا، فتكركر[(٥)] الناس عنه.

---

(١) كونا: قفا.

(٢) بطن يأجج: من بطون الأودية التى حول الحرم، وهو موضعٌ قريب من التنعيم.

(٣) حموها: أخو الزوج.

(٤) الروع: الفزع.

(٥) تكركروا: رجعوا وانصرفوا.

وأتى أبو سفيان فى جلةٍ من قريشٍ، فقال: أيها الرجل كُفَّ عنا نبلك حتى نكلمك.

فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه، فقال: إنك لم تُصب، خرجت بالمرأة على رءوس الناس علانية، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا، وما دخل علينا من مُحمدٍ، فيظن الناس إذا أخرجت ابنته إليه علانية على رءوس الناس من بين أظهرنا أن ذلك على ذُلٍّ أصابنا عن مصيبتنا التى كانت، وأن ذلك منا ضعفٌ ووهن.

ولعمرى ما لنا بحبسها عن أبيها حاجة، وما لنا فى ذلك ثُؤرة[1] ، ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات، وتحدث الناس أنا قد رددناها فسُلَّها سراًّ، وألحقها بأبيها ففعل، فأقامت ليالى، حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها ليلاً، حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه.

وتقص علينا أعلم النساء عائشة -رضي الله عنها- فتقول:

إن رسول الله -ﷺ- لما قدم المدينة خرجت ابنته زينب من مكة مع كنانة، فخرجوا فى أثرها، فأدركها هبار بن الأسود، فلم يزل يطعن بعيرها برمحه حتى صرعها، وألقت ما فى بطنها، وأهراقت[2] دمًا.

فاشتجر فيها بنو هاشم وبنو أمية، فقال بنو أمية: نحن أحق بها، وكانت تحت ابن عمهم أبى العباس، فصارت عند هند بنت عتبة بن ربيعة، وكانت تقول لها هند: هذا بسبب أبيك.

فقال رسول الله -ﷺ- لزيد بن حارثة: «ألا تنطلق فتجيئنى بزينب؟».

---

(١) ثؤرة: طلب ثأر.

(٢) أهراقت: أى نزفت دماء السقط، وهو ما يعرف بالإجهاض.

قال: بلى يا رسول الله، قال: «فخذ خاتمى هذا فأعطها إياه».

فانطلق زيد، وترك بعيره، فلم يزل يتلطف حتى لقى راعيًا، فقال: لمن ترعى؟ قال: لأبى العاص. قال: فلمن هذه الغنم؟

قال: لزينب بنت محمد، فسار معه شيئًا، ثم قال له: هل لك أن أعطيك شيئًا تعطيها إياه، ولا تذكره لأحد؟

قال: نعم، فأعطاه الخاتم.

فانطلق الراعى، فأدخل غنمه، وأعطاها الخاتم فعرفته، فقالت: من أعطاك هذا؟

قال: رجلٌ. قالت: وأين أدركته؟ قال: بمكان كذا وكذا. قال: فسكتت حتى إذا جاء الليل خرجت إليه، حتى أتت، فكان رسول الله -ﷺ- يقول:

«هى أفضل بناتي، أصيبت فىَّ»(١).

معناه: أى من أفضل بناتى، لأن الأخبار ثابتة صحيحة عن النبى -ﷺ- أن فاطمة -رضي الله عنها- هى سيدة نساء هذه الأمة، فالعرب تقول: أفضل تريد من أفضل.

وعندما علم النبى -ﷺ- بما حدث لابنته الكبرى حزن حزنًا شديدًا، حتى بعث سرية من الصحب الكرام، وقال لهم:

«إن وجدتم فلانًا وفلانًا فأحرقوهما بالنار».

ثم قال رسول الله -ﷺ- حين أردنا الخروج: «إنى أمرتكم أن تحرقوا فلانًا

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه الحاكم (٤/٤٣)، والبيهقى (٣/١٥٦) فى الدلائل، والطحاوى (١/٤٥) فى المشكل.

وفلانًا وإن النار لا يعذب بها إلا الله، فإن وجدتموهما فاقتلوهما»[١] .

وفى روايةٍ: «إن وجدتم هبار بن الأسود، أو الرجل الذى سبق معه إلى زينب».

أما هبار بن الأسود، فإن السرية التى خرجت لم تصبه، ودخل الإسلام، فهاجر، وعاش إلى خلافة معاوية -رضي الله عنه-.

ودخل أبو العاص فى الإسلام، ورد عليه السلام -ﷺ- ابنته بنكاحها الأول، ولم يُحدث صداقًا وقد كان دخوله إلى الإسلام قُبيل فتح مكة.

فقد خرج أبو العاص ومعه أموال من أموال قريش، ومعه جماعة منهم إلى الشام فلما عاد، وهو فى طريق العودة لقيته سرية لرسول الله -ﷺ- أميرهم زيد بن حارثة فأخذ المسلمون ما فى تلك العير من الأموال، وأسروا أناسًا، وفر أبو العاص هاربًا، ثم دخل المدينة ليلاً، فدخل على زينب، فاستجار بها، فأجارته.

فلما أصبح النبى -ﷺ- أقبل على الناس، وقال:

«هل سمعتم ما سمعت؟!».

قالوا: نعم. قال: «أما والذى نفسى بيده، ما علمت بذلك حتى سمعته كما سمعتم يجير على المسلمين أدناهم».

ثم دخل رسول الله -ﷺ- على ابنته زينب، فقال:

«أكرمى مثواه، ولا يخلصن إليك، فإنك لا تحلين له».

---

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (٣٠١٦)، وأحمد (٢/٣٠٧)، وأبو داود (٢٦٧٣)، والترمذى (١٥٧١).

قالت: إنه قد جاء فى طلب ماله؟

فجمع رسول الله -ﷺ- تلك السرية، وقال:

«إن هذا الرجل منا بحيث علمتم، وقد أصبتم له مالاً، وهو مما أفاءه الله عليكم، وأنا أحب أن تحسنوا، وتردوا عليه الذى له، فإن أبيتم فأنتم أحق به».

فقالوا: بل نرده عليه، فردوا عليه كل ما أخذوه حتى الحبل والسقاء.

فلما ردوا عليه ماله أجمع، عاد إلى مكة، وأدى إلى الناس أموالهم، ثم قال:

أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، والله ما منعنى من الإسلام إلا خوفًا أن تظنوا بى أكل أموالكم.

ثم قدم على رسول الله -ﷺ- مسلمًا بالمدينة، وحسن إسلامه، وردّ عليه رسول الله -ﷺ- ابنته زينب بالنكاح الأول.

ولما أرسل رسول الله -ﷺ- على بن أبى طالب إلى اليمن كان معه، وتوفى أبو العاص سنة اثنتى عشرة من الهجرة النبوية.

وعاشت زينب فى المدينة مع والدها، وزوجها، ورزقت من زوجها باثنين، هما على، وأمامة.

وظلت زينب على طاعة ربها مقيمة، ومتصفة بكل فضيلة، حتى جاء الذى لا مفر منه ولا حيلة، إنه هازم اللذات، ومفرق الجماعات، إنه الموت.

ففى أول سنة ثمانٍ من الهجرة تصعد روح الابنة الكبرى إلى بارئها بعد

معاناةٍ شديدة مع المرض الدائم الذى لازمها من موقف سقوطها فى رحلة الهجرة.

فلما ماتت زينب -رضي الله عنها- قال الرسول -ﷺ- لأم عطية:

«اغسلنها وترًا، ثلاثًا، أو خمسًا، واجعلن فى الآخرة كافورًا أو شيئًا من كافورٍ فإذا غسلتنها فأعلمننى».

فلما فرغنا آذناه فألقى إلينا حقوة[١] ، وقال: «أشعرنها[٢] إياه»[٣] .

فسلامٌ على الابنة الكبرى فى بناتٍ عشن فى بيت النبى -ﷺ-[٤] .

وسلامٌ على زينب النبوية فى الصحابيات والصالحات.

ونكمل المسير مع بناتٍ حول الرسول -ﷺ-، ومن الله التوفيق والسداد.

---

(١) حقوة: الحقو هو الإزار.

(٢) الشعار: الثوب الذى يلى الجسد.

(٣) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (١٢٥٤)، ومسلم (٩٣٩)، وأبو داود (٣١٤٢)، والنسائى (٤/ ٢٨، ٢٩)، وابن ماجه (١٤٥٨).

(٤) انظر: طبقات ابن سعد (٨/ ٣٠ ـ ٣٦)، التاريخ الصغير (١/ ٧)، المعرفة (٣/ ٢٧٠) للفسوى، المستدرك (٤/ ٤٢ ـ ٤٦)، الاستيعاب (٤/ ١٨٥٣)، أسد الغابة (٧/ ١٣٠)، العبر (١/ ١٠)، السير (٢/ ٢٤٦)، مجمع الزوائد (٩/ ٢١٢).

أمامة بنت أبى العاص

توفيت زينب -رضي الله عنها- الابنة الكبرى للرسول -ﷺ-، وقد رزقت بغلام أسمته بعليٍّ، توفى وقد ناهز الحلم، وكان رديف النبى -ﷺ- فى يوم فتح مكة المكرمة.

ورزقت زينب بابنة، سُميت «بأمامة»، فهى حفيدة من حفيدات الرسول -ﷺ-، وقد كان يسُرّ بها، ويلاعبها، ويحملها على عاتقه إذا صلَّى.

وكان الرسول -ﷺ- يحبها، فهى تذكره بابنته الكبرى «زينب» التى رحلت إلى الدار الآخرة.

وما افتقدته أمامة برحيل أمها سريعًا، ووجدته فى جدِّها خير الأنام -ﷺ-، فقد كان يدللها، ويحنو عليها، ويهتم بها اهتمامًا فاق الوصف.

يقول أبو قتادة الأنصارى -رضي الله عنه-:

بينا نحن على باب الرسول -ﷺ- إذ خرج علينا يحمل أمامة بنت أبى العاص بن الربيع، وأمها زينب، وهى صبية.

فصلى رسول الله -ﷺ- وهى على عاتقه، يضعها إذا ركع، ويعيدها إلى عاتقه إذا قام، حتى قضى صلاته، يفعل ذلك بها[1].

وقد حيَّر العلماء هذا الموقف النبوى مع الصغيرة أمامة بنت أبى العاص -رضي الله عنها- فعن مالك أن ذلك للضرورة حيث لم يجد مَنْ يكفيه أمرها.

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (٥١٦)، (٥٩٩٦)، ومسلم (٥٤٣)، وأبو داود (٩١٧)، والنسائى (٢/٤٥).

وقال بعض أصحابه: لأنه لو تركها لبكت وشغلت سره فى صلاته أكثر من شغله بحملها، وفرق بعض أصحابه بين الفريضة والنافلة.

وقال الباجى: إن وجد من يكفيه أمرها جاز فى النافلة دون الفريضة، وإن لم يجد جاز فيهما.

وقال ابن عبد البر: لعله نسخ بتحريم العمل فى الصلاة.

وتعقب بأن النسخ لا يثبت بالاحتمال، وبأن هذه القصة كانت بعد قوله -ﷺ-: «إن فى الصلاة لشغلاً»(١) .

لأن ذلك كان قبل الهجرة، وهذه القصة كانت بعد الهجرة قطعًا بمدة مديدة.

وذكر القاضى عياض عن بعضهم: أن ذلك كان من خصائصه -ﷺ- لكونه كان معصومًا من أن تبول وهو حاملها، ورُدّ بأن الأصل عدم الاختصاص، وبأنه لا يلزم من ثبوت الاختصاص فى أمرٍ ثبوته فى غيره بغير دليلٍ، ولا مدخل للقياس فى مثل ذلك.

وحمل أكثر أهل العلم هذا الحديث على أنه عملٌ غير متوالٍ لوجود الطمأنينة فى أركان صلاته.

وقال النووى: ادعى بعض المالكية أن هذا الحديث منسوخ، وبعضهم أنه من الخصائص، وبعضهم أنه كان لضرورة، وكل ذلك دعاوى باطلة مردودة لا دليل عليها.

---

(١) حديث صحيح. أخرجه البخارى (٢/٧٨، ٨٣)، ومسلم (٥٣٨)، وأبو داود (٩٢٣)، وأحمد (١/٣٧٦، ٤٠٩)، وعبد الرزاق (٣٥٩٠) فى مصنفه.

وليس فى الحديث ما يخالف قواعد الشرع لأن الآدمى طاهر، وما فى جوفه معفو عنه، وثياب الأطفال وأجسادهم محمولة على الطهارة حتى تتبين النجاسة، والأعمال فى الصلاة لا تبطلها إذا قلّت أو تفرقت، ودلائل الشرع متظاهرة على ذلك، وإنما فعل النبى -ﷺ- ذلك لبيان الجواز.

ويرشدنا العلامة الفاكهاني إلى السر فى هذا الفعل النبوى، والحكمة فيقول:

وكأن السر فى حمله أمامة فى الصلاة دفعًا لما كانت العرب تألفه من كراهة البنات وحملهن، فخالفهم فى ذلك حتى فى الصلاة للمبالغة فى ردعهم.

والبيان بالفعل قد يكون أقوى من القول.

وفيه: تواضعه -ﷺ-، وشفقته على الأطفال، وإكرامه لهم جبرًا لهم ولوالديهم[١] .

ومن شفقته ـ عليه الصلاة والسلام ـ ورحمته بأمامة أنه كان إذا ركع أو سجد يخشى عليها أن تسقط فيضعها بالأرض، وكأنها كانت لتعلقها به لا تصبر فى الأرض فتجزع من مفارقته، فيحتاج أن يحملها إذا قام، واستنبط منه بعضهم عظم قدر رحمة الوالد، لأنه تعارض حينئذ المحافظة على المبالغة فى الخشوع، والمحافظة على مراعاة خاطر الولد، فقدم الثانى.

ويحتمل أن يكون -ﷺ- إنما فعل ذلك لبيان الجواز.

وظلت أمامة بنت أبى العاص فى كفالة جدها، ورعاية والدها، وظل الرسول -ﷺ- يبرها، ويتذكر بها ابنته الكبرى زينب -رضي الله عنها وأرضاها-.

---

(١) الفتح (١/ ٥٩٢) لابن حجر.

تقول عائشة -رضي الله عنها-:

أُهدى لرسول الله -ﷺ- قلادة من جزعٍ ملمعة بالذهب، ونساؤه مجتمعات فى بيت كلهن، وأمامة بنت أبى العاص بن الـربيع جارية تلعب فى جانب البيت بالتراب فقال رسول الله -ﷺ-: «كيف ترين هذه؟».

فنظرنا إليها فقلنا: يا رسول الله، ما رأينا أحسن من هذه قط، ولا أعجب.

فقال: «اردُدنها إلىَّ».

فلما أخذها قالِ: «والله لأضعنها فى رقبة أحب أهل البيت إلىّ».

قالت عائشـة: فأظلمت علىَّ الأرض بينى وبينه خشـية أن يضعهـا فى رقبة غيرى منهم ولا أراهن إلا أصابهن مثل الذى أصابنى، ووجمنا جميعًا، فأقبل بها -ﷺ- حتى وضعها فى رقبة أمامة بنت أبى العاص[1].

وفى روايةٍ أخرى: «لأعطينها أحبكنَّ إلىَّ».

فقلن: يدفعه إلى ابنة أبى بكر، فدعا بابنة أبى العاص من زينب فعقدها بيده وكان على عينها رمص فمسحه بيده -ﷺ-.

وقدمت على النبى -ﷺ- حلية من عند النجاشى أهداها له فـيها خاتمٌ من ذهبٍ فيه فصٌّ حبشىٌّ.

قالت: فأخذه رسول الله -ﷺ- بعُودٍ مُعرضًـا عنه، أو ببعض أصابعه، ثم دعى أمامة ابنة أبى العاص ابنة ابنته زينب، فقال:

---

(١) حديث حسن. أخـرجه أحمد (٦/ ١٠١، ٢٦١)، وأبو يعلى، والطبرانـى، وإسناد أحمد وأبى يعلى حسن، قاله الهيثمى فى المجمع (٩/ ٢٥٥)، وأخرجه ابن سعد (٨/ ٤٠) فى طبقاته من طريق آخر.

«تحلَّى بهذا يا بنية»[١] .

ومن خلال هذا الموقف يتبين لنا شدة حب النبى -ﷺ- لأمامة، وتعلقه بها، وإبراز هذا الحب، وتلك الشفقة فى هذه المواقف السابقة.

ولما كبرت أمامة -رضي الله عنها- تزوجها على بن أبى طالب -رضي الله عنه- بعد وفاة فاطمة -رضي الله عنها-، وكانت فاطمة قد أوصت عليًّا أن يتزوجها.

فلما توفيت فاطمة تزوجها، زوَّجها منه الزبير بن العوام، لأن أباها قد أوصاه بها، فلما جُرح علىٌّ -رضي الله عنه-، وخاف أن يتزوجها معاوية بن أبى سفيان، فأمر المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب أن يتزوجها بعده.

وكان زواج على بها فى خلافة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-.

فلما تُوفى علىٌّ، وقضت العدة تزوجها المغيرة بن نوفل، وماتت عنده بعد أن ولدت له يحيى، وبه كان يكنى.

وقيل: إنها لم تلد لعلىٍّ، ولا للمغيرة، وليس لزينب بنت رسول الله -ﷺ-، ولا لرُقَيَّة، ولا لأم كلثوم -رضي الله عنهن- عقب، وإنما العقب لفاطمة فقط[٢] .

وكانت وفاة أمامة بنت أبى العاص -رضي الله عنها- فى أيام خلافة معاوية بن أبى سفيان -رضي الله عنه-[٣] .

---

(١) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (٤٢٢٨)، وأحمد (٦/ ٣٥٩)، وابن أبى شيبة (٨/ ٢٧٨) فى مصنفه، وابن ماجه (٣٦٤٤).

(٢) انظر: أسد الغابة (٧/ ٢٢).

(٣) انظر: طبقات ابن سعد (٨/ ٣٩، ٤٠)، نسب قريش (ص٢٢/ ٨٦) للزبيرى، الاستيعاب (٤/ ١٧٨٩، ١٧٩٠)، أسد الغابة (٧/ ٢٢) لابن الأثير، والسير (١/ ٣٣٥) للذهبى، تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٣١) للنووى، والعقد الثمين (٨/ ١٨١، ١٨٢) للحسنى المكى، والإصابة (٨/ ١٤) لابن حجر.

فرضى الله عن أمامة في بناتِ حول الرسول -ﷺ- .

وسلامٌ على أمامة فى نساء آل البيت .

ونكمل المسير مع بناتِ حول الرسول -ﷺ- .

❑❑❑

رقية بنت رسول الله ﷺ

إنها واحدةٌ من بنات كن حول الرسول -ﷺ-.

ولدت رقية -رضي الله عنها- سنة ثلاثة وثلاثين من مولد النبى -ﷺ- فعاشت فى بيت النبوة، وتأدبت بآداب الرسول عليه الصلاة والسلام.

فلما شبت رقية، زوجها النبى -ﷺ- من عُتبة بن أبى لهب، وزوج أختها أم كلثوم عُتيبة بن أبى لهب، فلما نزلت سورة «المسد» قال لهما أبوهما: أبو لهب: رأسى من رأسك حرام إن لم تطلق ابنته.

وقالت أمهما أم جميل بنت حرب بن أمية، حمالة الحطب: فارقا ابنتى محمدٍ، ففارقهما قبل أن يدخلا بهما كرامةً من الله تعالى لهما وهوانًا لابنى أبى لهب.

وأسلمت رقية حين أسلمت أمها خديجة بنت خويلد -رضي الله عنها- وبايعت رسول الله -ﷺ- هى وأخواتها.

ويتزوج عثمان بن عفان -رضي الله عنه- من رقيةٍ، ويهاجر بها الهجرة الأولى إلى الحبشة، فكانا من أوائل من هاجر فى سبيل الله.

وفى أثناء رحلتها فى هجرة الحبشة تنجب رقية ابنًا، ويُسمى «عبد الله» وبه كان يكنى «عثمان بن عفان» -رضي الله عنه-.

ويشاء الله تعالى أن يتوفى عبد الله بن عثمان، وذلك فى سنة أربعٍ من الهجرة، وهو ابن ست سنين، وصلى عليه صلاة الجنازة الرسول -ﷺ-، وأنزله فى حفرته والده عثمان بن عفان.

ويروى أسامة بن زيد -رضي الله عنه-، فيقول:

أرسلت ابنة النبى -ﷺ- إليـه: إن ابنًا لى قُبض، فأتنا، فأرسل يقرئ السلام، ويقول للرسـول: «ارجع إليها فأخبرها أن لله مـا أخذ، ولله ما أعطى، وكل شيءٍ عنده بأجلٍ مسمى، فمرها فلتصبر ولتحتسب».

فعاد الرسول فـقال: إنها قد أقسمت لتأتينهـا، فقام الرسول -ﷺ-، وقام معه سعـد بن معاذ، ومعاذ بن جـبل، وأُبى بن كعب، وزيد بن ثابت ورجالٌ، وانطلقت معهم، فرفع إليه صبىٌّ، ونفسُهُ تتـقعقع، كأنها شنٌّ، ففاضت عيناه -ﷺ-.

فقال له سعدٌ: ما هذا يا رسول الله؟!

فقـال رسول الله -ﷺ-: «هذه رحمـة جعلها الله فى قلوب عـباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[1] .

قال البلاذرى فـى الأنساب: إن عبد الله بن عثـمان بن عفان من رقـية بنت النبى -ﷺ- لما مات وضعه النبى -ﷺ- فى حجره، وقال: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء».

وعندما نتوقف مع كلمات هذا الموقف النبوى نجد ما يلى:

«إن لله مـا أخذ وله مـا أعطى». قدم ذكـر الأخذ على الإعطاء ـ وإن كـان متـأخرًا فى الواقع ـ لما يقتـضيه المقـام ـ والمعنى: أن الذى أراد الله أن يأخذه هو الذى كان أعـطاه، فإن أخذه أخـذ ما هو له، فـلا ينبغى الجـزع، لأن مسـتودع

---

(١) حديثٌ صحيحٌ. اخرجه البـخارى (٢/ ١٠٠) برقم (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣)، وأحمد (٥/ ٢٠٤)، وعبد الرزاق (٦٦٧٠)، وأبو داود (٣١٢٥).

الأمانة لا ينبـغى له أن يجزع إذا استـعيدت منا وكـل من الأخذ والإعطاء بأجلٍ معلوم مقدر، ولذا فلتصبر يا صاحب البلوى.

«ولتحتسِب» أى تنوى لصبرها طلب الثواب من ربها، ليحسب لها ذلك من عملها الصـالح ولكنها ألحت عليه، وأكّدت ذلك بالقسـم عليه، وذلك لما تعلمه من بركة دعائه وحضوره، فحقق الله ظنها.

فلما دخل النبى -ﷺ- ناولوه الصبى، ونفسه تقعقع كأنها شنٌ.

«القعـقعة»: حكاية صوت الشىء الـيابس إذا حُرك، والشن: القربة الخـرقة اليابسة.

فشـبه النفس بنفس الجلد وهـو أبلغ فى الإشارة إلى شدة الـضعف، وذلك أظهر فى التشبيه.

وهنا نزلت دموع الرسول -ﷺ-، وهو يشاهد الصغير تخرج روحه ببطءٍ، فقـال: «هذه» أى الدمعة أثر «رحـمة»، أى أن الذى يفيـض من الدمع من حزن القلب بغير تـعمدٍ من صاحبـه، ولا استدعاء لا مؤاخـذة عليه، وإنما المنهى عنه الجزع وعدم الصبـر ومن موقف الرسول -ﷺ- مع ابن رقية نتعلـم الشفقة على خلق الله، والرحمـة بهم، والترهيب من قـسوة القلب، وجمـود العين، وزيارة المحتضر ولو كان صبيًّا صغيرًا.

وما أروع الـرسول -ﷺ- وهو يعلمنا أن أولادنا مِلكٌ لله، فـيعطى مـاله، ويأخذ ماله، فلله مـا أعطى، ولله ما أخذ، يفعل ما يشاء بحكمـته، ويحكم ما يريد بعزته.

وترشـدنا رقيـة ابنة الرسـول -ﷺ- إلى جـواز استـحـضار ذوى الفـضل للمحتضر لرجاء دعائه.

وصبرت رقيـة على فقد رضيعها، واحتـسبت الأجر والثواب، وظلت على ثباتها، وقيامها بحق ربها حتى ابتليت بالحصبة.

ويخـرج الرسـول -ﷺ- غـازيًا إلى بدر، ورقـيـة -رضي الله عنها- تئن من شـدة مرضها، فيتخلف على رعايتها عثمان -رضي الله عنه- بأمرٍ من الرسول -ﷺ-.

وعاشت رقية -رضي الله عنها- ما بقى لها من أيام عمرها، وهى مريضة تئن، وتدعو ربها، إلى أن توفيت فى شهر رمضان، والرسول -ﷺ- فى «بدر».

وكانت سنها إذ ذاك عشرين سنة، وتوفـيت يوم وصول زيد بن حارثة مُبشرًا بظفر رسول الله -ﷺ- بالمشركين.

وهكذا عاشت رقية -رضي الله عنها- حميدة، وماتت شهيدة[١].

فسلامٌ على رقية فى بناتٍ حول الرسول -ﷺ-.

ونكمل المسير مع بناتٍ حول الرسول -ﷺ-، ومن الله العون والتيسير.

❑❑❑

(١) لمزيدٍ من التفصيل انظر:

طبقـات ابن سعد (٨/ ٣٦، ٣٧)، المعرفـة (٣/ ١٥٩، ١٦٢، ١٦٣) للفسوى، المستدرك (٤/ ٤٦ ـ ٤٨)، الاستيعاب (٤/ ١٨٣٩)، أسد الغـابة (٧/ ١١٣)، مجمع الزوائد (٩/ ٢١٦) السير (٢/ ٢٥٠ ـ ٢٥٢)، الإصابة (٨/ ٨٣)، شذرات الذهب (١/ ٩، ٥٧).

أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ

صحابيةٌ جليلةٌ، وبنتٌ من البنات حول الرسول -ﷺ-، وهى أصغر من أختها رقية، ولذلك زوَّج النبى -ﷺ- أختها رقية أولاً إلى عثمان، فلما توفيت زوَّجه بأم كلثوم، وما كان ليزوج الصغرى ويترك الكبرى.

وتزوجها عتيبة بن أبى لهبٍ قبل البعثة النبوية، فلما كانت البعثة، ونزلت سورة المسد، وفيها توبيخٌ وتقريعٌ لأبى لهب والده، فقال لابنه عتيبة:

إن رأسى من رأسك حرام، إن أنت لم تطلق ابنته، يعنى أم كلثوم بنت رسول الله -ﷺ- ففارقها، ولم يدخل بها، وذلك كرامة من الله تعالى لها، فلم تزل بمكة حتى أسلمت مع أخواتها، وبايعت، وهاجرت إلى المدينة -رضي الله عنها وأرضاها-.

فلما توفيت أختها ـ رقية -رضي الله عنها-، تزوجها عثمان، وكأن قدر الله المبارك لعثمان -رضي الله عنه- أن يكون الوحيد من خلق الله الذى يتزوج ابنتى نبىٍّ من أنبياء الله تعالى، وهذا يُعد من مناقبه.

وعاشت فى كنف الصحابى الجليل عثمان، ولم تلد له، وفى شهر شعبان من سنة تسعٍ للهجرة كانت وفاتها.

وكانت الصحابية الجليلة أم عطية -رضي الله عنها- هى التى غسلتها فى نسوةٍ من الأنصار، وفى مشهد دفنها كان الحزن العميق، والأسى الشديد.

وكان نكاح عثمان بن عفان -رضي الله عنه- بأم كلثوم فى ربيع الأول من سنة ثلاث، وبنى بها فى جُمادى الآخرة من نفس السنة، ولم تلد منه ولداً، وكانت وفاتها سنة تسعٍ، وصلى عليها الرسول -ﷺ-.

وكم كان مؤثرًا ذلك الموقف فى حياة الرسول -ﷺ-!

فقد بكى النبى -ﷺ- بدموعٍ حارة عند قبرها.

وشاهد المسلمون عينى النبى -ﷺ- تدمعان.

والجو ليل، والسكون قاتل، والظلام دامس، والمفقود هو فلذة الكبد.

والرجال يحفرون القبر، ليضم بين جنباته أم كلثوم بنت رسول الله -ﷺ-، ومنذ قليلٍ كانت أختها رقية، ومن قبلها كانت زينب الكبرى.

إنه القضاء والقدر، إنها مشيئة الخالق الأعظم.

كم نود أن يبقى معنا الأحباب، ولكن يأتيهم هازم اللذات، ومفرق الجماعات، فيأخذ الوالد من ولده، والابن من أبيه، والأم من رضيعها، والرضيع من أمه، والزوجة من زوجها، والزوج من زوجته.

فلنتوقف معًا بين يدى هذا الموقف المؤثر فى حياة الرسول عليه الصلاة والسلام.

فيقص علينا أنس بن مالك -رضي الله عنه- هذا المشهد المؤثر فى حياة الرسول -ﷺ- فيقول: رأيت النبى -ﷺ- جالسًا على قبرها ـ يعنى أم كلثوم ـ وعيناه تدمعان.

فقال عليه الصلاة والسلام:

«أفيكم رجل لم يقارف[1] الليلة؟» قال أبو طلحة: أنا.

(١) يقارف: المقارفة فى الأصل: ارتكاب الذنوب، وهى هنا كناية عن الجماع، ومباشرة النساء.

فقال: «فانزل»[١] فنزل في قبرها.

إنه موقفٌ مؤثرٌ، والـقبر وأهواله، حيث التراب، والظلـمة والدود، والغربة والفرقة، والوحدة.

وقـد يطرأ تسـاؤلٌ: أليس من الأولى أن ينزل زوجـها ليلحـدها، ويواريهـا التراب؟

يذكر بعض أهل العلم أن السر في ذلك أن عثمان قد قارف في تلك الليلة، فتلطف الرسول -ﷺ- في منعه من النزول في قبر زوجته.

وفي ذلك إيثار البـعيد العـهد عن الملاذ في مواراة الميت ـ ولو كـان امرأة ـ على الأب والزوج.

ومضت أم كلثوم فسلامٌ عليها في عداد البنات المباركات[٢].

وسلامٌ على أم كلثوم في عداد بنات عشن حول الرسول -ﷺ-.

❑❑❑

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (٢/ ١١٤)، وأحمد (٣/ ١٢٦)، والترمـذى (٣١٢)، وابن سعد (٨/ ٢٦).

(٢) انظر: طبقـات (٨/ ٣٦)، المعرفـة (٣/ ١٥٩)، المستدرك (٤/ ٤٦)، الاسـتيعـاب (٤/ ١٨٣٩)، أسد الغابة (٧/ ١١٣)، شذرات الذهب (١/ ٩، ٥٧).

فاطمة بنت رسول الله ﷺ

هى فاطمة بنت رسول الله -ﷺ- خاتم الأنبياء والمرسلين، وأمها: خديجة بنت خويلد -رضي الله عنها- سيدة نساء أهل الجنة.

مولدها قبل البعثة النبوية بقليلٍ، قيل: بخمس سنين، وكانت طيبة الأفعال، حلوة اللسان، تعين الفقراء والمساكين، فكانت محبوبة من الجميع.

فقد كانت من أحب الناس إلى رسول الله -ﷺ-، وأشبههم به، فتروى عائشة، وبريدة -رضي الله عنهما-:

«كان أحب الناس إلى رسول الله -ﷺ-: فاطمة»(١) .

وتقول أعلم الناس عائشة -رضي الله عنها-:

ما رأيت أحداً أشبه سمتًا، ودلاً، وهديًا برسول الله -ﷺ- من ابنته فاطمة فى قيامها، وقعودها.

وكانت إذا دخلت عليه قام إليها، فقبلها، وأجلسها فى مجلسه، فلما مرض دخلت فأكبت عليه، ثم رفعت رأسها فضحكت، فسألتها عن ذلك، فقالت:

أخبرنى أنه ميتٌ من وجعه هذا، فبكيت، ثم أخبرنى أنى أسرع أهله لحوقًا به فضحكت(٢) .

«سمتًا» «دلاً» «هديًا» هذه الألفاظ متقاربة المعانى، فمعناها الهيئة والطريقة، وحسن الحال، ونحو ذلك.

---

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه الترمذى (٣٩٦٠)، (٣٩٦٥)، والحاكم (٣/ ١٥٤، ١٥٥)، والطيالسى (٢٤٨٤).

(٢) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه أحمد (٦/ ٢٤٠)، وأبو داود (٥٢١٧)، والترمذى (٣٨٧١)، والحاكم (٣/ ١٥٤).

وفُسر الدل بحسن الشمائل، وأصله من دل المرأة، وهو شكلها، وما يُستجد منها.

وكأنها أشارت بالسمت إلى ما يرى على الإنسان من الخشوع، والتواضع لله تعالى، وبالهدى ما يتحلى من السكينة والوقار، وإلى ما يسلكه من المنهج المرضى، وبالدل حسن الخُلُق، ولطف الحديث.

«قام إليها» أى مستقبلاً لها، ومتوجهًا إليها مرحبًا ومسرورًا بقدومها.

وكل ذلك يوضح قدر حب النبى -ﷺ- لفاطمة -رضي الله عنها- حتى إنه قال ذات يوم: «فاطمةُ بضعةٌ منى، فمن أغضبها أغضبنى، يريبنى ما رابها، ويؤذينى ما آذاها»[1].

«بضعة منى» أى: قطعة منى، كقطعة اللحم تمامًا بعضها من بعضٍ، «يريبنى ما رابها» أى: يسوؤنى ما يسوؤها، ويزعجنى ما يزعجها.

ولقد كانت سنوات عمر خير نساء العالمين مليئة بكل معانى الصبر، والكفاح فى سبيل مرضاة الله تعالى.

وتحملت الأذى مع رسولنا -ﷺ- فى بدء الدعوة إلى الإسلام، فصبرت على البلاء، وتحملت كثيرًا من المعاناة والمحن.

ولذا استحقت أن تكون سيدة نساء المؤمنين -رضي الله عنها وأرضاها-.

□□□

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (٣٧٦٧)، ومسلم (٢٤٤٩)، وأبو داود (٢٠٦٩)، والترمذى (٣٨٦٦).

سر رسول الله ﷺ عند فاطمة

اجتـمع نساء النبى -ﷺ-، فلم يغـادر منهن امرأةً، وكن عنده، فـأقبلت فاطمة تمشى كـأن مشيتها مـشية رسول الله -ﷺ-، أو ما تخطئ مشـيتها من مشيـة رسول الله -ﷺ- شيئًـا، فلما رآها رحب بها فقال: «مـرحبًا بابنتى» ثم أجلسها عن يمينه، أو عن شماله.

ثم إنه عليه الصلاة والسلام أسرَّ إليها حديثًا فبكت فاطمة بكاءً شديدًا، فلما رأى جزعها سارَّها الثانية فضحكت.

وهنا تقول عائشة لفاطمة -رضي الله عنها-:

خصَّكِ رسول الله -ﷺ- من نسائه بالسِّرارِ، ثم أنتِ تبكين؟!

فلما قـام رسول الله -ﷺ- سألتـها ما قـال لك رسول الله -ﷺ-؟ وهنا ردت فاطمة: ما كنت لأفشى سِرَّ رسول الله -ﷺ- .

فتقول عائشة: ما رأيت كاليوم فرحًا أقرب من حزنٍ!!

فلما توفى رسول الله -ﷺ- قُلتُ: عزمت عليك بما لى عليكِ من الحق - لما حدثتنى ما قال لكِ رسول الله -ﷺ-؟

قالت: أما الآن فنعم، أما حين سارنى فى المرة الأولى، فأخبرنى أن جبريل كان يعارضه بالقرآن كل سنة مرة، وإنه قد عارضه به العام مرتين، ولا أُرانى إلا قد حضر أجلى.

وفى رواية: «ولا أرى الأجلَ إلا قد اقترب، فـاتقى الله واصبرى، فإنى نعم السلفُ أنا لَكِ».

قالت: فبكيت بكائى الذى رأيت، فلما رأى جـزعى سارَّنى الثانية قال: «يا فاطمة، ألا ترضين أن تكونى سيدة نساء المؤمنين؟ أو سيدة نساء هذه الأمة»[1] .

وهكذا تعلمنا سيدة نســاء الأمة أنه لا ينبغى إفشاء السر إذا كانت فـيه مضرة على المسلم، لأن فاطمة -رضي الله عنها- لو أخبرتهن لحزنَّ لذلك حزنًا شديدًا، وكذا لو أخبرتـهن أنها سيدة نســاء المؤمنين لعظم ذلك عليهن واشتـد حزنهن، والنبى -ﷺ- سيحزن لحزنهن.

فلما أمنت من ذلك أخبرت به.

وفى الحديثين كما نرى اتفاق على أن الذى سارها به أولاً فبكت هو إعلامه إياها بأنه ميتٌ من مرضه ذلك، واختلفا فيما سارها به ثانيًا فضحكت.

فـفى الحديث الأول أنه أخـبرها بأنهـا أول أهله لحـوقًا به، وفى الثـانى أنه أخبرها بأنها سيدة نساء أهل الجنة، وجعل كونها أول أهله لحوقًا به مضمومًا إلى الأول، وهو الراجح.

وعاشت سيـدة النساء، وابتليت فى دينها، وصبرت على أذى المشـركين لها ولوالدها.

فها هى -رضي الله عنها- فى يوم أُحد، وقد انصرف المشـركون، خرجت النساء إلى الصحابة يعينونهم، فكانت فاطمة -رضي الله عنها- فيمن خرج، فلما رأت النبى -ﷺ- اعتنقته وجعلت تغسل جراحاته بالماء فيزداد بالماء.

فماذا فعلت البضعة النبوية؟

يروى سعد بن أبى وقاص -رضي الله عنه- فيقول: أمـا والله، إنى لأعرف من كان

(١) حديث صحيح. أخرجه البخارى (٦٢٨٦)، ومسلم (٢٤٥٠)، وأحمد (٦/ ٧٧، ٢٤٠، ٢٨٢).

يغسل جرح رسول الله -ﷺ-، ومن كان يسكب الماء، و بما دُوى.

كانت فاطمة -رضي الله عنها- بنت رسول الله -ﷺ- تغسله، وعليٌّ -رضي الله عنه- يسكب الماء فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصيرٍ فأحرقتها، وألصقتها فاستمسك الدم(١) .

ولنا أن نتخيل هذا البلاء، والدها الرسول -ﷺ-، قد أُصيب إصابات بالغة، حتى نزفت الدماء من وجهه الشريف، ومع ذلك كانت الطبيبة هى فاطمة -رضي الله عنها-، ولم تصب بهلعٍ، أو بفزعٍ، إذ إنها تعلمت الصبر والمعاناة من كثرة الشدائد والمحن التى تعرضت لها فى حياتها.

ومن أنواع الشدائد التى صبرت عليها البضعة النبوية فى حياتها: صبرها على شظف العيش.

فلقد تزوجها على -رضي الله عنه- وما كان لهما من فراشٍ سوى جلد كبشٍ بالليل يناما عليه وبالنهار يجعلانه وسادة.

ومع ذلك صبرت، ولم تفتر عن طاعة ربها، ولم تطلب شيئًا من والدها -ﷺ-، فهى صابرة، قانعة، راضية بما قسم الله لها.

يقول علىٌّ -رضي الله عنه-: إن رسول الله -ﷺ- لما زوجه بفاطمة -رضي الله عنها- بعث معها بخميلةٍ(٢) ، ووسادة حشوها ليف، ورحيين(٣) ، وسقاء(٤) ، وجرتين(٥) .

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (٣٠٣٧)، (٤٠٧٥)، (٥٧٢٢).

(٢) الخميلة: القطيفة المخملة.

(٣) رحيين: صخرتين يطحن بهما الحب.

(٤) سقاء: كوز يشرب فيه.

(٥) جرتين: مثنى جرة، وهى إناءٌ من فخار لحفظ الماء.

فقال عليٌّ -رضي الله عنه-: لقد سنوت حتى اشتكيت صدرى، ولقد جاء إلى رسول الله -ﷺ- سبى، فاذهبى، فاطلبى منه خادمة جارية لنا.

فقالت فاطمة -رضي الله عنها-: وأنا والله، لقد طحنت حتى مجلت[1] يداى.

فذهبت -رضي الله عنها- إلى الرسول -ﷺ- لكى تسأله جارية تخدمها، فلما دخلت إلى بيت والدها -ﷺ- لم تجده، ووجدت أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- فذكرت ذلك لها، فلما جاء النبى -ﷺ- أخبرته بما كان من أمر فاطمة -رضي الله عنها-.

وفى روايةٍ أخرى: فأتت النبى -ﷺ- فقال لها: «ما جاء بك يا بنية؟».

فقالت: جئت لأسلم عليك، واستحيت أن تسأله، ورجعت، فقال عليٌّ: ما فعلت؟ قالت: استحييت أن أسأله، فأتياه جميعًا فقال عليٌّ: يا رسول الله، والله لقد سنوت حتى اشتكيت صدرى، وقالت فاطمة: قد طحنت حتى مجلت يداى، وقد جاءك الله بسبىٍ وسعةٍ فاخدمنا.

فقال عليه الصلاة والسلام:

«لا أعطيكما، وأدع أهل الصفة[2] تطوى بطونهم، لا أجد ما أنفق عليهم، ولكن أبيعهم، وأنفق عليهم أثمانهم».

فرجعا، فأتاهم النبى -ﷺ- وقد دخلا فى قطيفتهما، إذا غطيا رأسيهما كشفت أقدامهما، وإذا غطيا أقدامهما تكشف رأساهما.

فدخل رسول الله -ﷺ- بعد الاستئذان عليهما، فلما دخل أرادت فاطمة

(١) المجل: التقطيع، والمراد به غلظ اليد، فكل من عمل عملاً بكفه فغلظ جلده، قيل: مجلت كفه.
(٢) أهل الصفة: هم فقراء الصحابة الذين أسلموا، ولم يكن لهم مال، ولا دار.

وعلى أن يقوما، فقال لهما رسول الله -ﷺ-: «على مكانكما» أى الزما مكانكما.

ثم قال لهما: «ألا أخبركما بخيرٍ مما سألتمانى؟».

قالا: بلى يا رسول الله. قال: «بكلمات علمنيهن جبريل: تسبحان الله فى دبر كل صلاة عشراً، وتحمدان عشراً، وتكبران عشراً».

«وإذا أويتما إلى فراشكما، فسبحا ثلاثًا وثلاثين، واحمدا ثلاثًا وثلاثين، وكبرا أربعًا وثلاثين، فهو خير لكما من خادمٍ»[1].

قال علىٌّ: فوالله ما تركتهن منذ علمنيهن رسول الله -ﷺ-.

فقيل: ولا ليلة وقعة صفين؟! قال: بلى، ولا ليلة وقعة صفين.

ويستفاد من هذا الموقف: حمل الإنسان أهله على ما يحمل المرء عليه نفسه من التقلل والزهد فى الدنيا، والقناعة بما أعده الله لأوليائه الصابرين فى الآخرة.

وفيه بيان أن الذى يلازم ذكر الله يعطى قوة أعظم من القوة التى يعملها له الخادم، أو تسهل الأمور عليه بحيث يكون تعاطيه أموره أسهل من تعاطى الخادم لهما.

ثم إن نفع التسبيح أعظم فى الدار الآخرة، ونفع الخادم مختص بالدار الدنيا، والآخرة خير وأبقى.

ويؤخذ منه أن كل من كانت لها طاقة من النساء على خدمة بيتها فى خبزٍ،

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (٣١١٣)، ومسلم (٢٧٢٧)، وأبو داود (٥٠٦٢)، والترمذى (٣٤٦٩).

أو طحنٍ، أو غير ذلك أن ذلك لا يلزم الزوج إذا كان معروفًا أن مثلها يلى ذلك بنفسه.

فإن فاطمة -رضي الله عنها- لما سألت أباها رسول الله -ﷺ- الخادم، لم يأمر زوجها على بن أبى طالب بأن يكفيها ذلك إما بإخدامها، أو باستئجار من يقوم بذلك، أو بتعاطى ذلك بنفسه، ولو كانت كفاية ذلك إلى على لأمره به كما أمره أن يسوق إليها صداقها قبل الدخول.

مع أن سَوْق الصداق ليس بواجبٍ إذا رضيت المرأة أن تؤخره، فكيف يأمره بما ليس بواجبٍ عليه، ويترك أن يأمره بالواجب؟!

قال مالك رحمه الله: إن خدمة البيت تلزم المرأة ولو كانت الزوجة ذات قدرٍ و شرفٍ، إذا كان الزوج معسراً.

ولذلك ألزم النبى -ﷺ- فاطمة بالخدمة.

وتعقب بأن الأمر جرى بينهم على ما تعارفوه من حسن العشرة وجميل الأخلاق، وأما أن تجبر المرأة على شىءٍ من الخدمة فلا أصل له، بل الإجماع منعقد على أن على الزوج مؤنة الزوجة كلها.

ونقل الطحاوى الإجماع على أن الزوج ليس له إخراج خادم المرأة من بيته، فدل على أنه يلزمه نفقة الخادم على حسب الحاجة إليه.

«فهذا خيرٌ لكما من خادم» وفى روايةٍ أخرى زيادة: «فتلك مائة باللسان، وألف فى الميزان» «ولا ليلة صفين؟» قال: ولا ليلة صفين، والمراد بليلة صفين الحرب التى كانت بين على وبين معاوية بصفين، وهى بلدة معروفة بين العراق والشام، وأقام بها الفريقان عدة أشهرٍ، وكانت بينهم معارك كثيرة..

قال ابن بطال رحمه الله: هذا نوعٌ من الذكر عند النوم، ويمكن أن يكون -ﷺ- كان يقول جميع ذلك عند النوم، وأشار لأمته بالاكتفاء ببعضها إعلامًا منه أن معناه الحض والندب لا الوجوب.

وفى هذا الحديث حجة لمن فضل الفقر على الغنى لقوله: «ألا أدلكما على ما هو خير لكما من خادم» فعلمهما الذكر، فلما منعهما الخادم وقصرهما على الذكر علم أنه إنما اختار لهما الأفضل عند الله.

ونعقب إنما هذا يصح لو كان عنده -ﷺ- من الخدام فضلة، وقد صرح أنه كان محتاجًا إلى بيع ذلك الرقيق لنفقته على أهل الصفة، ومن ثم فلا وجه لمن استدل به على أن الفقير أفضل من الغنى(١).

وإنما أراد أن يعلمهما -ﷺ- أن عمل الآخرة أفضل من أمور الدنيا على كل حالٍ، وإنما اقتصر على ذلك لما لم يمكنه إعطاء الخادم، ثم علمهما إذ فاتهما ما طلباه ذكرًا يحصل لهما أجرًا أفضل مما سألاه.

وإنما أحالهما على الذكر ليكون عوضًا، ولكونه -ﷺ- أحب لابنته ما أحب لنفسه من إيثار الفقر وتحمل شدته بالصبر.

قال المهلب رحمه الله:

علَّم -ﷺ- ابنته من الذكر ما هو أكثر نفعًا لها فى الآخرة، وآثر أهل الصفة لأنهم كانوا وقفوا أنفسهم لسماع العلم، وحفظ السُّنة على شبع بطونهم، لا يرغبون فى كسب مالٍ، ولا عيال، ولكنهم اشتروا أنفسهم من الله بالقوت.

وفى هذا الموقف منقبة لعلى بن أبى طالب، وفاطمة -رضي الله عنهما- وإظهار غاية

(١) نقلاً عن فتح البارى (١١/ ١٢٤).

التعطف، والشفقة على البنت، والصهر، ونهاية الاتحاد برفع الحشمة والحجاب حيث لم يزعجهما عن مكانهما فتركهما على حالة اضطجاعهما، وبالغ حتى أدخل رجله بينهما، ومكث بينهما حتى علمهما ما هو الأولى بحالهما من الذكر عوضًا عما طلباه من الخادم.

فهو من باب تلقى المخاطب بغير ما يطلب إيذانًا بأن الأهم من المطلوب هو التزود للمعاد، والصبر على مشاق الدنيا، والتجافى عن دار الغرور.

وفيه دلالة على مكانة أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- من النبى -ﷺ- حيث خصتها فاطمة بالسفارة بينها وبين أبيها دون سائر الزوجات.

وفيه: أن من واظب على هذا الذكر عند النوم لم يصبه إعياء، لأن فاطمة -رضي الله عنها- شكت التعب من العمل فأحالها -ﷺ- على ذلك.

وفيه: معجزة ظاهرة للرسول -ﷺ- بل معجزتان، فأخبر ببقائها بعده، وبأنها أول أهله لحاقًا به، ووقع كذلك، وضحكت سرورًا بسرعة لحاقها.

وفيه: إيثارهم الآخرة، وسرورهم بالانتقال إليها، والخلاص من الدنيا وشرورها[1].

❑❑❑

(١) انظر: شرح النووى (١٦/٦) على مسلم.

سر التسمية بفاطمة الزهراء

لقبت فاطـمة ابنة رسول الله -ﷺ- بأكثـر من لقبٍ، ومن تلك الألقاب: «فاطمة الزهراء».

فما السر وراء ذلك اللقب؟

هذا اللقب حيَّر الكثـيرين من العلماء والفضلاء، والفصـحاء والبلغاء، حتى قال العلامة ابن كثير فى كتابه جامع المسانيد[١] :

يقال لها: الزهراء، وما أدرى لماذا؟

فى البدء نقول: هذا اللقب لم يُعرف فى كتب الأوائل، وإنما جاء عند بعض المتأخريـن، ولذا لن نجد أسانيد توثيـقية تقودنا إلى السـر فى الكشف عن سبب تلك التسـمية ولكـن قد تساعـدنا اللغة فى الولوج إلى الكشف عن مـعنى وسر ذلك اللقب.

فيقول لنا ابن منظور:

الأزهرُ من الرجـال: الأبيض العتـيق البـياض، النيـر الحسنُ، وهو أحـسن البياض كأن له بريقًا ونوراً، يُزهر كما يزهر النجم والسراج.

ورجل أزهر أى أبيض مشرق الوجه، فالأزهر: الأبيض المستنير.

والزهرة: البياض النير، وهو أحسن الألوان.

وفى الحديث: «سورة البقرة وآل عمران الزهراوان» أى: المنيرتان، المضيئتان، واحدتهما زهراء.

---

(١) جامع المسانيد (١٦/ ٣٥) لابن كثير.

واليوم الأزهر: أى ليلة الجمعة ويومها، والمرأة الزهراء، وكل لونٍ أبيض كالدُّرة الزهراء.

والأزهر: القمر، وأصل ذلك كله من الزهرة، والحُسن، والبهجة.

وبنو زُهرة: حيٌّ من قريشٍ أخوال النبى -ﷺ-[1].

والسؤال بعد تلك الرحلة مع معانى الزهراء فى لغتنا الجميلة:

أليست فاطمة بنت رسول الله -ﷺ- هى سيدة نساء العالمين فى زمانها؟

فلماذا لا تلقب بفاطمة الزهراء؟!

أليست فاطمة ابنة النبى -ﷺ- هى أم الحسن والحسين السبطين؟!

فلماذا لا تلقب بفاطمة الزهراء؟!

أليست فاطمة بنت رسول الله -ﷺ- أُعطيت من المناقب بين أخواتها كمكانة يوم الجمعة بين سائر الأيام؟

فلماذا لا تلقب بفاطمة الزهراء؟!

وأليست فاطمة بنت رسول الله -ﷺ- قد فُضّلت على كل الفواطم؟!

فلماذا لا تختص بكونها فاطمة الزهراء بينهن؟!

ولذا مع حيرة الحافظ حول سر ذلك اللقب عاد فى بدء مسندها ليقول:

«مسند فاطمة الزهراء بنت محمد رسول الله -ﷺ-».

❑❑❑

(١) لسان العرب (٤/ ٣٣٢، ٣٣٣) لابن منظور.

فاطمة وميراث الرسول ﷺ

تروى عائشة -رضي الله عنها- فتقول:

إن فاطمة بنت رسول الله -ﷺ- أرسلت إلى أبى بكر تسأله ميراثها من رسول الله -ﷺ-، مما أفاء الله عليه بالمدينة، وفدك[١]، وما بقى من خمس خيبر.

فقال أبو بكر -رضي الله عنه-: إن رسول الله -ﷺ- قال: «لا نورث، ما تركناه صدقة»[٢].

وإنما يأكل آل محمد من هذا المال، وإنى والله لا أغير شيئًا من صدقة رسول الله -ﷺ- عن حالها التى كانت عليه فى عهد رسول الله -ﷺ-، ولأعملن فيها بما عمل رسول الله -ﷺ- فأما صدقته بالمدينة، فدفعها عمر إلى على وعباس، وأما خيبر وفدك فأمسكهما عمر[٣] وقال: هما صدقة رسول الله -ﷺ- فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة منها شيئًا، فوجدت[٤] فاطمة على أبى بكر فى ذلك فهجرته، فلم تكلمه حتى توفيت، وعاشت بعد النبى -ﷺ- ستة أشهر.

---

(١) فدك: بفتح الفاء والدال، بلدة بينها وبين المدينة ثلاث مراحل.

(٢) أى الذى تركناه فهو صدقة، والحكمة فى أن الأنبياء لا يُورثون: أنه لا يؤمن فى الورثة من يتمنى موته فيهلك، ولئلا يظن بهم الرغبة فى الدنيا لوارثهم فيهلك الظان، وينفر الناس عنهم.

(٣) أى لم يدفعها لغيره، وبيّن سبب ذلك، وقد ظهر بهذا أن صدقة النبى -ﷺ- تختص بما كان من بنى النضير، وأما سهمه من خيبر وفدك فكان حكمه إلى من يقوم بالأمر بعده، وكان أبو بكر يقدم نفقة نساء النبى -ﷺ- وغيرها مما كان يصرفه، فيصرفه من خيبر وفدك، وما فضل من ذلك جعله فى المصالح.

وعمل عمر بعده بذلك، فلما كان عثمان تصرف فى فدك بحسب ما رآه.

(٤) وَجَدت: حزنت.

فلما توفيت دفنها زوجها علىٌّ -رضي الله عنه- ليلاً، ولم يؤذن بها أبا بكر، وصلى عليها[١] .

وكان لعلىٍّ من الناس وجهٌ حياة فاطمة، فلما توفيت استنكر علىٌّ وجوه الناس[٢] ، فالتمس مصالحة أبى بكر ومبايعته[٣] ، ولم يكن يبايع تلك الأشهر[٤] ، فأرسل إلى أبى بكر: أن ائتنا، ولا يأتى معك أحد، كراهة لمحضر عمر[٥] .

---

(١) كان ذلك بوصيةٍ منها لإرادة الزيادة فى التستر، ولعله لم يعلم أبا بكر بموتها لأنه ظن أن ذلك لا يخفى عنه، وليس فى الخبر ما يدل على أن أبا بكر لم يعلم بموتها ولا صلى عليها.
وأما الحديث الذى أخرجه مسلم والنسائى وأبو داود فى النهى عن الدفن ليلاً فهو محمول على حال الاختيار لأن فى بعضه: «إلا أن يضطر إنسانٌ إلى ذلك».

(٢) أى كان الناس يزيدون فى احترامه إكرامًا لفاطمة -رضي الله عنها- فلما ماتت، واستمر على عدم الحضور عند أبى بكر قصر الناس عن ذلك الاحترام لإرادة دخوله فيما دخل فيه الناس.
ولذلك قالت عائشة فى آخر الحديث: لما جاء وبايع كان الناس قريبًا إليه حين راجع الأمر بالمعروف.
وكأنهم كانوا يعذرونه فى التخلف عن أبى بكر فى مدة حياة فاطمة لشغله بها وتمريضها، وتسليتها عما هى فيه من الحزن على أبيها -ﷺ-، ولأنها لما غضبت من رد أبى بكر عليها فيما سألته من الميراث، رأى علىٌّ أن يوافقها فى الانقطاع.
نقلاً عن فتح البارى (٧/ ٤٩٤):

(٣) يعنى البيعة العامة، وإلا فالبيعة الخاصة مرت.

(٤) قال المازرى: العذر لعلى -رضي الله عنه- فى تخلفه مع ما اعتذر هو به أنه يكفى فى بيعة الإمام أن تقع من أهل الحل والعقد، ولا يجب الاستيعاب، ولا يلزم كل أحدٍ أن يحضر عنده، ويضع يده فى يده، بل يكفى طاعته والانقياد له بألا يخالفه، ولا يشق العصا عليه، وهذا كان حال على لم يقع منه إلا التأخر فى الحضور عند أبى بكر -رضي الله عنه-.
وقال النووى: أما تأخر على بن أبى طالب -رضي الله عنه- عن البيعة فقد ذكره فى الحديث، واعتذر أبو بكر -رضي الله عنه- ومع هذا فتأخره ليس بقادحٍ فى البيعة، ولا فيه.
شرح النووى (١٢/ ٧٨) على مسلم.

(٥) السبب فى ذلك ما ألفوه من قوة عمر -رضي الله عنه- وصلابته فى القول والفعل، وكان أبو بكر رقيقًا لينًا، فكأنهم خشوا من حضور عمر كثرة المعاتبة التى قد تفضى إلى خلاف ما قصدوه من المصافاة.
وقال النووى: أما كراهيتهم لمحضر عمر، فلما علموا من شدته، وصدعه بما يظهر له، فخافوا أن =

فقال عمر لأبى بكر: لا والله، لا تدخل عليهم وحدك(١).

فقال أبو بكر: وما عساهم أن يفعلوا بى؟! والله لآتينهم، فدخل عليهم أبو بكر، فتشهد علىٌّ، ثم قال:

إنا قد عرفنا يا أبا بكر فضلك، وما أعطاك الله، ولم ننفس(٢) عليك خيراً ساقه الله إليك، ولكنك استبددت بالأمر(٣)، وكنا نرى لقرابتنا من رسول الله -ﷺ- نصيبًا(٤)، حتى فاضت عينا أبى بكر(٥).

فلما تكلم أبو بكر قال: والذى نفسى بيده لقرابة رسول الله -ﷺ- أحبُّ إلىَّ من أن أصل قرابتى، وأما الذى شجر(٦) بينى وبينكم من هذه الأموال، فإنى

= ينتصر لأبى بكر -رضي الله عنه- فيتكلم بكلام يوحش قلوبهم من أبى بكر، وكانت قلوبهم قد طابت عليه، وانشرحوا له فخافوا أن يكون حضور عمر سببًا لتغيرها.

الفتح (٧/ ٤٩٤)، شرح النووى (١٢/ ٧٨).

(١) معناه: أن عمر -رضي الله عنه- خاف أن يغلظوا على أبى بكر فى المعاتبة، ويحملهم على الإكثار من ذلك لين أبى بكر، وصبره عن الجواب عن نفسه، وربما رأى من كلامهم ما غير قلبه، فيترتب على ذلك مفسدة خاصة أو عامة، وإذا حضر عمر امتنعوا من ذلك.

فالمراد من قوله: لا تدخل عليهم لئلا يتركوا من تعظيمك ما يجب لك.

(٢) لم ننفس: بفتح الفاء، أى: لم نحسدك.

(٣) أى لم تشاورنا فى مسألة الخلافة.

(٤) فسبب العتب من علىٍّ أنه مع وجاهته، وفضيلته فى نفسه، وقربه من النبى -ﷺ-، وغير ذلك لم يستشر فى مسألة الخلافة أولاً.

وكان عذر أبى بكر وسائر الصحابة واضحًا لأنهم رأوا المبادرة بالبيعة من أعظم مصالح المسلمين وخافوا إن أخروها حصول خلاف، ونزاع يترتب عليه مفاسد عظيمة، ولهذا أخروا دفن النبى -ﷺ- حتى عقدوا البيعة لكونها كانت من أهم الأمور كى لا يقع نزاع فى مدفنه، أو كفنه أو غسله، أو الصلاة عليه، أو غير ذلك، وليس لهم من يفصل الأمور، فرأوا تقدم البيعة أهم الأشياء.

فالعذر لأبى بكر -رضي الله عنه- أنه خشى من التأخر عن البيعة الاختلاف لما كان وقع من الأنصار كما فى قصة السقيفة، فلم ينتظروه، بل جىء به للمبايعة على الفور.

(٥) أى لم يزل علىٌّ يذكر قرابته من رسول الله -ﷺ- حتى فاضت عينا أبى بكر من الرقة.

(٦) شجر: اختلف وتنازع، والشجار: الاختلاف والمنازعة.

لم آل فيها عن الحق، ولم أترك أمرًا رأيت رسول الله -ﷺ- يضعه فيها إلا صنعته.

فقال عليٌّ لأبي بكر: موعدك العشية[١] للبيعة.

فلما صلى أبو بكر صلاة الظهر رقى[٢] المنبر فتشهد، وذكر شأن علي وتخلفه عن البيعة وعذره بالذي اعتذر به إليه، ثم استغفر الله.

فتشهد عليٌّ فعظم حق أبي بكر، وذكر فضيلته، وسابقته، وأنه لم يحمله على الذي صنع نفاسة على أبي بكر، ولا إنكارًا للذي فضَّله الله به، ولكنا كنا نرى لنا في هذا الأمر نصيبًا، فاستبد علينا به، فوجدنا في أنفسنا[٣].

فسرَّ بذلك المسلمون، وقالوا: أصبت، فكان المسلمون إلى عليٍّ قريبًا[٤] حين راجع الأمر بالمعروف[٥].

يقول ابن كثير رحمه الله:

فهذه البيعة التي وقعت من علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- بعد وفاة فاطمة -رضي الله عنها- بيعة مؤكدة للصلح الذي وقع بينهما، وهي ثانية للبيعة التي ذكرناها أولاً يوم السقيفة، ولم يكن مجانبًا لأبي بكر هذه الستة الأشهر، بل كان يصلي

---

(١) العشية: هي من زوال الشمس.

(٢) رقى: علا.

(٣) قال القرطبي: من تأمل ما دار بين أبي بكر وعليٍّ -رضي الله عنهما- من المعاتبة، ومن الاعتذار وما تضمن ذلك من الإنصاف عرف أن بعضهم كان يعترف بفضل الآخر، وأن قلوبهم كانت متفقة على الاحترام والمحبة، وإن كان الطبع البشري قد يغلب أحيانًا، لكن الديانة ترد ذلك.

(٤) أي كان ودهم له قريبًا عندما دخل فيما دخل فيه الناس.

(٥) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخاري (٣٠٩٢)، (٤٢٤٠)، ومسلم (١٧٥٩)، وابن سعد (٨/٨) في الطبقات، وأبو داود (٢٩٦٨)، (٢٩٦٩)، وأحمد (٦/ ١٤٥).

وراءه، ويحضر عنده للمشورة وفى صحيح البخارى أن أبا بكر -رضي الله عنه- صلى العصر بعد وفاة رسول الله -ﷺ- بليالٍ، ثم خرج من المسجد فوجد الحسن بن على يلعب مع الغلمان، فاحتمله على كاهله، وجعل يقول: بأبى شبه النبى، ليس شبيهًا بعلى، وعلى يضحك(١).

ولكن لما وقعت هذه البيعة الثانية اعتقد بعض الرواة أن عليًّا لم يبايع قبلها، فنفى ذلك، والمثبت مقدم على النافى.

وأما غضب فاطمة -رضي الله عنها- على أبى بكر -رضي الله عنه- فما أدرى ما وجهه، فإن كان لمنعه إياها ما سألته من الميراث فقد اعتذر إليها بعذر يجب قبوله، وهو ما رواه عن أبيها رسول الله -ﷺ- أنه قال: «لا نورث، ما تركناه صدقة».

وهى ممن ينقاد لنص الشارع الذى خفى عليها قبل سؤالها الميراث، كما خفى على أزواج النبى -ﷺ- حتى أخبرتهن عائشة بذلك، ووافقنها عليه.

وليس يظن بفاطمة -رضي الله عنها- أنها اتهمت الصديق فيما أخبرها به، وحاشا من ذلك، كيف، وقد وافقه على رواية هذا الحديث عمر، وعثمان، وعلى، والعباس، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبى وقاص، وأبو هريرة، وعائشة -رضي الله عنهم أجمعين-.

وإن كان غضبها لأجل ما سألت الصديق إذ كانت هذه الأراضى صدقة لا ميراثًا أن يكون زوجها ينظر فيها، فقد اعتذر بما حاصله أنه كان خليفة رسول الله -ﷺ-، فهو يرى أن فرضًا عليه أن يعمل بما كان يعمله رسول الله -ﷺ-، ويلى ما كان يليه رسول الله -ﷺ-(٢).

---

(١) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (٣٧٥٠).

(٢) البداية والنهاية (٥/ ٢٨٧) لابن كثير.

وهي -رضي الله عنها- امرأةٌ من بنات آدم تأسف كما يأسفن، وليست بواجبة العصمة مع وجود نص رسول الله -ﷺ-، ومخالفة أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- وهو الصادق، البار، الراشد، التابع للحق، واحتاج عليٌّ أن يراعي خاطرها بعض الشيء.

فلما ماتت -رضي الله عنها- رأى عليٌّ أن يُجدد البيعة(١) .

وقد جاء التصريح بأسباب تأخر عليٌّ والزبير عن البيعة فيما رواه عبد الرحمن بن عوف -رضي الله عنه-، فقال:

قام أبو بكر فخطب الناس واعتذر إليهم، وقال:

والله ما كنت حريصًا على الإمارة يومًا، ولا ليلة قط، ولا كنت فيها راغبًا، ولا سألتها الله عز وجل في سرٍّ ولا علانية، ولكني أشفقتُ من الفتنة، ومالي في الإمارة من راحةٍ، ولكني قلدت أمرًا عظيمًا، مالي به من طاقةٍ ولا يدٍ إلا بتقوية الله عز وجل، ولوددت أن أقوى الناس عليها مكاني اليوم، فقبل المهاجرون منه ما قال، وما اعتذر به.

قال عليٌّ والزبير: ما غضبنا إلا لأنا قد أخرنا عن المشاورة، وإنا نرى أبا بكر أحق الناس بها بعد رسول الله -ﷺ- إنه لصاحب الغار، وثاني اثنين، وإنا لنعلم شرفه وكبره، ولقد أمره رسول الله -ﷺ- بالصلاة بالناس، وهو حيٌّ(٢) .

وبهذا ينتهي موقف فاطمة -رضي الله عنها- من ميراث النبي -ﷺ- وما حوله من ملابساتٍ، ومن الله العون والسداد.

---

(١) السابق (٥/ ٢٨٩).

(٢) إسناد صحيح. أخرجه الحاكم (٣/ ٦٦، ٦٧) وصححه، وأقره الذهبي.

فاطمة والنسل النبوى

من خصائص فاطمة -رضي الله عنها- أن نسل الرسول -ﷺ- انقطع من كل بناته، إلا منها، وإن كانت هى الصغرى.

وكانت فاطمة وأم كلثوم أصغر بنات رسول الله -ﷺ-، وقد اختلف: فى أيتهن أصغر سنًّا.

وقيل: إن رقية أصغرهن، وفيه عندى نظر، لأن النبى -ﷺ- زوَّج رُقية من ابن أبى لهب، فطلقها قبل الدخول بها، أمره أبواه بذلك، ثم تزوجها عثمان بن عفان -رضي الله عنه- وهاجرت معه إلى الحبشة، فما كان ليزوج الصغرى، ويترك الكبرى.

وكانت فاطمة تكنى أم أبيها، وكانت أحب الناس إلى رسول الله -ﷺ-، وزوَّجها من على بن أبى طالب -رضي الله عنه- بعد أُحد.

وقيل: تزوجها علىٌّ بعد أن ابتنى[1] رسول الله -ﷺ- بعائشة بأربعة أشهرٍ ونصف وابتنى بها بعد تزويجه إياها بسبعة أشهرٍ ونصف، وكان سنها يوم تزويجها خمس عشرة سنة وخمسة أشهرٍ فى قولٍ.

وانقطع نسل رسول الله -ﷺ- إلا منها، فإن الذكور من أولاده -ﷺ- ماتوا صغاراً، وأما البنات، فإن رقية -رضي الله عنها- ولدت عبد الله بن عثمان فتوفى صغيراً.

وأما أم كلثوم فلم تلد.

---

(١) ابتنى: الدخول، وهى الليلة المسماة بليلة الزفاف.

وأما زينب -رضي الله عنها- فولدت عليًّا، ومات صبيًّا، وولدت أمامة بنت أبى العاص فتزوجها علىٌّ، ثم بعده المغيرة بن نوفل، وانقرض نسل زينب -رضي الله عنها وأرضاها-[1] .

وبقى نسل فاطمة إلى يوم الدين بمشيئة رب العالمين، وكانت بدايته فى الحسن والحسين السبطين -رضي الله عنهما وأرضاهما-.

❑❑❑

(١) أسد الغابة (٧/ ٢٢٠، ٢٢١)، نسب قريش (ص٢٢) لمصعب الزبيرى.

فاطمة رأس بنات أهل البيت

من خصائص فاطمة -رضي الله عنها- أنها كانت رأس بنات أهل البيت رضوان الله عليهم أجمعين.

يقول سعد بن أبى وقاص -رضي الله عنه-:

سمعت رسول الله -ﷺ-، يقول لعلىٍّ وقد خلفه فى بعض مغازيه، فقال له علىٌّ: يا رسول الله، خلَّفتنى مع النساء والصبيان؟!

فقال له رسول الله -ﷺ-: «أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى، إلا أن لا نبوة بعدى».

وسمعته يقول يوم خيبر: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله» قال: فتطاولنا لها، فقال -ﷺ-: «ادعوا لى عليًّا».

فأُتى به أرمد، فبصق فى عينه، ودفع الراية إليه، ففتح الله عليه، ولما نزلت هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

فدعا رسول الله -ﷺ-: عليًّا وفاطمة وحسنًا وحسينًا، فقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتى»[١].

وعن أم سلمة -رضي الله عنها- أن رسول الله -ﷺ- قال لفاطمة: «ائتينى بزوجك وابنيه».

فجاءت بهم، فألقى رسول الله -ﷺ- كساء فدكيًّا، ثم وضع يده عليهم،

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه مسلم (٢٤٠٤).

ثم قال: «اللهم إن هؤلاء آل محمدٍ، فاجعل صلواتك وبركاتك على آل محمدٍ فإنك حميد مجيد».

تقول أم سلمة: يا رسول الله، ألست من أهل البيت؟

قال: «أنت إلى خير»(١).

وفى رواية أخرى تقول أم سلمة -رضي الله عنها-: جاءت فاطمة غُدَّيةً بثريدٍ لها تحملها فى طبقٍ لها حتى وضعتها بين يديه، فقال لها:

«وأين ابن عمك؟».

قالت: هو فى البيت.

قال: «اذهبى فادعيه وائتينى بابنىَّ» فجاءت تقود ابنيها كل واحدٍ منهما فى يدٍ، وعلى يمشى فى أثرهما، حتى دخلوا على رسول الله -ﷺ-، فأجلسهما فى حجره وجلس علىٌّ عن يمينه، وجلست فاطمة -رضي الله عنها- فى يساره.

قالت أم سلمة: فأخذت من تحتى كساءٍ كان بساطنا على المنامة فى البيت ببرمة فيها خزيرة، فقال النبى -ﷺ-: «ادعى لى بعلك وابنيك الحسن والحسين».

فدعتهم فجلسوا جميعًا يأكلون من تلك البرمة، قالت: وأنا أُصلى فى تلك الحجرة، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب:٣٣].

---

(١) حديث صحيح. أخرجه الترمذى (٣٩٦٣)، وقال: حسن صحيح، وأحمد (٦/ ٢٩٨، ٣٠٤)، والحاكم (٣/ ١٤٦) وصححه وأقره الذهبى.

فأخذ فضل الكساء فغشاهم، ثم أخرج يده اليمنى من الكساء، وألوى بها إلى السماء، ثم قال:

«اللهم هؤلاء أهل بيتى وحامتى[1] فأذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيرًا».

قالت أم سلمة:

فأدخلت رأسى البيت، فقلت: يا رسول الله وأنا معكم؟

قال: «أنت على خيرٍ» مرتين.

وفى رواية أخرى: اعتنق رسول الله -ﷺ- عليًّا وفاطمة بيدٍ، وحسنًا وحسينًا، وعطف عليهم خميصة كانت عليه سوداء، وقبَّل عليًّا وقبَّل فاطمة -رضي الله عنهم- ثم قال: «اللهم إليك لا إلى النار أنا وأهل بيتى».

قالت أم سلمة: قلت. وأنا؟ قال: «وأنتِ»[2].

---

(١) حامتى: خاصتى.

(٢) حديث صحيح. أخرجه الترمذى (٣٩٦٣) وقال: حسن صحيح، وأحمد (٦/ ٢٩٢، ٢٩٨، ٣٠٤، ٣٢٣).

حياة سيدة نساء العالمين

هذه هى حياة سيدة نساء العالمين فى الأمة الإسلامية، ومع ذلك لم تتأفف، ولم تكن أنانة، وصاحبة شكوى ليلاً ونهاراً.

بل كانت صابرة، قانعة، تحيا حياة بسيطة، لا تعرف معنى الكماليات التى تضيع حياة المسلم والمسلمة فى أيامنا من أجل توفيرها.

لقد عاشت حياتها الزوجية بأسباب بسيطة، لكنها كانت أعبد لله تعالى من كثيرٍ من مسلمى اليوم، الذين انهمكوا فى تحصيل كماليات الحياة حتى انشغلوا عن الدار الآخرة.

فمن نعم بالحياة البسيطة ارتاح باله، وهدأت نفسه، واستعد للدار الآخرة.

وماذا كان مهرها، وهى خير نساء العالمين؟!

قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: لما تزوج علىٌّ فاطمة، قال رسول الله -ﷺ-: «أعطها شيئًا».

قال: ما عندى شىء؟

قال عليه الصلاة والسلام: «أين درعك الحطمية[١] ؟»[٢] .

فأصدقها إياها، وكانت ثمنها أربعمائة درهم.

فهنيئًا لك أم الحسن والحسين بهذه المنقبة الكبرى.

---

(١) الحطمية: التى تحطم السيوف، وتكسرها، وهى عريضة ثقيلة.

(٢) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه أبو داود (٢١٢٥)، (٢١٢٦)، والنسائى (٦/ ١٣٠)، وابن سعد (٨/ ٢٢) فى طبقاته، والبيهقى (٧/ ٢٥٢) فى سننه الكبرى.

وهنيئًا لك فاطمة بتلك الفضيلة العظمى.

تقول أم سلمة -رضي الله عنها-:

دعاها رسول الله -ﷺ- عام الفتح فناجاها فبكت، ثم حدثها فضحكت، فلما توفى سألتها، فقالت: «أخبرنى أنه يموت فبكيت، ثم أخبرنى أنى سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران فضحكت»[1].

«إلا مريم بنت عمران» الاستثناء يحتمل التساوى، ويحتمل العكس فى الفضل، ولعله قبل أن يوحى إليه -ﷺ- بفضل فاطمة على نساء العالمين.

وروى أنس بن مالك -رضي الله عنه-، فقال:

«حسبك من نساء العالمين: مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون»[2].

ويقول علىٌّ -رضي الله عنه-: ما كان لنا إلا إهاب كبشٍ ننام على ناحيته[3].

حقًّا إنها دعوةٌ إلى البساطة فى أمر الحياة الزوجية.

صدقًا إنها دعوةٌ إلى الرضا بأقل القليل فى وقتٍ تُخرب فيه البيوت، ويُشرد الأولاد، وتُطلق النساء من أجل بعض كماليات الحياة.

فهلا اقتدينا بأمثال هؤلاء الأطهار؟!

---

(١) حديث صحيح. وإسناده حسن. أخرجه الترمذى (٣٩٨٥) وقال: حسن غريب، وسبق بنحوه من حديث عائشة.

(٢) حديث صحيح. أخرجه الترمذى (٣٩٨١)، وأحمد (٣/ ١٣٥)، والحاكم (٣/ ١٣٥)، وابن حبان (٢٢٢٢)، ومن حديث على بن أبى طالب أخرجه الترمذى (٣٩٨٠)، والحاكم (٣/ ١٥٤) وصححه وأقره الذهبى.

(٣) خبرٌ حسنٌ. أخرجه أحمد (ص١٩) فى الزهد.

أليست فاطمة قدوة لكل مسلمةٍ تؤمن بالله واليوم الآخر؟!

أليس هى سيدة نساء العالمين فى زمانها، ومن سيدات نساء أهل الجنة؟!

وأليس الإمام على بن أبى طالب هو أمير المؤمنين، ومن العشرة المبشرين بالجنة؟!

فكيف لا نتخذ منهما أسوة لنا فى حياتنا؟!

فاطمة سيدة نساء الأمة فراشها ووسائدها من الليف؟!

فاطمة سيدة نساء الأمة زادها قربة، ومنخل، ومنشفة وقدح؟!

ومع كل ذلك فهى العابدة الصابرة، التقية المجاهدة، الفاضلة الطاهرة!!

حقًّا إنها سيدة نساء الأمة الإسلامية.

❑❑❑

نزول ملك يبشر فاطمة رضي الله عنها

يا لها من منقبة عظمى أن ينزل ملك من السمـاء فيبشر فاطمة -رضي الله عنها- بأنها سيدة نساء أهل الجنة!

يقول حذيفة -رضي الله عنه-:

سألتنى أمى: مـتى عهدك[١] ؟ يعنى بالنبى -ﷺ-. فقلت: مالـى به عهدٌ منذ كذا وكذا، فنالت منى[٢] ، فقلت لها: دعينى آت النبى -ﷺ- فأصلى معه المغرب وأسأله أن يستغفر لى ولك.

فأتيت النبى -ﷺ- فصليت مـعه المغرب، فصلى حتى صلَّـى العشاء، ثم انفتل[٣] فتبعته فسمع صوتى، فقال: «من هذا؟.. حذيفة؟».

قلت: نعم. قال: «ما حاجتك غفر الله لك ولأمك؟!».

وفى روايةٍ: «مالك؟» فحدثته بالأمر، فقال: «غفر الله لك ولأمك».

فقال: «أما رأيت العارض الذى عـرض لى قبيل؟» قال: قلت: بلى. قال: «فهو ملك مـن الملائكة لم يهبط الأرض قبل هذه الليلة، فاسـتأذن ربه أن يسلم علىَّ[٤] ويبشرنى أن الحسن والحسين سيـدا شباب أهل الجنة، وأن فاطمـة سيدة نساء أهل الجنة»[٥] -رضي الله عنهم أجمعين-.

---

(١) يقال: متى عهدك بفلان؟ أى: متى رؤيتك إياه.

(٢) نالت منى: أى: ذكرتنى بسوءٍ، وزاد أحمد: وسبتنى.

(٣) انفتل: انصرف.

(٤) وفى روايةٍ أخرى: «إن هذا ملك لم ينزل الأرض قط قبل هذه الليلة».

(٥) حديـث صحيـح. أخرجه الـترمـذى (٣٨٧٠)، وأحمد (٥/ ٣٩١، ٤٠٤)، والحـاكم (٣/ ١٥١)، (٣/ ٣٨١) وقال الترمذى: حسن صحيح، وصححه الذهبى.

«حسبك» أي: يكفيك معرفتك فضلهن عن معرفة سائر النساء، فإنهن اللواتي وصلن إلى مرتبة الكاملات في الاقتداء بهن، وذكر محاسنهن، ومناقبهن، وإقبالهن على الآخرة، وزهدهن في الدنيا.

يقول ابن عباس -رضي الله عنهما-: قال عليه الصلاة والسلام:

«أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون»[1].

حقًّا إنها سيدة نساء عالميها.

وصدقًا إنها من سيدات نساء أهل الجنة، بل من أفضلهن.

فيا ليت النساء في أيامنا يقتدين بها.

ويا ليت البنات في زماننا يتأسين بها.

فحسبهن أنها ابنة خاتم الأنبياء والمرسلين، وزوجة أمير المؤمنين، ورابع العشرة المبشرين، وأم السبطين، الحسن والحسين.

□□□

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه أحمد (١/ ٣٢٢، ٣٩٣)، والحاكم (٣/ ١٦٠، ١٨٥)، وصححه، وأقره الذهبي.

«من خصائص فاطمة»

لا يجمع بين بنت نبى الله وبنت عدو الله

مما لا يختلف عليه تحريم أذى من يتأذى النبى -ﷺ- بتأذيه، لأن أذى النبى عليه الصلاة والسلام حرام اتفاقًا، قليله وكثيره.

ولذا كان من خصائص فاطمة -رضي الله عنها- وفضائلها: تحريم الجمع بينها وبين بنت عدو الله.

يقول المسور بن مخرمة -رضي الله عنه-:

إن على بن أبى طالب -رضي الله عنه- خطب ابنة أبى جهل على فاطمة عليها السلام، فسمعت رسول الله -ﷺ- يخطب الناس فى ذلك على منبره هذا ـ وأنا يومئذٍ كالمحتلم ـ فقال:

«إن فاطمة بضعة منى، وأنا أتخوف أن تفتن فى دينها».

«وإن بنى هشام بن المغيرة استأذنونى أن ينكحوا ابنتهم على بن أبى طالب، فلا آذن لهم، ثم لا آذن لهم، ثم لا آذن لهم، إلا أن يحب ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى، وينكح ابنتهم، فإنما ابنتى بضعة منى، يريبنى ما رابها، ويؤذينى ما آذاها، فمن أغضبها أغضبنى وإنى لست أحرم حلالاً، وأحل حرامًا، ولكن والله لا تجتمع بنت نبى الله، وبنت عدو الله مكانًا واحدًا أبدًا»[1] .

«بضعة منى»: البضعة قطعة اللحم، وكذلك المضغة، وسبب هذا التعبير

---

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (٣١١)، (٣٧٢٩)، ومسلم (٢٤٤٩)، وأحمد (٤/٣٢٦)، وأبو داود (٢٠٥٥)، والترمذى (٣٩٥٩)، والنسائى (٦٥) فى الخصائص، وابن ماجه (١٩٩٨).

النبوى، أنها أصيبت بأمها، ثم بإخواتها واحدة بعد واحدة، فلم يبق لها من تستأنس به، ممن يخفف عليها الأمر ممن تفضى إليه بسرها إذا حصلت أى شدة، ولذا قال: «أنا أتخوف أن تفتن فى دينها» وذلك بسبب الغيرة الناشئة من طبيعتها البشرية فيقع منها فى حق زوجها فى حال الغضب ما لا يليق بحالها فى الدين.

ولذلك أكد -ﷺ- المنع بقوله: «فلا آذن لهم، ثم لا آذن لهم، ثم لا آذن لهم» كرر ذلك تأكيدًا، وفيه إشارةٌ إلى التأكيد فى المنع، وكأنه أراد رفع المجاز لاحتمال أن يُحمل النفى على مدة بعينها، فقال:

«لا آذن» أى ولو مضت المدة المفروضة تقديراً لا آذن بعدها، ثم كذلك أبداً.

«يريبنى ما رابها» الراب: ما رابك من شىءٍ خفت عقباه، ورابنى الأمر تيقنت منه الريبة، ورابنى شككنى وأوهمنى.

والمعنى: يسوؤنى ما يسوؤها، ويزعجنى ما يزعجها، ويؤلمنى ما يؤلمها، وبذلك جزم الرسول -ﷺ-، فهو يؤذى النبى عليه الصلاة والسلام بشهادة هذا الخبر.

ثم يختتم النبى -ﷺ- بيانه فيقول: «لست أحرم حلالاً، وأحل حرامًا».

أى: لا أقول شيئًا يخالف حكم الله، فإذا أحل شيئًا لم أحرمه، وإذا حرم لم أحلله، ولم أسكت عن تحريمه، لأن سكوتى تحليل له، ويكون من جملة محرمات النكاح الجمع بين بنت نبى الله، وبنت عدو الله.

وفى هذا بيان كمال شفقته -ﷺ-، ورحمته بفاطمة -رضي الله عنها-، وشدة خوفه عليها، وإكرام من ينتسب إلى الخير أو الديانة، وذكر خصيصة من خصائص ومناقب فاطمة -رضي الله عنها وأرضاها، وجعل أعلى عليين مأواها-.

اللحظات الأخيرة وفاطمة رضي الله عنها

وكم كانت تلك اللحظات شديدة على فاطمة -رضي الله عنها- أن تشاهد بعينيها آخر اللحظات في حياة خاتم الأنبياء والمرسلين.

يقول أنس بن مالك -رضي الله عنه- لما ثقل النبى -ﷺ- جعل يتغشاه، فقالت فاطمة: واكرب أباه!

فقال لها -ﷺ-: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم»[١] .

فلما مات، قالت -رضي الله عنها-: يا أبتاه أجاب ربًّا دعاه، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه».

فلما دُفن -ﷺ- قالت فاطمة -رضي الله عنها-: يا أنس، أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله -ﷺ- التراب؟!

«ليس على أبيك كرب» يريد لا يصيبه بعد اليوم ألم، ولا تعب، ولا مشقة إذ أفضى إلى الدار الآخرة، والسلامة الدائمة.

وتمضى الأيام تلو الأيام لتتحق النبوءة النبوية، فكانت أول أهله لحوقًا به، فتلحق فاطمة خير النساء برسولنا -ﷺ- حيث الروح والريحان، والنعيم من كل ألوانٍ، والرب الراضى غير الغضبان.

وها هى ذى آخر اللحظات فى عمرها الطاهر، لما حضرها الموتُ قالت لأسماء بنت عميس: يا أسماءُ، إنى قد استقبحت ما يصنع بالنساء، يطرح على المرأة الثوب فيصفها.

---

(١) حديثٌ صحيحٌ. اخرجه البخارى (٤٤٦٢)، وابن ماجه (١٦٣٠).

فقالت أسماء بنت عميس:

يا ابنة رسول الله -ﷺ- ألا أريك شيئًا رأيته بأرض الحبشة؟ فدعت بجرائد رطبة فحنتها، ثم طرحت عليها ثوبًا.

فقالت فاطمة -رضي الله عنها-: ما أحسن هذا! وأجمله، فإذا مِتُّ فاغسليني أنت وعليٌّ، ولا تُدخلي عليَّ أحدًا.

فلما تُوفيت جاءت عائشة -رضي الله عنها- فمنعتها أسماء بنت عميس، فشكتها عائشة إلى أبي بكر، وقالت: هذه الخثعمية، تحول بيننا وبين بنت رسول الله -ﷺ-، وقد صنعت لها هودجًا؟!!

قالت أسماء: هي أمرتني ألا يدخل عليها أحد، وأمرتني أن أصنع لها ذلك.

قال أبو بكر الصديق -رضي الله عنه-: فاصنعي ما أمرتك، وغسَّلها عليٌّ، وأسماء[1].

فهي -رضي الله عنها- أول من غُطي نعشها في الإسلام، ثم بعدها: زينب بنت جحش.

وعاشت فاطمة -رضي الله عنها- على الصحيح بعد النبي -ﷺ- ستة أشهر، ودُفنت ليلاً كما أوصت، بعد أن صلى عليها علي بن أبي طالب، ونزل في قبرها عليٌّ، والعباس، والفضل بن العباس -رضي الله عنهم أجمعين-[2].

(١) الحلية (٢/ ٤٣)، المستدرك (٣/ ١٦٣، ١٦٤)، الاستيعاب (٤/ ١٨٩٧، ١٨٩٨)، أسد الغابة (٧/ ٢٢٦)، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٢٨، ١٢٩).

(٢) الاستيعاب (٤/ ١٨٩٩)، أسد الغابة (٧/ ٢٢٦)، السير (٢/ ١٢٧).

ولقـد كان ذلك فى ليلة الثـلاثاء، لثلاث خلون من رمـضان، سنـة إحدى عشرة[١] .

فسلامٌ على خير النساء فى العالمين[٢] .

وسلامٌ على فاطمة فى عداد بناتِ حول الرسول -ﷺ-.

□□□

(١) السير (٢/١٢٨)، أسد الغابة (٧/٢٢٦).

(٢) انظر: طبـقات ابـن سعـد (٨/١٩ ـ ٣٠)، الحليـة (٢/٣٩ ـ ٤٣)، المستـدرك (٣/١٥١ ـ ١٦١)، الاستيعاب (٤/١٨٩٣)، أسد الغابة (٧/ ٢٢٠)، تهـذيب الكمال (١٦٩٠)، العبر (١/١٣)، مجمع الزوائد (٩/٢٠١ ـ ٢١٢)، السيـر (٢/١١٨)، التـهـذيب (١٢/ ٤٤٠)، شـذرات الذهب (١/٩، ١٥).

بنات فاطمة حول الرسول ﷺ

إنهن حفيدات الرسول -ﷺ- من فاطمة النبوية: زينب وأم كلثوم -رضي الله عنهما-.

لم تنجب فاطمة -رضي الله عنها- من الإناث سوى هاتين البنتين، وقد نالتا شرف الصحبة.

فالجد هو خاتم الأنبياء والمرسلين، والأم هى فاطمة سيدة نساء العالمين، والوالد هو أمير المؤمنين، فيا له من شرفٍ وقدرٍ عظيم.

وكم قد سعد الرسول -ﷺ- بتلك الحفيدات، وسعدن به، وأحببهن، وأحببنه، وسُر بهن، وسررن به مع أمامة بنت أبى العاص، ابنة زينب الكبرى.

فكم تكون سعادة الجد وهو يرى أحفاده وحفيداته أمام عينيه؟!

وكم تكون سعادة الحفيدات والأحفاد، والجد يكرمهن، ويقدم لهن كل ما يفرحهن؟!

فما بالنا لو كان الجد هو خاتم الأنبياء والمرسلين، وخير خلق الله تعالى أجمعين؟!

وما بالنا لو كانت الحفيدات من فاطمة الفاضلة التقية، خير نساء العالمين فى زمانها ومن أفضل نساء أهل الجنة؟!

□□□

تخيير نساء النبى بين الدنيا والآخرة

قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً﴾ [الأحزاب:٢٨].

أمر الله تعالى رسوله -ﷺ-: أن يقول لزوجاته هذا، وأمر الله لرسوله لابد أن يكون له رصيد من خواطر خطرت على الزوجات وإلا فلماذا يقول؟! وكأنى بالخواطر إنما نشأت من قول الله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [الأحزاب:٢٧].

فالنساء كما تعرفونهن يفضلن التوسعة فى العيش، فسألن رسول الله -ﷺ- النفقة.

فهنا الحق سبحانه وتعالى يأمر رسوله -ﷺ- أن يخبر أزواجه والحرف ﴿إِن﴾ فى كلمة ﴿إِن كُنتُنَّ﴾ يدل على أنهن لم يتمتعن، لأن الفعل لو تحقق لكان: «إذا كنتن تردن» لأنها للتحقيق لكن «إن» تستخدم للشك، صحيح هذا الخبر لأنكم تعلمون أن رسول الله -ﷺ-، جمع من النساء تسعًا منهن خمس من قريش هن: السيدة عائشة، والسيدة حفصة، و السيدة أم حبيبة بنت أبى سفيان، والسيدة سودة بنت زمعة، والسيدة أم سلمة، وبعد ذلك هناك السيدة صفية بنت حيى بن أخطب، والسيدة جويرة بنت الحارث من بنى المصطلق، والسيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية، والسيدة زينب بنت جحش من بنى أسد رضى الله تعالى عنهن جميعًا.

فلما سألن رسول الله -ﷺ- النفقة كانت أجرأهن فى الكلام السيدة حفصة -رضي الله عنها- فجلست مع رسول الله -ﷺ- وحدث بينهما أخذ ورد فى الكلام فقال

لها: «ألا تحبين أن استدعى رجلاً بيننا»؟ فوافقت فأرسل إلى سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، فلما جاء وجلس قال لها النبى -ﷺ-: «تكلمى»، فقالت: يا رسول الله تكلم أنت ولا تقل إلا حقًّا، فغضب عمر رضى الله تعالى عنه وهاج وقام فضربها ولولا أن أمسكه رسول الله -ﷺ- لفتك بها وقال لها: إن رسول الله -ﷺ- لا يقول إلا حقًّا، ووالله لولا أننا فى مجلسه ما تركتك حتى تموتى.

فقام رسول الله -ﷺ- ليفض النزاع وذهب إلى حجرته واعتكف بها وقاطع الأمر كله وظل مدة شهر.

الحق سبحانه حين يقول لرسوله -ﷺ-: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا**﴾ تجد كلمات مثل «الحياة الدنيا»، وكلمة «زينة»، والزينة ترف فى الأشياء لا فى الجوهر، والحياة كمادة بالية، والله تعالى يقول: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ**﴾ [الحديد: ٢٠] كأن الله تعالى يريد أن يبشع المسألة، وفى المقابل يقول سبحانه: ﴿**وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٢٩].

هذه المقابلة كان يجب أن تنبه النساء أن المقارنة صعبة جدًّا، فلا يمكن أن نجعل الحياة الدنيا وزينتها فى كفة، ونجعل فى مقابلها الله ورسوله والدار الآخرة، فالتخيير يوحى بأنه مرفوض فلا خيار غير الله تعالى ورسوله -ﷺ-، عملن بما فهمن من النص ولم يخترن على رسول الله شيئًا ورضين بالله ورسوله والدار الآخرة.

ومعنى: ﴿**أُمَتِّعْكُنَّ**﴾ أى: أعطيكن المتعة التى يُحكم بها للمطلقة.

وكلمة: ﴿**سَرَاحًا جَمِيلاً**﴾، الحق سبحانه حينما يصف أى شىء بالجمال،

يريد به اللطف والرقة والرحمة، مثل قوله سبحانه: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف:١٨]، أى ليس فيه شكوى، فكلمة ﴿سَرَاحًا جَمِيلاً﴾، تعنى أن وقت الفرقة لا يكون فيه بشاعة أو عنف، لأن التسريح فرقة ومفارقة فلا يجب أن يكون بقسوة.

ومعنى: ﴿سَرَاحًا جَمِيلاً﴾ أى: لا مشاحنة فيه، ولا خصومة، لأنها ما دامت اختارت عليه، فهو لا يحب أن يمسك من تختـار عليه غيره، فالمسألة تحتاج إلى لطف.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، المحسنة التى تفوق حـد المطلوب بين الرحمـة والمودة فى الزوجيـة، أى: أنها تعطى أكـثر مما يطلب منها فى هذا المجال.

□□□

عائشة بنت أبى بكر

نسبها ومولدها:

هى عائشة بنت أبى بكر الصديق، وأمها: أم رومان بنت عامر بن عويمر، وقد كان مولدها قبل الهجرة النبوية بما يقارب ثمان سنين تقريبًا.

فكان مولدها فى الإسلام، فى أثناء الدعوة المكية -رضي الله عنها-.

هجرتها وزواج الرسول ﷺ بها:

هاجر الصديق وأم رومان إلى المدينة، ومعهما عائشة من بعدهما، وكان الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد تزوج بها قبل الهجرة ببضعة عشر شهرًا، وذلك بعد وفاة خديجة -رضي الله عنها-.

ودخل بها الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى شهر شوال من سنة اثنتين من الهجرة، وذلك بعد رجوعه من غزوة بدر، وهى ابنة تسع سنين بالغة، عاقلة، رشيدة.

وكانت ذات حسنٍ، فلقبت بالحميراء، ولم يتزوج النبى -ﷺ- بكرًا غيرها، وكانت من أحب النساء إلى قلبه ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

سئل ـ عليه الصلاة والسلام ـ: أى الناس أحب إليك يا رسول الله؟ قال: «عائشة».

قيل: فمن الرجال؟ قال: «أبوها»[1].

(١) حديث صحيح. أخرجه البخارى (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤).

الزواج المبارك:

كانت عائشة -رضي الله عنها- ذات جمالٍ وعقلٍ، ومن ثم يقال لها: الحُميراء، ولم يتزوج النبى -ﷺ- بكراً غيرها، ولا أحب امرأة حبّها، وقد رأى صورتها فى منامه، وقال له الملك جبريل عليه السلام إنها ستكون زوجتك.

تقول عائشة -رضي الله عنها-: قال رسول الله -ﷺ-:

«أُريتُك فى المنام ثلاث ليالٍ، جاء بك المَلَكُ فى سرقة[1] من حرير، فيقول: هذه امرأتُكَ، فأكشفُ عن وجهك، فإذا أنت فيه، فأقول: إن يك هذا من عند الله يُمضِه»[2].

ومن بعد هذا الزواج المبارك، أحبها الرسول -ﷺ- حُبًّا شديداً بحيث إن عمرو بن العاص، وهو ممن أسلم سنة ثمانٍ من الهجرة، سأل النبى -ﷺ- فقال:

يا رسول الله، أى الناس أحب إليك؟

قال: «عائشة». قال: فمن الرجال؟ قال: «أبوها»[3].

ولذا كان الصحب الكرام يتحرون بهداياهم إلى الرسول -ﷺ- يوم عائشة، حتى اشتكت باقى أمهات المؤمنين من ذلك.

فاجتمعت أمهات المؤمنين عند أم سلمة -رضي الله عنها- وقلن: يا أم سلمة، والله إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، وإنا نريد الخير، كما تريده عائشة،

---

(١) سرقة: قطعة.

(٢) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (٣٨٩٥)، ومسلم (٢٤٣٨).

(٣) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (٣٣٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤).

فمُرى رسول الله -ﷺ- أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيث ما كان، أو حيث ما دار.

فذكرت ذلك أم سلمة -رضي الله عنها- للنبى -ﷺ- فأعرض عنها، ثم ذكرت له ذلك ثانيةً فأعرض عنها، فلما كان فى الثالثة ذكرت له ذلك، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «يا أم سلمة، لا تؤذينى فى عائشة».

«فإنه والله ما نزل علىَّ الوحى، وأنا فى لحاف امرأة منكن غيرها»(١) .

وكفى بهذا شرفًا لأم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-.

وكان -ﷺ- يمدحها، ويُظهر فضلها قائلاً:

«فضل عائشة على النساء كفضل الثريد(٢) على سائر الطعام»(٣) .

وإنما مثل الرسول ، بالثريد لأنه أفضل طعام العرب، ولا يرون فى الشبع أغنى غناء منه.

والسر فى هذا التمثيل: أن الثريد مع اللحم جامعٌ بين الغذاء، واللذة، والقوة، وسهولة التناول، وقلة المؤونة فى المضغ، وسرعة المرور فى المرىء، فضرب به مثلاً ليؤذن بأنها أعطيت مع حسن الخَلْق الخُلُق، وحلاوة النطق، وفصاحة اللهجة، وجودة القريحة، ورزانة الرأى، ورصانة العقل، والتحبب إلى الزوج.

وحسبنا أنها حفظت عن النبى -ﷺ- ما لم تحفظ غيرها من النساء، وروت

---

(١) حديثٌ صحيح. أخرجه البخارى (٥/ ٣٧)، ومسلم (٢٤٤١)، والترمذى (٣٩٦٦)، والنسائى (٧/ ٦٨).

(٢) الثريد: معروف، وهو أن يثرد الخبز بمرق اللحم، وأفضله ما كان معه اللحم.

(٣) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (٥/ ٣٦)، ومسلم (٢٤٤٦)، والترمذى (٣٨٨٧).

ما لم يرو مثلها من الرجال، وكفى بهذا شرفًا وفخرًا.

جبريل والسلام على عائشة:

ولقد كان المَلَك الأمين جبريل يأتى إلى الأمين رسولنا -ﷺ- ويُلقى السلام على أم المؤمنين عائشة، تقول أم المؤمنين وأعلم النساء:

قال لى رسول الله -ﷺ- يومًا: «يا عائش، هذا جبريل يقرئك السلام»[1].

فقلت: يا رسول الله، عليه السلام ورحمة الله وبركاته، ترى ما لا أرى.

أى فضلٍ بعد هذا الفضل؟!

وأى فخرٍ بعد هذا الفخر؟!

وقد كان النبى -ﷺ- يداعبها بترخيم اسمها «يا عائش» ويكنيها بأم عبد الله، بل ويسابقها فى بعض الأسفار.

تقول أعلم النساء: خرجت مع رسول الله -ﷺ- فى بعض أسفاره، وأنا جارية لم أحمل اللحم، ولم أبدن، فقال للناس: «تقدموا» فتقدموا، ثم قال لى: «تعالى حتى أسابقك».

فسابقته فسبقته، فسكت عنى حتى حملت اللحم، وبدنت وسمنت، وخرجت معه فى بعض الأسفار، فقال للناس: «تقدموا» ثم قال: «تعالى أسابقك» فسبقنى، فجعل يضحك ويقول: «هذه بتلك»[2].

أليس فى ذلك دعوة إلى كل زوجٍ بالمرح والمزاح مع زوجته؟!

---

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (٣٧٦٨)، ومسلم (٢٤٤٧)، وأحمد (٦/ ٨٨، ١١٧).

(٢) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه أبو داود (٢٥٧٨)، والنسائى (٥٦) فى العشرة، وابن ماجه (١٩٧٩).

فما بالنا نجد أزواجًا وقد حولوا بيوتهم إلى بيوت العبس والكآبة؟!

وكان البشير النذير -ﷺ- يداعب أعلم النساء قائلاً لها:

«إنى لأعلم إذا كنت عنى راضية، وإذا كنت علىَّ غضبى».

قالت: فقلت: يا رسول الله، من أين تعرف ذلك؟ فقال: «أما إذا كنت عنى راضية، فإنك تقولين: لا ورب محمدٍ، وإذا كنت غضبى قلت: لا ورب إبراهيم»[1].

فقالت: أجل والله يا رسول الله، ما أهجر إلا اسمك.

علم الصديقة الوفير:

وأما علم أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- فقد صار مضرب الأمثال، هذا التابعى الجليل عروة بن الزبير ـ رحمه الله ـ يقول:

لقد صحبت عائشة، فما رأيت أحدًا قط كان أعلم بآيةٍ أنزلت، ولا بفريضةٍ، ولا بسنَّةٍ، ولا بشعرٍ، ولا أروى له، ولا بيومٍ من أيام العرب، ولا بنسبٍ، ولا بقضاءٍ، ولا بطبٍ منها.

فقلت لها: يا خالة، الطب من أين علمته؟ فقالت: كنتُ أمرض فينعت لى الشيء، ويمرض المريض فينعت له، وأسمعُ الناس ينعت بعضهم لبعضٍ فأحفظه[2].

وقيل لمسروق ـ رحمه الله ـ: هل كانت عائشة تحسن الفرائض؟

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (٥٢٢٨)، ومسلم (٢٤٣٩)، وأحمد (٦/ ٦١).

(٢) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه أبو نعيم (٢/ ٤٩) فى الحلية.

فقال: والله، لقد رأيت أصحاب محمدٍ -ﷺ- الأكابر يسألونها عن الفرائض[١] .

فقد كانت عائشة من أفقه الناس، وأحسنهم فهمًا، ولو جمع علم عائشة إلى علم جميع النساء، لكان علم عائشة أرجح وأفضل.

وكانت إذا أشكل على أصحاب النبى -ﷺ- شيءٌ أخرجت علمًا من علمها، وكانت من أعلم الناس بأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وغير ذلك.

يقول أبو موسى الأشعرى -رضي الله عنه-:

ما أشكل علينا أصحاب رسول الله -ﷺ- حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علمًا[٢] .

ويقول عروة بن الزبير: قلت لعائشة زوج النبى -ﷺ- وأنا يومئذٍ حديث السن: أرأيت قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة:١٥٨] فما أُرى على أحدٍ شيئًا ألا يطوف بهما.

قالت عائشة: كلا، لو كانت كما تقول كانت لا جناح عليه ألا يطوف بهما، إنما أنزلت هذه الآية فى الأنصار، كانوا يُهلون بمناة، وكانت مناة حذو قديد، وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله -ﷺ- عن ذلك، فقالوا: يا رسول الله، إنا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الصَّفَا...﴾ الآية.

---

(١) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه الدارمى (٢/ ٣٤٢، ٣٤٣) فى سننه، وابن سعد (٨/ ٦٦) فى الطبقات الكبرى، والحاكم (٤/ ١١).

(٢) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه الترمذى (٣٨٨٢)، وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

قالت عائشة -رضي الله عنها-: وقد سن رسول الله -ﷺ- الطواف بينهما، فليس لأحدٍ أن يترك الطواف بينهما[١] .

وقد قيل لعروة بن الزبير: ما أرواك يا أبا عبد الله! وكان أروى الناس للشعر.

فقال: وما روايتي من رواية عائشة -رضي الله عنها- ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعراً[٢] .

وكان عروة ـ رحمه الله ـ يقول لعائشة -رضي الله عنها-:

يا أمتاه لا أعجبُ من فقهك، أقول زوجة نبى الله، وابنة أبى بكر، ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس، أقول: ابنة أبى بكر، وكان أعلم الناس.

ولكن أعجب من علمك بالطب، كيف هو؟! ومن أين هو؟!

قالت: إن رسول الله -ﷺ- كان يسقم فى آخر عمره، وكانت تقدم عليه وفود العرب من كل وجهٍ، فتنعت له الأنعات، وكنت أعالجها له، فَمِن ثَمَّ.

وكنتُ أسمع الناس ينعتُ بعضهم لبعضٍ فأحفظه[٣] .

ويقول الإمام الشعبى ـ رحمه الله ـ: قالت عائشة:

رويتُ للبيد نحواً من ألف بيتٍ!

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (١٧٩٠)، ومسلم (١٢٧٧)، وأبو داود (١٩٠١)، والترمذى (٢٩٩٥)، والنسائى (٢٩٦٧)، والحميدى (٢١٩)، وأحمد (٦/ ١٤٤، ١٦٢).

(٢) السمط الثمين (ص٨٦) للطبرى.

(٣) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه أحمد (٦/ ٦٧)، وأبو نعيم (٢/ ٤٩، ٥٠) فى الحلية، والبزار، والطبرانى فى «الأوسط» و «الكبير» كما فى مجمع الزوائد (٩/ ٢٤٢).

زهد الصديقة العجيب:

وكانت من أزهد نساء زمانها، ومن أكرم أهل وقتها، ولها في هذا أخبار كثيرة، وعُرفت بالإيثار والمواساة لغيرها.

فلقد كانت تؤثر الغير من المسلمات الفقيرات، والمسكينات، والأرامل، واليتامى على نفسها، حتى ولو كانت فى حاجةٍ إلى ما تقدمه.

تقول خادمتها أم ذرة:

بعث معاوية بن أبى سفيان -رضي الله عنه- بثمانين ألف درهمٍ إلى عائشة، فدعت بطبقٍ، وهى يومئذ صائمة، فجلست تقسم المال بين الناس، من الفقراء والمساكين، وما عندها من ذلك درهم.

فلما أمست قالت: يا جارية، هلمى فطورى، فجاءت بخبزٍ وزيت، فقالت أم ذرة: يا أم المؤمنين، أما استطعت أن تشترى لنا لحمًا بدرهمٍ؟!

قالت عائشة: لا تُعنفينى، لو ذكرتينى لفعلت[١].

فلنتأمل جليًا فى هذا المثال الرائع لصحابية جليلة، صائمة، زاهدة.

فمع احتياجها إلى الطعام والشراب، تنسى نفسها، ولو بدرهمٍ واحدٍ.

ومن أجل أى شيءٍ نسيت نفسها؟!

إنه من أجل تذكرها لهؤلاء المحرومين، وأولاء المسكينات المحرومات.

إنها ـ حقًا ـ كانت صاحبة إيثار.

(١) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه ابن سعد (٨/ ٦٧) فى طبقاته، والحاكم (٤/ ١٣) فى مستدركه.

وإنها ـ صدقًا ـ كانت صاحبة مواساة.

فهلا اقتدينا بأعلم النساء فى زهدها وإيثارها؟!

وهلا حاولنا إدخال السرور على قلوب المسلمين، والمسلمات؟!

هذا ما أرجوه، وهذا ما أتمناه.

عبادة الصديقة بنت الصديق:

ومن الصفات الطيبة، والمآثر الحسنة، والتى اتصفت بها أعلم النساء: كثرة العبادة، من صلاةٍ وصيام.

فلقد كانت عابدة قانتة، تصوم يومًا، وتفطر يومًا، وتكثر من التهجد ليلاً، والتنفل نهاراً.

يروى القاسم بن محمد ـ وهو ابن أخيها ـ فيقول ـ رحمه الله ـ:

كنت إذا غدوت أبدأ ببيت عائشة ـ وهى خالته ـ أسلم عليها، فغدوتُ يومًا، فإذا هى قائمة تسبح، وتقرأ: ﴿**فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ**﴾ [الطور:٢٧].

وتدعو، وتبكى، وترددها.

فقمتُ حتى مللت القيام، فذهبت إلى السوق لحاجتى، ثم رجعت، فإذا هى قائمة كما هى، تصلى وتبكى[1] !!

فلنتأمل فى خشوعها، ألا يحرك خضوعها فى قلوبنا الخجل من تقصيرنا، بل تفريطنا فى حق ربنا؟!

---

(١) صفة الصفوة (٢/٣١)، السمط الثمين (ص٩٠).

ألا يدعونا حال أمنا، وأم المؤمنين إلى إحسان العبادة؟!

فلنتدبر إلى حالها عند قراءة القرآن ـ وهى فى صلاتها ـ نجد التفكر، والتأمل والخضوع والخشوع، والتأثر لما تقوله، حتى إنها لتكرر الآية الواحدة لفترة زمنية ليست بالقصيرة.

ولقد كانت أعلم النساء -رضي الله عنها- تحث النساء على طلب العلم، والبحث عن أحكام الدين، ولذا فى المأثور عنها قولها:

«نعم النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين»(١).

وتحث كل امرأةٍ على طاعة زوجها، والسعى فى البحث عن الأسباب الجالبة للسعادة الزوجية.

تروى بكرة بنت عقبة، فتقول:

دخلتُ على عائشة وهى جالسة فى مُعصفرةٍ، فسألتها عن الحناء؟

فقالت: شجرةٌ طيبةٌ، وماءٌ طهور، وسألتها عن الحفاف(٢)، فقالت لها:

إن كان لك زوجٌ، فاستطعت أن تنزعى مُقلتيك، فتصنعينهما أحسن مما هما، فافعلى(٣).

ولقد كانت رقيقة القلب، تخاف سريعًا من الإثم والحرج، وقد امتلأ قلبها بالخوف من الله تعالى.

فقد حدث وقال ابن الزبير فى دارٍ لها باعتها، فتسخط عبد الله بن الزبير بيع

(١) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (١/ ٤٤).

(٢) الحفاف: إزالة الشعر من الوجه.

(٣) خبرٌ حسنٌ. أخرجه ابن سعد (٨/ ٧٠، ٧١) فى طبقاته.

تلك الدار، فقال: أما والله لتنتهين عائشة عن بيع دارها، أو لأحجرنَّ عليها.

فقالت عائشة: أهو قال هذا؟ قالوا: نعم، قد كان ذلك.

فقالت: هو لله عليَّ نذر ألا أكلم ابن الزبير، حتى يُفرِّق بينى وبينه الموت.

فطالت هجرتها إياه، فنقصه الله بذلك فى أمره كُلِّه، فاستشفع بكل أحدٍ يرى أنه يثقل عليها، فأبت أن تكلمه.

فلما طال ذلك على ابن الزبير، كلم المسور بن مخرمة، وعبد الرحمن بن الأسود، وقال لهما: أن يشملاه بأرديتهما، ثم يستأذنا، فإن أذنت لهما، قالا: كلنا؟

وقال لهما: أنشدكما إلا ما أدخلتمانى على عائشة فإنها لا يحل أن تنذر قطيعتى.

فأقبل به المسور بن مخرمة وعبد الرحمن مشتملين بأرديتهما حتى استأذنا على عائشة -رضي الله عنها- فقالا: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، أندخل؟

قالت عائشة: ادخلوا. قالوا: كلنا؟ قالت عائشة: نعم ادخلوا كلكم، ولا تعلم أن معهما ابن الزبير فلما دخلوا دخل ابن الزبير الحجاب، وكشف الستر، فاعتنقها، وبكى، وبكت عائشة بكاءً كثيراً، وناشدها ابن الزبير الله والرحم، ونشدها مسور وعبد الرحمن بالله، وذكرا لها قول رسول الله -ﷺ-:

«لا يحل لمسلمٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاثٍ».

فلما أكثروا على عائشة من التذكرة والتحريج طفقت تذكرهما وتبكى، وتقول لهما:

إنى نذرت، والنذر شديد، فلم يزالا بها حتى كلمت ابن الزبير، ثم بعثت

إلى اليمن بمالٍ، فابتيع لها أربعون رقبة فأعتقتها.

وكانت تذكر نذرها بعد ذلك فتبكى حتى تبل بدموعها خمارها[1] .

ومن أهم الأخلاق التى عاشت عليها أم المؤمنين -رضي الله عنها- التواضع لله تعالى.

فلقد كان التواضع واضحًا فى أفعالها، معروفًا فى كلامها، ظاهرًا فى ثيابها، وطعامها، وسائر شأنها.

يقول عروة بن الزبير ـ رحمه الله ـ:

إنها تصدقت بسبعين ألفًا، وإنها لترقع جانب درعها -رضي الله عنها- .

ومن مأثور كلامها فى هذا الشأن:

«إنكم لتغفلون عن أفضل العبادة: التواضع».

فما زادها الثناء عليها إلا التواضع لله تعالى.

وما زادها حب الناس لها إلا تواضعًا لربها.

فهى رمز النساء فى حب العلم، والخشوع والتواضع، والزهد والورع، والخوف من الله تعالى.

ولقد كانت تحث المسلمين على مكارم الأخلاق، مرشدة لهم على أنواعها، فقالت:

«مكارم الأخلاق عشرة:

---

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (٦٠٧٣)، وأبو نعيم (٢/٤٩) فى الحلية.

صدق الحديث، وصدق البأس فى سبيل الله، وإعطاء السائل، ومكافأة الصنيع، وصلة الرحم، وأداء الأمانة، والتذمم[1] للجار، وقرى الضيف، والتذمم للصاحب، ورأس ذلك الحياء»[2] .

وتحذر من الوقوع فى الذنوب والآثام، فإن فى البعد عنها الفوز بالسبق على الدوام، فقالت:

«من سره أن يسبق الدائب المجتهد: فليكف نفسه عن الذنوب»[3] .

وتحضنا على السعى فى مرضاة الله حتى ولو أدى ذلك إلى سخط المخلوقين، فقد كتبت إلى معاوية بن أبى سفيان، وهو خليفة على المسلمين:

«من يعمل بمعاصي الله يصير حامده من الناس ذامًّا».

«من أسخط الناس برضا الله كفاه الناس، ومن أرضي الناس بسخط الله، وكله الله إلى الناس»[4] .

وما أكثر وصاياها إلى النساء:

* فعن عطاء الخراسانى عن عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت يومًا للنساء، وقد اجتمعن عندها: «يا معشر النساء».

«اتقين الله ربكُنَّ، وبالغن فى الوضوء، وأقمن صلاتكن، وآتين زكاتكن

---

(١) التذمم: حفظ الذمام والحرمة والعهد.

(٢) خبرٌ حسنٌ. أخرجه هناد (١٤٥) فى الزهد، وابن أبى الدنيا (٣٦) فى المكارم، والبيهقى (٧٧٢١) فى شعب الإيمان.

(٣) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه ابن المبارك (٦٧) فى الزهد، وهناد (٨٩٦)، وأحمد (ص١٦٥) فى الزهد.

(٤) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه ابن المبارك (٢٠٠) في الزهد، وأحمد (ص٢٠٥) فى الزهد.

طيبة بها أنفسكن، وأطعن أزواجكن فى ما أحببتن أو كرهتن»[١] .

* وعن الحسن بن يحيى أن عائشة -رضي الله عنها- كانت تقول:

«خليفة الله تعالى على المرأة زوجها، فإذا رضى عنها زوجها رضى الله عنها وإذا سخط عليها زوجها سخط الله عليها، وملائكته، لأنها تحمل زوجها على ما يحل لها»[٢] .

«من حق الزوج على المرأة: أن تلزم فراشه، وتتجنب سخطه، وتتبع مرضاته، وتوفر كسبه، ولا تعصى له أمرًا، وتحفظه فى نفسها، ولا تخونه فى فرجها، وإذا فعلت ذلك كانت فى الجنة»[٣] .

الصبر والبلاء فى حياة الصديقة:

تقول أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-:

كان رسول الله -ﷺ- إذا أراد سفرًا أقرع[٤] بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، فأقرع بيننا فى غزاة غزاها فخرج سهمى، فخرجت معه بعدما نزل الحجاب، وأنا أحمل فى هودجٍ[٥] ، وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله -ﷺ- من غزوته تلك، وقفل ودنونا من المدينة قافلين، آذن ليلة بالرحيل فقمت حينئذ، فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت حاجتى أقبلت إلى رحلى، فإذا عقد لى من جزع ظفار[٦] قد انقطع، فالتمسته، وحبسنى

(١) أدب النساء (ص٢٣٥) برقم (١٥٧) لعبد الملك بن حبيب.

(٢) السابق (٢٠٠).

(٣) السابق (٢٠١).

(٤) أجرى القرعة بينهن.

(٥) الهودج: محمل له قبة تستر فيه بالثياب، ونحوه، ليركب فيه النساء ليكون أستر لهن.

(٦) العقد: القلادة فى العنق للتزيين بها، وجزع ظفار: الجزع خرز معروف، وظفار مدينة باليمن.

التماسه، وأقبل الرهط(١) الذين كانوا يرحلون بى، فاحتملوا هودجى، فرحلوه على بعيرى، وهم يحسبون أنى فيه.

وكان النساء إذ ذاك خفافًا لم يثقلهن اللحم، إنما يأكلن العلقة(٢) من الطعام، فلم يستنكر خفة المحمل حين رفعوه، وكنت جارية حديثة السن(٣)، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدى بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم، وليس بها داع ولا مجيب.

فأممت(٤) منزلى الذى كنت فيه، وظننت أنهم سيفقدونى فيرجعونى إلىَّ.

فبينا أنا جالسة غلبتنى عينى فنمت، وكان صفوان بن المعطل من وراء الجيش، فأدلج فأصبح عند منزلى، فرأى سواد إنسانٍ نائمٍ فأتانى، فعرفنى حين رآنى، وكان يرانى قبل الحجاب(٥) فاسترجع(٦)، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفت، فخمرت وجهى بجلبابى، والله ما كلمنى كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، فأناخ راحلته، فوطئ على يديها فركبتها(٧)، فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين(٨) فى نحر الظهيرة، فهلك من هلك فىَّ، وكان الذى تولى كبر الإفك عبد الله بن أبى ابن سلول.

فقدمنا المدينة فاشتكيت شهرًا، والناس يفيضون فى قول أهل الإفك، ولا

---

(١) الرهط: هو عدد من ثلاثة إلى عشرة.

(٢) العلقة: الشىء القليل الذى يسد الرمق.

(٣) كانت لم تكمل خمس عشرة سنة.

(٤) أممت: قصدت.

(٥) أى قبل نزول آية الحجاب.

(٦) يعنى قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، وفيه دلالة على فطنة صفوان، وحسن أدبه.

(٧) أى: ليكون أسهل لركوبها، ولا يحتاج إلى مسها عند ركوبها.

(٨) يعنى: نازلين فى وقت الوغرة، وهى شدة الحر، عندما تكون الشمس فى كبد السماء.

أشعـر بشىء من ذلك، ويريبنى فى وجعى أنى لا أعـرف من رسول الله -ﷺ- اللطف الذى كنت أرى منـه حين أشـتكى[١] ، إنما يدخل علىَّ، فـيـسلم، ثم يقول: «كيف تيكم»[٢] .

ثم ينصرف، فـذلك الذى يريبنى، ولا أشعر بالشـر، حتى خرجت بعـدما نقهت[٣] ، فخرجت مع أم مسطح قبل المناصع[٤] ، وهو متبرزنا[٥] .

وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليلٍ، وذلك قبل أن تتخذ الكنف قريبًا من بيوتنا، وأمرنا أمر العـرب الأول من التبرز قبل الغائط، وكنا نتـأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فـانطلقت أنا وأم مسطح بنت أبى رهم، وأمـها ابنة صخر بن عـامر خالة أبى بكر الصديق، وابنـها مسطح بن أثاثة، فأقبلت أنا وهى قـبل بيتى، قد فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح فى مرطها[٦] ، فقالت:

تعس مسطح[٧] ، فقلت لها: بئس ما قلت: أتسبين رجلاً شهد بدرًا؟!!

قالت: أى هنتاه[٨] ، أو لم تسمـعى ما قال؟ قـالت: وما ذاك؟ فأخـبرتنى الخبر فازددت مرضًا على مرضٍ.

---

(١) أى: حين أمرض.

(٢) هى للمؤنث مثل ذاكم للمذكر.

(٣) نقهت: أفاقت من المرض، ولم تتكامل الصحة.

(٤) قِبلَ المناصع: أى جهتها، والمناصع: صعيد فسيح خارج المدينة.

(٥) متبرزنا: موضع التبرز، وقضاء الحاجة، والمراد: الخروج إلى البراز، وهو الفضاء.

(٦) المرط: كساء من صوفٍ أو حريرٍ.

(٧) أى: هلك ولزمه الشر، أو كُبَّ لوجهه.

(٨) أى هنتاه: أى حرف نداء للبعـيد، وقد يستعمل للقريب حيث ينزل منزلة الـبعيد، والمخزى هنا أن أم مسطح نسـبت عائشة إلى الغفلة عـما قيل فيهـا، لإنكارها سب مسطح فخـاطبتها خطاب البـعيد، وهنتاه: أى هذه.

فلما رجعت إلى بيتى، ودخل على رسول الله -ﷺ- فسلم، ثم قال:

«كيف تيكم؟».

فقلت: أتأذن لى أن آتى أبوىَّ؟ وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما، فأذن لى، فجئت أبوى، فقلت:

يا أمتاه، ما يتحدث الناس؟

قالت: يا بنية، هونـى عليك، فوالله لقلما كانت امرأة وضـيئة[١] عند رجلٍ يحبها لها ضرائر[٢] إلا كثرن عليها[٣] .

فقلت: سبحان الله! وقد تحدث الناس بهذا؟!

فبكيت الليلة حـتى لا يرقأ[٤] لى دمعٌ، ولا أكتحل بنومٍ[٥] ، ثم أصبحت أبكى، فـدعا رسـول الله -ﷺ- على بن أبى طالب، وأسـامة بن زيد، حـين استلبث[٦] الوحى يستأمرهما فى فراق أهله.

فـأما أسـامة، فـأشار على رسـول الله -ﷺ- بالذى يعلم من براءة أهله، وبالذى يعلم لهم فى نفسه من الود، فقال:

---

(١) وضيئة: من الوضاءة أى: حسنة جميلة.

(٢) ضرائر: جـمع ضرة، وقيل للزوجات ضـرائر، لأنه فى غالب الأحوال كل تحاول أن تحـدث الضرر للأخرى بسبب الغيرة.

(٣) أى القول فى عيبـها، وفى هذا الكلام من فطنة أمها، وحسن تربيـتها، فإنها هونت عليهـا بإعلامها بأنها لم تنفرد بذلك، لأن المرء يتأسى بغيره فيما يقع له، وأدمجت فى ذلك ما تطيب به خاطرها من أنها فائقة الجمال والحظوة، وذلك مما يعجب المرأة أن توصف به.

(٤) أى: لا ينقطع.

(٥) كناية عن السهر.

(٦) أى: طال تأخر نزوله.

يا رسول الله، أهلك ولا نعلم إلا خيراً.

وأما على قال: لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، واسأل الجارية تصدقك[١] .

فدعا رسول الله -ﷺ- بريرة، فقال:

«أى بريرة، هل رأيت من شيء يريبك؟».

قالت: لا، والذى بعثك بالحق، إن رأيت عليها أمراً[٢] أغمصه[٣] عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فيأتى الداجن[٤] ، فيأكله[٥] .

فقام رسول الله -ﷺ-، فاستعذر من عبد الله بن أبى ابن سلول، فقال وهو على المنبر:

«يا معشر المسلمين:

من يعذرنى[٦] من رجلٍ قد بلغنى أذاه فى أهل بيتى، فوالله ما علمت على أهلى إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلى إلا معى».

---

(١) رأى علىٌّ أن فى ذلك الرأى هو المصلحة فى حق النبى -ﷺ-، واعتقد ذلك لما رأى من انزعاجه، فبذل جهده فى النصيحة لإرادة راحة خاطره -ﷺ-.

(٢) أى: ما رأيت فيها مما تسألون عنه شيئًا أصلاً، وأما من غيره ففيها ما ذكرت من غلبة النوم لصغر سنها وضعف بدنها.

(٣) أغمصه: أنقصه وأعيبه.

(٤) الداجن: الشاة التى تألف البيت، وقيل كل ما يألف البيت طيرًا أو شاة.

(٥) المراد المبالغة فى نفى العيب، فغفلتها أبعد لها من مثل الذى رُميت به، فهى من الغافلات المؤمنات.

(٦) أى: من يقوم بعذرى إذا عاقبته على سوء ما صدر منه، أو من ينصرنى؟

فقـام سعد بن مـعاذ فقـال: يا رسول الله، أنا أعـذرك، إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا، ففعلنا أمرك[١].

فقام سعد بن عبادة وهو سيـد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلاً صالحًا، ولكن احتملته الحمية[٢]

فقال لسعد: كذبت لعمر الله[٣]، لا تقتله، ولا تقدر على قتله[٤].

فقام أسيد بن الحضير ـ وهو ابن عم سعد بن معاذ ـ فقال: كذبت لعمر الله لنقتلنه[٥]، فإنك منافقٌ تجادل عن المنافقـين فتثاور[٦] الحيان: الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقـتتلوا، ورسول الله -ﷺ- قائم على المنبر، فلم يزل يخـفضهم حتى سكتوا وسكت.

قـالت: فبكيت يومـى ذلك وليلتى، لا يرقـأ لى دمعٌ، ولا أكتـحل بنومٍ، فأصـبح أبواى عندى، وقد بكيت ليلتـين، ويومًا لا أكتـحل بنومٍ، ولا يرقأ لى دمعٌ، حتى ظننت أن البكاء فالق كبدى.

فبـينما هما جالسـان عندى، وأنا أبكى، استأذنت علىَّ امـرأةٌ من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكى معى، فـبينما نحن على ذلك، دخل علينا رسول الله -ﷺ- فسلـم، ثم جلس، ولم يجلس عندى منذ قيل لـى ما قيل، ولقـد لبث شهرًا لا يُوحى إليه فى شأنى شىءٌ.

---

(١) إنما قال ذلك لأنه كان سيدهم فجزم بأن حكمه فيهم نافذ.

(٢) الحمية: العصبية.

(٣) العمـر: بفتح العـين هو البقاء، وبضم العـين العمـر المعروف لكل إنسانٍ، والمـراد هنا الأول حيث يستعمل فى القسم.

(٤) إشارة إلى أن قومه يمنعونه من قتله.

(٥) أى: لو كان من الخزرج إذا أمرنا النبى -ﷺ- بذلك، وليست لكم قدرة على منعنا من ذلك.

(٦) فتثاور: تفاعل من الثورة، والحى كالقبيلة، والمعنى: نهض بعضهم إلى بعضٍ من الغضب.

قالت: فتشهد، ثم قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ:

«أما بعد. . يا عـائشة، فإنه قد بلغنـى عنك كذا وكذا[١] ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألمت[٢] بذنب، فاستغفرى الله، وتوبى إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب، تاب الله عليه».

فلما قضى مقالته قلص دمعى[٣] ، حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبى:

أجب رسول الله -ﷺ- فيما قال[٤] .

قال أبو بكر -رضي الله عنه-: والله ما أدرى ما أقـول لرسول الله -ﷺ-[٥] فقلت لأمى: أجيبى رسول الله -ﷺ-.

قالت: مـا أدرى ما أقـول لرسول الله -ﷺ- فقلت: وأنا يـومئذ حـديثة السن: لا أقرأ كثيراً من القرآن، إنى والله لقـد علمت، لقد سمعتم هذا الحديث حتى استـقر فى أنفسكم، وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إنى بريئـة لا تصدقونى بذلك[٦] ، ولئن اعترفت لكم بأمرٍ، والله يعلم أنى بريئة لتصدقنى، والله ما أجد لى ولكم مثلاً إلا قول أبى يوسف:

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف:١٨].

ثم تحولت، فاضطجعتُ على فـراشى، وأنا أعلم أنى بريئة، وأن الله تعالى يبرئنى ببراءتى، ولكن والله ما ظننت أن الله ينزل فى شأنى وحيًا يتلى، ولشأنى

---

(١) هو كنايةٌ عما رُميت به من الإفك.

(٢) أى: وقع منك على خلاف العادة.

(٣) قلص دمعى: أى استمسك نزوله فانقطع.

(٤) كأنها قالت لأبيها: برئنى بما شئت وأنت على ثقةٍ من الصدق فيما تقول.

(٥) أجاب بما يطابق السؤال فى المعنى، ولأنه وإن كان يتحقق براءتها لكنه كره أن يزكى ابنته.

(٦) أى: لا تقطعون بصدقى، وإنما قالت ذلك لأن المرء مؤاخذ بإقراره.

كان فى نفسى أحقـر من أن يتكلم الله فىَّ بأمرٍ يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله -ﷺ- فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها.

قالت: فـوالله ما قـام رسول الله -ﷺ-، ولا خرج أحـدٌ من أهل البيت، حتى نزل الوحى، فـأخذه ما كان يأخذه مـن البرحاء[١]، حتى إنه ليـتحدر منه مثل الجمان من العرق، وهو فى يوم شاتٍ، من ثقل القول الذى ينزل عليه.

فلما سُرِّى عنه[٢]، وهو يضحك، كان أول كلمة تكلم بها:

«يا عائشة، أما والله لقد برأك الله».

فقـالت أمى: قومى إليـه، فقلت: والله لا أقـوم إليه، ولا أحـمد إلا الله، وأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ

(١) البرحاء: بضم الباء وفتح الراء، هى شدة الحمى، وقيل: شدة الكرب.

(٢) سُرى عنه: انكشف وزال.

ورحمته وأن الله رءوف رحيم ﴿٢٠﴾ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم﴾ [النور:١١ - ٢١].

فلما أنزل الله هذا فى براءتى، قال أبو بكر ـ وكان ينفق على مسطح لقرابته وفقره ـ: والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذى فى عائشة.

فأنزلت: ﴿ولا يأتل[1] أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾ [النور:٢٢].

قال: بلى والله، إنى لأحب أن يغفر الله لى، فرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا.

قالت: وكان رسول الله -ﷺ- يسأل زينب بنت جحش عن أمرى.

فقالت: أحمى سمعى وبصرى[2] ما علمت إلا خيرًا، وهى التى كانت تسامينى[3] من أزواج النبى -ﷺ-، فعصمها الله بالورع[4]، وطفقت أختها حمنة تحارب لها[5]، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك.

قالت عائشة: والله، إن الرجل الذى قيل له ما قيل، ليقول: سبحان الله،

(١) معناه: لا يفتعل من آليت أى: أقسمت.

(٢) أى: من الحماية فلا أنسب إليهما ما لم أسمع، ولم ابصر.

(٣) تسامينى: تعالينى من السمو وهو العلو، أى تطلب الحظوة والرفعة عند الرسول -ﷺ-.

(٤) أى: حفظها ومنعها بالمحافظة على دينها، ومجانبة ما تخشى سوء عاقبته.

(٥) تحارب لها: أى تجادل لها، وتتعصب وتحكى لتخفض منزلة عائشة وتعلى مرتبة أختها زينب.

فوالذى نفسى بيده، مـا كشفت عن كنف[1] أنثى قط، ثم قتل بعد ذلك شـهيدًا فى سبيل الله[2].

هكذا انتهى خـبر البـلاء المبين فى حيـاة أم المؤمنين، وقد صـبرت -رضي الله عنها- صبرًا عظيمًا، لكى تعطى كل واحدٍ منا درسًا فى تحمل البلاء، والصبر عند نزول الضراء.

وتذكرنا بعدم اليأس من رحمة الله، مهما اشتد البلاء، فإن مع العسر يسرًا، والفرج بعد الشدة.

ومن هذا الموقف المسمى بقصة «الإفك» نرى صبر أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-، فقد صبرت صبرًا جمـيلاً، وحلمت حلمًا عظيمًا، لكى تُعطى كل امرأةٍ ينزل بها البلاء درسًا غاليًّا فى الصبر على البلاء، والرضا بالقضاء.

وفى هذا الموقف الكثير من الفوائد، فمنها: صبر النبى -ﷺ- على ما سمع من الأذى فى حق أهل بيته، فقد صبر صبرًا جميلاً، لكى نتعلم منه حال المؤمن عند نزول البلاء.

وفيه: بيان أن الفرج بعد الشـدة، وأن مع العسر يسرًا، وأن فى الصبر على ما نكره خيرًا كثيرًا.

وفيه: بيان بعض ملامح الداعيـة إلى الله تعالى من عدم التعجل، والتريث، والنظر فى عواقب الأمور، وتمحيص مـا يقال، فلا يقبل كل شىءٍ، ولا يرد كل شىءٍ إلا بدليل وبرهانٍ.

---

(١) الكنف هنا: الثوب الذى يستر، وهو كناية عن عدم جماع النساء جميعهن ومخالطتهن.

(٢) حديثٌ صـحيحٌ. أخـرجه البخـارى (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠)، وأحـمد (٦/ ١٩٤)، والتـرمذى (٣١٧٩)، والنسائى (٢٧١) فى تفسيره، وبرقم (٤٥) فى عشرة النساء.

وفيـه: إرشاد إلى صفةٍ أصليـة فى الداعية الناجح ألا وهى عـدم اليأس من نصر الله، مـهما اشـتد البـلاء، فهذا الموقف الذى بين أيدينا لـم ينته إلا بنزول الوحى من السـماء، ولقد كـان جزاء الذين أشـاعوا الفاحـشة فى أهل التـقوى والصلاح أليمًا.

تقول عـائشة -رضي الله عنها- لما تلا رسول الله -ﷺ- القصة التـى نزل بها عذرى على الناس، أمر بالرجلين والمرأة ممن كـان تكلم بالفاحشة فى عـائشة، فجلدوا الحد(١).

وهكذا دارت الدائرة على أهل السـوء، وحال الكرب عليـهم، فالجـزاء من جنس العمل.

وهذا الموقف الأليم فى حـياة زوجـة الرسول -ﷺ- أم المؤمنين عـائشة -رضي الله عنها- من أروع الأمثلة على صبر النساء على البلاء.

وقد استـخرج العلماء الكثيـر من الفوائد العلمية من هـذا الموقف، فذكروا مشروعية القرعة بين النساء، والسفر بهن فى الغزو.

وجـواز حكاية ما وقع للمـرء من الفـضل، ولو كان فـيه مـدح ناس، وذم آخرين، إذا تضـمن ذلك إزالة توهم النقص عن الحاكى إذا كان بريئًا عـند قصد نصح من يبلغه ذلك لئلا يقع فيما وقع فـيه من سبق، وأن الاعتناء بالسلامة من وقوع الغير فى الإثم أولى من تركه يقع فى الإثم، وتحصيل الأجر للموقوع فيه.

وفيه: خدمـة الأجانب للمرأة من وراء حجاب، وتوجه المرأة لقـضاء شأنها وحدها، وبغيـر إذنٍ من زوجها، بل اعتمادًا على الإذن العـام المستند إلى العرف العام.

---

(١) حديثٌ حسنٌ. أخرجه أبو داود (٤٤٧٤)، وابن ماجه (٣١٨١)، وعبد الرزاق (٩٧٤٩) فى مصنفه.

وفيه: صيانة المال ولو قل، للنهى عن إضاعة المال، فإن عقد عائشة -رضي الله عنها- لم يكن من ذهبٍ، ولا جوهر.

وفيه: شؤم الحرص على المال، لأنها لو لم تطل فى التفتيش لرجعت بسرعة، فلما زاد على قدر الحاجة كان ما جرى.

وفيه: الاسترجاع عند المصيبة، وتغطية المرأة وجهها عن نظر الأجنبى، وإغاثة الملهوف، وعون المنقطع، وإنقاذ الضائع.

وفيه: إكرام ذوى القدر، وإيثارهم بالركوب، وحسن الأدب مع الأجانب خصوصًا النساء.

وفيه: ملاطفة الزوجة، وحسن عشرتها، والتقصير عن ذلك عند إشاعة ما يقتضى النقص، وإن لم يتحقق، وفائدة ذلك أن تتفطن لتغيير الحال فتعتذر، أو تعترف.

وفيه: لا ينبغى لأهل المريض أن يعلموه بما يؤذى باطنه لئلا يزيد ذلك فى مرضه، والإشارة إلى مراتب الهجران بالكلام والملاطفة، فإن كان السبب محققًا فيترك أصلاً، وإن كان مظنونًا فيخفف، وإن كان مشكوكًا فيه، أو محتملاً فيحسن التقليل منه لا العمل بما قيل، بل لئلا يظن بصاحبه عدم المبالاة بما قيل فى حقه، لأن ذلك من خوارم المروءة.

وفيه: ذب المسلم عن المسلم خصوصًا من كان من أهل الفضل، وردع من يؤذيهم، ولو كان منهم بسبيلٍ، وأن المرأة إذا خرجت لحاجةٍ تستصحب من يؤنسها أو يخدمها ممن يؤمن عليها.

وفيه: البحث عن الأمر القبيح إذا أشيع وتعرف صحته وفساده بالتنقيب على

مَنْ قيل فيه، هل وقع منه قبل ذلك ما يشبهه أو يقرب منه، واستصحاب حال من اتهم بسوء إذا كان قبل ذلك معروفًا بالخير، إذا لم يظهر عنه بالبحث ما يخالف ذلك.

وفيه: فضيلة قوية لأم مسطح لأنها لم تحاب ولدها فى وقوعه فى حق عائشة -رضي الله عنها- بل تعمدت سبه على ذلك.

وفيه: مشروعية التسبيح عند سماع ما يعتقد السامع أنه كذبٌ، وتوجيهه هنا أنه سبحانه وتعالى ينزه أن يحصل لقرابة رسول الله -ﷺ- تدنيس، فيشرع شكره بالتنزيه فى مثل هذا.

وفيه: توقف خروج المرأة من بيتها على إذن زوجها، ولو كانت إلى بيت أبويها، واستشارة المرء أهل بطانته ممن يلوذ به بقرابةٍ وغيرها، وتخصيص من جربت صحة رأيه منهم بذلك، ولو كان غيره أقرب، والبحث عن حال من اتهم بشيءٍ، وحكاية ذلك الشىء للكشف عن أمره، وفطنة الإمام عند الحادث المهم، وتوطئة العذر لمن يراد إيقاع العقاب به، أو العقاب له، واستشارة الأعلى لمن هو دونه.

وفيه: أن النبى -ﷺ- كان لا يحكم لنفسه إلا بعد نزول الوحى، لأنه -ﷺ- لم يجزم فى القصة بشىء قبل نزول الوحى، وأن الحمية لله ولرسوله -ﷺ- لا تذم.

وفيه: فضائل جمة لعائشة، ولأبويها، ولصفوان، ولعلى بن أبى طالب، وأسامة، وسعد بن معاذ، وأسيد بن حضير.

وفيه: أن التعصب لأهل الباطل يخرج عن اسم الصلاح، وجواز سب من يتعرض للباطل ونسبته إلى ما يسوءه، وإن لم يكن ذلك فى الحقيقة فيه، لكن إذا

وقع منه ما يشبه ذلك جاز إطلاق ذلك عليه، تغليظًا له، وإطلاق الكذب على الخطأ، والقسم بلفظ لعمر الله.

وفيه: الندب إلى قطع الخصومة وتسكين ثائرة الفتنة، وسد ذريعة ذلك، واحتمال أخف الضررين بزوال أغلظهما، وفضل احتمال الأذى.

وفيه: مباعدة مَنْ خالف الرسول، ولو كان قريبًا حميمًا، وأن مَنْ آذى النبى -ﷺ- بقولٍ أو فعلٍ يقتل لأن سعد بن معاذ أطلق ذلك ولم ينكره النبى -ﷺ-.

وفيه: مساعدة من نزلت فيه بلية بالتوجع والبكاء والحزن، وتثبت أبى بكر الصديق فى الأمور لأنه لم ينقل عنه فى هذه القصة مع تمادى الحال فيها شهراً كلمة فما فوقها، إلا ما ورد عنه فى بعض طرق الحديث أنه قال: «والله ما قيل لنا هذا فى الجاهلية، فكيف بعد أن أعزنا الله بالإسلام».

وفيه: مشروعية التوبة، وأنها تقبل من المعترف المقلع المخلص، وأن مجرد الاعتراف لا يجزئ فيها، وأن الاعتراف بما لم يقع لا يجوز ولو عرف أنه يصدق فى ذلك، ولا يؤاخذ على ما يترتب عليه اعترافه، بل عليه أن يقول الحق أو يسكت، وأن الصبر تحمد عاقبته، ويغبط صاحبه.

وفيه: تقديم الكبير فى الكلام، وتوقف من اشتبه عليه الأمر فى الكلام، وتبشير من تجددت له نعمة أو اندفعت عنه نقمة، والضحك والفرح والاستبشار عند ذلك، ومعذرة من انزعج عند وقوع الشدة لصغر سنٍّ ونحوه، وإدلال المرأة على زوجها وأبويها.

وفيه: تدريج من وقع فى مصيبةٍ فزالت عنه لئلا يهجم على قلبه الفرح من أول وهلة فيهلكه، يؤخذ ذلك من ابتداء النبى -ﷺ- بعد نزول الوحى ببراءة عائشة بالضحك، ثم تبشيرها، ثم إعلامها ببراءتها مجملة، ثم تلاوته الآيات

على وجهها، وقد نص الحكماء على أن من اشتد عليه العطش لا يمكن من المبالغة فى الرى فى الماء لئلا يفضى به ذلك إلى الهلكة بل يجرع قليلاً قليلاً.

وفيه: أن الشدة إذا اشتد أعقبها الفرج، وفضل من يفوض الأمر إلى ربه، وأن من قوى على ذلك خف عنه الهم والغم كما وقع فى حالتى عائشة قبل استفسارها عن حالها، وبعد جوابها بقولها: والله المستعان.

وفيه: الحث على الإنفاق فى سبيل الخير خصوصًا فى صلة الرحم، ووقع المغفرة لمن أحسن إلى من أساء إليه أو صفح عنه، وأن من حلف ألا يفعل شيئًا من الخير استحب له الحنث، وجواز الاستشهاد بآى القرآن فى النوازل، والتأسى بما وقع للأكابر من الأنبياء وغيرهم.

وفيه: التسبيح عند التعجب واستعظام الأمر، وذم الغيبة، وذم سماعها وزجر من يتعاطاها لاسيما إن تضمنت تهمة المؤمن بما لم يقع منه، وذم إشاعة الفاحشة، وتحريم الشك فى براءة عائشة -رضي الله عنها-[1].

ونكمل المسير مع النساء الصابرات على البلاء، ومن الله التوفيق والرشاد.

وفاة الرسول ﷺ فى حجرة الصديقة:

ومما ختم الله به لنبيه -ﷺ- أن كانت آخر لحظاته من الدنيا فى حجرة عائشة، فتقول أم المؤمنين -رضي الله عنها-:

توفى رسول الله -ﷺ- فى بيتى، وفى يومى وليلتى، وبين سحرى ونحرى، ودخل عبد الرحمن بن أبى بكر، ومعه سواك رطب، فنظر إليه، حتى ظننت أنه يريده، فأخذته، فمضغته، ونفضته، وطيبته، ثم دفعتُه إليه، فاستن به

(١) فتح البارى (٨/ ٤٨٠، ٤٨١).

كأحسن ما رأيته مُستنًّا قط، ثم ذهب يرفعه إلىَّ، فسقطت يده، فأخذته أدعو له بدعاء كان يدعو به له جبريل، وكان هو يدعو به إذا مرض، فلم يدع به فى مرضه ذاك.

فرفع بصره إلى السماء، وقال: «الرفيق الأعلى»(١) وفاضت نفسه.

فالحمد لله الذى جمع بين ريقى وريقه فى آخر يومٍ من الدنيا.

وكانت تقول: لى خِلالٌ تسعٌ، لم تكن لأحدٍ، ووالله ما أقول هذا فخراً على صواحباتى: جاء المَلَكُ بصورتى إلى رسول الله -ﷺ- فتزوجنى، وتزوجنى بكرًا، وكان يأتيه الوحى، وأنا وهو فى لحافٍ، وكنت من أحب الناس إليه، ونزل فىَّ آياتٌ كادت الأمة تهلك فيها، ورأيت جبريل، ولم يره أحدٌ من نسائه غيرى، وقُبض فى بيتى، لم يله أحدٌ ـ غير الملك ـ إلا أنا(٢).

وفاة الصديقة بنت الصديق:

وفى ليلة الثلاثاء لسبع عشرة مضت من رمضان بعد الوتر كانت وفاة أعلم النساء، وكانت قد أوصت أن تدفن بالبقيع مع باقى زوجات الرسول -ﷺ-، وصلى عليها أبو هريرة -رضي الله عنه- وكان خليفة مروان بالمدينة، فلم يُر ليلة أكثر ناسًا منها، نزل أهل العوالى، فدفنت فى البقيع.

ونزل قبرها أربعة عبد الله وعروة ابنى الزبير، والقاسم بن محمد بن أبى بكر، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر(٣).

---

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه أحمد (٦/٤٨، ٢٧٤)، والحاكم (٤/٧) وصححه وأقره الذهبى.

(٢) خبرٌ حسنٌ. أخرجه الحاكم (٤/ ١٠).

(٣) لمزيد من التفصيل عن حياة أم المؤمنين عائشة يمكن الرجوع إلى المراجع التالية:

طبقات ابن سعد (٨/ ٥٨)، المستدرك (٤/ ٤)، الحلية (٢/ ٤٣)، الاستيعاب (٤/ ١٨٨١)، أسد =

وكانت وفاتها على الراجح فى سنة سبع وخمسين، وهى ابنة ست وستين سنة.

فسلامٌ على أعلم نساء الأمة الإسلامية فى بيت النبوة.

وسلامٌ على أم المؤمنين فى العالمين.

ونكمل المسير مع نساءٍ حول الرسول -ﷺ-، ومن الله تعالى العون والتيسير.

□□□

= الغابة (٧/ ١٨٨)، تهذيب الكمال (١٦٨٨)، تاريخ الإسلام (٢/ ٢٩٤)، السير (٢/ ١٣٥)، شذرات الذهب (١/ ٩، ٦١ ـ ٦٣).

حفصة بنت عمر

إنها أم المؤمنين، الزاهدة التقية، والعابدة الخفية.

عُرفت بكثرة الصلاة والصيام، حتى لُقبت بـ «الصوامة القوامة».

فهلا نظرنا فى سيرتها، وتعلمنا من أيام حياتها؟!

نسبها:

هى حفصة بنت عمر بن الخطاب، من بنى عدى بن كعب، وأمها: زينب بنت مظعون، أخت الصحابى الجليل عثمان بن مظعون -رضي الله عنهم-.

مولدها:

جاء فى مولدها أنه كان قبل البعثة النبوية بخمس سنين، وكانت قد تزوجت بخنيس بن حُذافة السهمى قبل النبى -ﷺ-، وكان ممن شهد بدراً، وتوفى بالمدينة.

وعلى هذا يكون زواج الرسول -ﷺ- بها، ولها نحو من عشرين سنة.

بدء الزواج المبارك:

ولقد كان من قدر الله أن أباها عرض زواجها على صحابيين جليلين قبل دخولها فى بيت النبوة.

يقول عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: أتيت عثمان بن عفان فعرضتُ عليه حفصة، فقال: سأنظر فى أمرى، فلبثتُ ليالى، ثم لقينى فقال: قد بدا لى ألا أتزوج يومى هذا.

قال عمر: فلقيت أبا بكر الصديق، فقلت: إن شئت زوجتك حفصة بنت عمر، فصمت أبو بكر فلم يرجع إلىَّ شيئًا، وكنت أوجد[١] عليه منى على عثمان.

فلبثت ليالى، ثم خطبها رسول الله -ﷺ- فأنكحتها إياه، فليقنى أبو بكر فقال: لعلك وَجَدَت علىَّ حين عرضت علىَّ حفصة، فلم أرجع إليك شيئًا؟!

قال عمر: قلت: نعم.

قال أبو بكر: فإنه لم يمنعنى أن أرجع إليك فيما عرضت علىَّ إلا أنى كنت علمتُ أن رسول الله -ﷺ- قد ذكرها، فلم أكن لأفشى سر رسول الله -ﷺ-، ولو تركها رسول الله -ﷺ- قبلتُها[٢] .

أى أنه لولا هذا العذر لقبلها أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- فيستفاد منه عذره فى كونه لم يقل كما قال عثمان قد بدا لى ألا أتزوج.

ومن هذا نتعلم فضل كتمان السر، فإذا أظهره صاحبه ارتفع الحرج عمن سمعه، وجواز عرض الإنسان ابنته على من يعتقد خيره وصلاحه لما فيه من النفع، وأنه لا استيحاء فى ذلك.

وهكذا تم الزواج المبارك الميمون بين خاتم الأنبياء -ﷺ-، وحفصة بنت عمر -رضي الله عنها-، فصارت فى عداد أمهات المؤمنين -رضي الله عنهن أجمعين-.

ومُسند أحاديث «حفصة» يبلغ ستين حديثًا، اتفق لها البخارى ومسلم على أربعة أحاديث، وانفرد مسلم بستة أحاديث.

---

(١) الوجد: الغضب.

(٢) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (٥١٢٢)، وابن سعد (٨/ ٨٢) فى طبقاته، والنسائى (٦/ ٨٤) فى سننه.

الفصاحة والبلاغة:

وعاشت حفصة الزاهدة التقية فى بيت النبوة، وكانت عائشة تقول:

هى التى كانت تُساميني من أزواج النبى -ﷺ-.

وكانت ذات فصاحةٍ وبلاغة، قالت فى مرض أبيها الفاروق عمر -رضي الله عنه-:

يا أبتاه: ما يحزنك وفادتك على ربٍ رحيمٍ، ولا تبعة لأحدٍ عندك، ومعى لك بشارة، لا أُذيع السر مرتين، ونعم الشفيع لك العدل، لم تخف على الله عز وجل خشنة عيشتك، وعفاف نهمتك، وأخذك بأكظام المشركين، والمفسدين فى الأرض، ثم أنشأت تقول:

اكظم الغلة المخالطة القلب وأعزى وفى القرآن عزائى

لم تكن بغتة وفاتك وجداً إن ميعاد من ترى للفناء

عبادة حفصة:

ولقد كانت «الصوامة القوامة» تكثر من قيام الليل، وصيام النهار.

يقول نافع ـ رحمه الله ـ: ما ماتت حفصة حتى ما تفطر. أراد أنها تكثر من صيام التطوع.

فلقد عبدت ربها سبحانه وتعالى، وأخلصت به فى عبادتها، وأحسنت به الظن، فجاءتها البشرى من فوق سبع سموات، عندما جاء جبريل عليه السلام إلى نبينا -ﷺ- وذكر تزكية حفصة -رضي الله عنها- بأنها صوامة قوامة.

بل وأبلغ النبى -ﷺ- أنها زوجته فى الجنة.

فيا لها من بشارةٍ كبرى، ومفاجأة سارة عظمى.

ويا لها من سعادةٍ وفرحة تـلك التي غمرت حفصة -رضي الله عنها- حينئذ، فإن من بُشرت بدخول الجنة، فقد فازت فوزًا عظيمًا.

فقد حدث وطُلّقت حفصة تطليقة، فجاء الأمين جبريل إلى الرسول -ﷺ-، وقال: «يا مـحمد، طلقت حـفصة، وهي صـوامة، قوامـة، وهي زوجتك فى الجنة»[1].

فراجعها الرسول -ﷺ- بأمر جبريل عليه السلام له بذلك، وفي روايةٍ أخرى:

«راجع حفصة، فإنها صوامة قوامة، وإنها زوجتك في الجنة».

ولقد رأى النبي -ﷺ- فى حفصة ما يؤهلهـا لكي تتعلم الكتابة، والرقية، فطلب من إحدى المتمرسات بذلك أن تعلم حفصة.

. يقول أبو بكر القرشي: إن رجلاً من الأنصار خرجت به نملةٌ[2]، فدُل على الشفاء بنت عبد الله ترقى من النملة، فجاءها فـسألها أن ترقيه، فقالت: والله ما رقيتُ منذ أسلمت.

فذهب الأنصارى إلى النبى -ﷺ- فأخبره بالذى قالت الشفاء، فدعا رسول الله -ﷺ-، الشفاء فقال: «اعرضي عليّ» فعرضتها، فقال:

«ارقيه، وعلميها حفصة كما علمتيها الكتاب»[3].

وفي روايةٍ أخرى: «ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتيها الكتابة».

---

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه الحـاكم (٤/ ١٥)، والطبرانى (٢٣/ ١٨٨) في الكبير، وله شاهدٌ من حديث عمر، أخرجه أبو داود (٢٢٨٣)، والنسائي (٦/ ٢١٣)، وابن ماجه (٢٠١٦)، والحاكم (٤/ ١٥).

(٢) النملة: قروحٌ تخرج فى الجنب.

(٣) حـديثٌ صحـيحٌ. أخرجـه أبو داود (٣٨٨٧)، وأحـمد (٦/ ٢٧٢)، وابن أبى شـيبـة (٨/ ٣٨) فى مصنفه، والحاكم (٤/ ٤١٤) وصححه، وأقره الذهبي.

المصحف فى منزل حفصة:

ولعلَّ من الأمـور الجديـرة بالذكر ههنـا أن «الصوامـة القـوامة» قـد ورثت الصحيفة الجامعة للكتاب الكريم.

يقول زيد بن ثابت -رضي الله عنه-: لما أمرنى أبو بـكر الصديق -رضي الله عنه- فجـمعت القرآن، كتبته فى قطع الأدمة[١]، وكسر الأكتاف[٢]، والعُسُب[٣].

فلمـا هلك أبو بكر كان عـمر بن الخطاب كـتب ذلك فى صحـيفـة واحدة فكانت عنده، فلما هلك عمر كانت الصحـيفة عند حفصة زوجة النبى -ﷺ-، ثم أرسل عثـمان بن عفـان إلى حفصة، فـسألها أن تعطيـه الصحيـفة، وحلف ليردنها إليها، فأعطته إياها.

فعـرض عثـمان بن عـفان -رضي الله عنه- المصحف عليـه، فردها إليـها، وطابت نفسه، وأمر الناس فكتبوا المصاحف.

فلما كان مروان بن الحكم، أرسل إلى حفصة -رضي الله عنها- يسألها عن المصحف الذى نُسخ منه القرآن، فأبت حفصة أن تعطيه إياها.

فلمـا ماتت حـفصـة أرسل مروان بـن الحكم إلى عبـد الله بن عمـر بذلك المصحف، ليرسلها إليه، فأعطاهم إياها فغُسلت غسلاً[٤].

وهذا لكثرة النسخ الموجـودة، وخوفًا على تلك النسخـة العتيقـة أن تتعرض للإهانة، أو توضع فى موضع لا يليق بها.

---

(١) الأدم: هو قطع الجلود، والجلد الأحمر خصوصًا.

(٢) كسر الأكـتاف: الكتف عظم عريض يكون فى أصل كتف الحـيوان الدواب، وكانوا يكتبـون فيه لقلة القراطيس عندهم.

(٣) العسب: جمع عسيب، وهو الجريدة من النخل مستقيمة، يكشط خوصها، ويُكتب عليها.

(٤) حلية الأولياء (٢/ ٥١)، الطبرانى (٢٣/ ١٨٩) فى الكبير.

فحافظت الصوامة القوامة على الموروث، وأدت الأمانة، فرضى الله عنها وأرضاها.

حفصة الزاهدة:

عاشت حفصة -رضي الله عنها- بعد وفاة الرسول -ﷺ-، وكانت ذات مكانة، وتقدير فى خلافة أبى بكر الصديق، فهى إحدى أمهات المؤمنين.

وقد تأثرت بزهد والدها الفاروق -رضي الله عنه- فقد دخل عليها ذات يوم، فقدمت إليه مرقًا باردًا، وخبزًا، وصبت فى المرق زيتًا، فقال لها:

أُدمان فى إناءٍ واحدٍ، لا أذوقه حتى ألقى الله.

ورأت حفصة والدها يومًا فى شدة من العيش، فقالت له: يا أمير المؤمنين، لو لبست ثوبًا ألين من ثوبك، فقال لها:

سأخصمك إلى نفسك، أما تذكرين ما كان رسول الله -ﷺ- يلقى من شدة العيش؟!

فما زال يذكرها حتى أبكاها[1].

وتوفى الصديق واستخلف من بعده الفاروق، ورأت حفصة فتوحات الإسلام فى خلافة والدها، حتى رُوعت ومعها أهل الإسلام بمقتل الفاروق بطعنات من خنجر الكافر أبى لؤلؤة المجوسى، ثم واصلت رحلتها فى عهد ذى النورين، وبعد مقتله، وولاية على بن أبى طالب اعتكفت على العبادة حتى وافتها المنية.

(١) الطبقات الكبرى (٣/ ٢٧٧).

وفاة حفصة بنت عمر:

في شهر شعبان سنة إحدى وأربعين هجرية، وفي خلافة معاوية بن أبي سفيان توفيت أم المؤمنين الصوامة الصوامة حفصة بنت عمر -رضي الله عنها- وهي ابنة ستين سنة يومئذٍ.

وصلى عليها مروان بن الحكم، وكان والي المدينة حينئذٍ، وحمل نعشها ضمن من يحملون، كما قال مسلم المقبري ـ رحمه الله ـ:

رأيت مروان بن الحكم حمل بين عمودي سرير حفصة من عند دار آل حزم إلى دار المغيرة بن شعبة، وحملها أبو هريرة -رضي الله عنه- من دار المغيرة إلى قبرها.

ونزل في قبرها أفراد أسرتها، فنزل يلحدها عبد الله بن عمر، وعاصم بن عمر، وسالم وعبد الله وحمزة أبناء عبد الله بن عمر[1] .

فرضي الله عن حفصة بنت عمر مع الصحابيات الصالحات.

وسلامٌ على الصوامة القوامة في عداد أمهات المؤمنين.

ونكمل المسير مع نساءٍ في بيت النبوة، والله الهادي إلى الصواب.

---

(١) ولمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى:
طبقات ابن سعد (٨/ ٨١)، المستدرك (٤/ ١٤)، الاستيعاب (٤/ ١٨١١)، أسد الغابة (٧/ ٦٥)، تهذيب الكمال (١٦٨٠)، تاريخ الإسلام (٢/ ٢٢٠)، السير (٢/ ٢٢٧)، شذرات الذهب (١/ ١٠- ١٦).

رملة بنت أبى سفيان

هى زوجة النبى الكريم -ﷺ-، وأخت خليفة المسلمين معاوية -رضي الله عنه-

نسب رفيع وزواج مبارك:

إنها رملة بنت أبى سفيان صـخر بن حرب الأموية، دخلت إلى بيت النبوة، وعاشت فيه ضمن زوجات النبى -ﷺ-.

وهى من بنات عمٍّ النبى -ﷺ-، وليس فى أزواجه الطيـبات من هى أقرب نسبًا إليه منها، ولا فى نسائه من هى أكـثر صداقًا منها، ولا من تَزَوَّج بها وهى بعيدة الدار أبعد منها.

وكانت متزوجـة بعبيد الله بن جحش بن رياب الأسدى، وهاجـر معها إلى الحـبشـة، ثم ارتد عن الإسلام إلـى النصرانيـة، فمـات مـرتدًّا، نعوذ بالله من الخذلان.

فأرسل الرسول -ﷺ- إليهـا بالحبشـة فتزوجـها، زوَّجهـا إياه النجاشى، وأمهرها أربعة آلاف درهم، وبعث بها مع شرحبيل بن حسنة، وجهازها كُلُّه من عند النجاشى.

اتباع السُّنَّة النبوية:

ولقد كانت أم حـبيبة -رضي الله عنها- شديدة الاتباع للسُّنَّة النبـوية، فإنه لما جاءها نعى أبيها دعت بطستٍ فمسحت ذراعيها، وقالت:

ما لى من حاجـةٍ، ولولا أنى سمعت النبى -ﷺ- يقول: «لا يحل لامرأةٍ

تؤمن بالله واليـوم الآخر تحد عـلى ميتٍ فـوق ثلاثٍ إلا على زوجٍ أربعة أشـهرٍ وعشراً»[١] .

فأم المؤمنين أم حبيبة -رضي الله عنها- تعلمنا أن الأسى والحزن ينبغى أن يتوقف على حدود مـا شرع الإسـلام الحنيف من ترك الزينة والطيب، على ألا يتـعدى ذلك حدود المدة التى قررها الإسلام.

فيا ليتنا نتعلم من أم حبيبة محبة اتباع السُّنة، والمسارعة إلى الانقياد لها.

وها هى أم حبيبة -رضي الله عنها- تقول:

سمـعت رسول الله -ﷺ- يقول: «من صلى اثنتى عـشرة ركعـة فى يومه وليلته تطوعًا من غير الفريضة، إلا بنى الله له بيتًا فى الجنة»[٢] .

تقول أم حبيبة: فما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله -ﷺ- .

هكذا تبين لـنا أم حبيـبة -رضي الله عنها- ما يحظى به العبـد المؤمن من الفضل إذا حافظ على السنن، وواظب عليها.

وروت أم حبيـبة عن رسول الله -ﷺ- خمسـة وستين حديثـا، أخرج لها الشيخان أربعة أحاديث، واتفقا على حديثين، ولمسلم مثلهما.

---

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخـرجه البـخارى (٧/ ٧٦)، ومـسلم (١٤٨٦)، (١٤٨٧)، وأبو داود (٢٢٩٩)، والترمذى (١٢١٠، ١٢١١)، والنسائى (٦/ ٢٠١)، وأحمد (٦/ ١٨٤، ٣٢٤).

(٢) حـديثٌ صـحـيحٌ. أخرجـه مـسلم (٧٢٨)، وأبو داود (١٢٥٠)، والتـرمـذى (٤١٣)، والنسـائى (٣/ ٢٦٢)، وابن ماجه (١١٤١).

وفاة أم حبيبة:

وعاشت أم حبيبة -رضي الله عنها- حتى توفيت سنة أربع وأربعين، وقبرها بالمدينة[1] النبوية.

فسلامٌ على أم حبيبة في نساءٍ حول الرسول.

وسلامٌ على أم المؤمنين مع الصحابيات الصالحات.

ونكمل المسير مع باقي نساء بيت النبوة، وأسأل الله الهداية والرشاد.

❑❑❑

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٨/ ٩٦ ـ ١٠٠)، المستدرك (٤/ ٢٠)، الاستيعاب (٤/ ١٨٤٣)، أسد الغابة (٧/ ١١٥)، تهذيب الكمال (١٦٨٢)، تاريخ الإسلام (٢/ ٢٥٣)، مجمع الزوائد (٩/ ٢٤٩)، التهذيب (١٢/ ٤١٩)، صفة الصفوة (٢/ ٤٢ ـ ٤٦)، السمط الثمين (ص١١١ ـ ١١٦)، شذرات الذهب (١/ ٥٤).

سودة بنت زمعة

هى أول من تزوج بها النبى -ﷺ- بعد خديجة -رضي الله عنها- وانفردت به نحواً من ثلاث سنين أو أكثر حتى دخل بعائشة.

وهى صحابية جليلة، نبيلة فاضلة.

اسمها سودة بنت زمعة بن قيس القرشية العامرية، وكانت قبل دخولها بيت النبوة تحت ابن عمٍّ لها، يقال له: السكران بن عمرو من بنى عامر بن لؤى.

وكانت -رضي الله عنها- امرأة ثبطة، أى ثقيلة، ولذلك لما استأذنت الرسول -ﷺ- ليلة المزدلفة أن تدفع قبل الناس فأذن لها.

وهى التى وهبت يومها لعائشة -رضي الله عنها- رعاية لقلب رسول الله -ﷺ-، وكان النبى -ﷺ- يقسم لعائشة بيومها، ويوم سودة، فلما أسنت سودة وهبت يومها لعائشة، تبتغى بذلك رضى رسول الله -ﷺ-.

وأخرج لها أحاديث البخارى، وأبو داود، والنسائى، وكانت فى الصلاح بمكانٍ حتى تمنت عائشة أن تكون فى مثل هديها وطريقتها.

تقول أعلم النساء -رضي الله عنها-:

ما رأيت امرأة أحبَّ إلىَّ أن أكون فى مسلاخها من سودة بن زمعة إلا أن بها حِدَّةٌ [١].

فمسلاخها تشير به إلى هديها وطريقها، كأنها تمنت أن تكون على مثله، وسلاخ الحية جلدها.

(١) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه مسلم (١٤٦٣)، وابن عبد البر (٤/ ١٨٦٧) فى الاستيعاب.

وكانت سودة -رضي الله عنها- شديدة الاتباع لأمر الرسول -ﷺ-، وخصوصًا بعد وفاته، وقد توفيت بالمدينة فى آخر خلافة عمر -رضي الله عنه-[١] .

فرضى الله عن سودة فى نساء حول الرسول -ﷺ-.

وسلامٌ على أم المؤمنين العامرية فى الصحابيات الصالحات.

ونكمل المسير مع نساءٍ فى بيت النبوة رضي الله عنهن أجمعين.

□□□

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٨/ ٥٢ ـ ٥٨)، الاستيعاب (٤/ ١٨٦٧، ١٨٦٨)، أسد الغابة (٧/ ١٥٧)، تهذيب الكمال (١٦٨٥)، تاريخ الإسلام (٢/ ٦٦)، السير (٢/ ٢٦٥)، مجمع الزوائد (٩/ ٢٤٦ ـ ٢٤٨)، التهذيب (١٢/ ٤٢٦، ٤٢٧)، شذرات الذهب (١/ ٣٤، ٦٠).

أم سلمة المخزومية

إنها زوجة من زوجات النبى -ﷺ-.

وإنها صحابية جليلة لها قدم صدقٍ فى الإسلام.

نسبها وإسلامها:

هى هند بنت أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر، القرشية، المخزومية.

واسم أبيها أبى أمية: حذيفة، ويُلقب بزاد الراكب.

وكان والدها من أجواد قريش المشهورين بالكرم، والجود، والسخاء، والعطاء.

وأمها: عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن مالك.

أسلمت فى بدء الإسلام، وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة، ثم بعد وفاة زوجها هاجرت بمفردها إلى دار الهجرة المدينة.

وفى دار الهجرة تعرفت على أحكام دينها، فصارت من الصحابيات المحدثات الفقيهات.

وتمت مسرتها بزواج الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بها، يقول الذهبى ـ رحمه الله ـ: كانت تُعد من فقيهات الصحابيات[١].

عاشت صابرة على البلاء، حتى عوضها الله بأعظم أنواع الرخاء.

لقد صارت زوجة فى بيت النبوة.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/٢٠٣).

أما عن اسمها فهى هند بنت أبى أمية بن المغيرة المخزومية، أما أمها فهى عاتكة بنت عامر بن مالك بن خزيمة، فهى فى العرب من أشرفهن نسبًا.

وقد تزوجت أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومى -رضي الله عنه- فولدت له سلمة، وعمر، ودُرَّة، وزينب، وصاروا فى عداد الصحب الصغار.

البلاء فى حياة أم سلمة:

وبدأ البلاء فى حياتها مبكرًا منذ إسلامها، وبدء دخولها إلى الإسلام، فكانت الرحلة الأولى الهجرة إلى الحبشة، والرحلة الثانية إلى المدينة النبوية.

ولعلَّ من أقسى المواقف التى مرت بها فى رحلتها مع البلاء الموقف التالى:

تقول أم سلمة -رضي الله عنها-: لما أجمع أبو سلمة -رضي الله عنه- الخروج إلى المدينة، رحل بعيراً، وحملنى، وحمل معى ابنى سلمة، ثم خرج يقود بعيره.

فلما رآه رجال بنى المغيرة بن عبد الله بن عمر المخزومى، قاموا إليه فقالوا:

هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه؟!

علام تُترك تسير بها فى البلاد؟!

ونزعوا خطام البعير من يده، وأخذونى، وغضبت عند ذلك بنو عبد الأسد، وأهووا إلى سلمة، وقالوا:

لا نترك ابننا عندها، إذ نزعتموها من صاحبنا.

فتجاذبوا ابنى سلمة حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد رهط أبى سلمة، وحبسنى بنو المغيرة عندهم.

وانطلق زوجى أبو سلمة حتى لحق بالمدينة، فَفُرق بينى وبين زوجى، وبين ابنى.

قالت أم سلمة -رضي الله عنها-: فكنت أخرج كل غداةٍ أجلس بالأبطح، فما أزال أبكى، حتى أمسى سنة أو قريبها، حتى مَرَّ بى رجلٌ من بنى عمى، من بنى المغيرة، فرأى ما بى فرحمنى، فقال لبنى المغيرة: ألا ترحمون هذه المسكينة؟! فرقتم بينها وبين زوجها، وبين ابنها!!

فقالوا لى: الحقى بزوجك إن شئت، ورد علىَّ بنو أسد عند ذلك ابنى، فرحلت بعيرى، ووضعت ابنى فى حجرى، ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة، وما معى أحدٌ من خلق الله، فقلت: أتبلَّغ بمن لقيتُ حتى أقدم على زوجى، حتى إذا كنت بالتنعيم[1] لقيت عثمان بن طلحة، فقال: إلى أين يا بنت أبى أمية؟

قلت: أُريد زوجى بالمدينة، فقال: هل معك أحد؟ فقلت: لا، والله، إلا الله وابنى.

فقال عثمان بن طلحة: والله مالك من مترِك، فأخذ بخطام البعير، فانطلق معى يقودنى، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب أراه كان أكرم منه، إذا بلغ المنزل أناخ بى، ثم تنحى إلى شجرةٍ فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيرى فقدمه فرحله، ثم استأخر عنه، وقال: اركبى.

فإذا ركبت واستويت على بعيرى أتى فأخذ بخطامه، فقادنى حتى ننزل، فلم يزل يصنع ذلك حتى قدم بى المدينة، فلما نظر إلى قرية بنى عمرو بن عوف

(١) التنعيم: مكان على مشارف مكة.

بقباء، قال: زوجك فى هذه القرية، وكان أبو سلمة نازلاً بها، فادخليها على بركة الله تعالى، ثم انصرف راجعًا إلى مكة.

فما أعلم أهل بيتٍ أصابهم فى الإسلام ما أصاب آل أبى سلمة، وما رأيت صاحبًا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة(١) .

ولنا أن نتخيل مدى الحزن والمرارة التى عاشت فيه أم سلمة، طوال عامٍ كامل.

ومع كل ذلك ظلت على إيمانها حتى خرجت مهاجرة إلى الله تعالى، وإلى رسوله -ﷺ- لا تريد بذلك إلا ابتغاء مرضاة الله تعالى.

فقد صبرت ابتغاء ثواب ربها، وعلمت أن ما أصابها لم يكن ليخطئها، وما أخطأها لم يكن ليصيبها، فذاقت حلاوة الإيمان.

وكانت أم سلمة أول امرأة وصلت إلى المدينة مهاجرة بمفردها.

ولكن يا لها من مفاجأة. لقد تُوفى أبو سلمة.

وكان أخو رسول الله -ﷺ- من الرضاعة، وابن عمته برة بنت عبد المطلب، وأحد السابقين الأولين، هاجر الهجرتين، وشهد بدرًا، ومات بعدها بأشهرٍ.

فرضى الله عنه وأرضاه.

فما كان من أم سلمة إلا أن أخبرتهم فى المدينة أنها بنت أبى أمية، ولكن ها هى المفاجآت تتوالى، فقد كذبوها حتى قالوا:

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٦٩)، أسد الغابة (٧/ ٣٤٢).

ما أكذب الغرائب!!

وهنا جاء موسم الحج، وأراد ناسٌ من أهل المدينة الحج، فقالوا لها:

أتكتبين إلى أهلك؟ فكتبت معهم، فرجعوا، فصدقوها، وازدادت عليهم كرامة[١].

وكأنها -رضي الله عنها- بعد تلك الرحلة الشاقة، وهذه المعاناة الأليمة ترى محنة أشد إيلامًا.

إنهم لا يصدقون أنها سليلة الشرف، وصاحبة النسب الرفيع، بنت أبى أمية.

ولكن بعد العسر يسراً، ويأتى الفرج بعد الشدة.

فإذا رجعنا إلى الوراء قبل وفاة أبى سلمة نجد تلك الجلسة التى كانت بينه وبين زوجته وقد دعا لها فيها بدعاءٍ طيبٍ، استجاب الله تعالى له فيها بعد وفاته.

فما هذا الدعاء الطيب؟

تقول أم سلمة: قلت لأبى سلمة: بلغنى أنه ليس امرأة يموت زوجها، وهو من أهل الجنة ثم لم تتزوج، إلا جمع الله بينهما فى الجنة.

فتعال أُعاهدك ألا أتزوج بعدك.

قال أبو سلمة -رضي الله عنه-: أتطيعيننى؟ قالت: نعم.

قال أبو سلمة: إذا مِتُّ تزوجى، اللهم ارزق أم سلمة بعدى رجلاً خيراً منى، لا يُحزنها، ولا يؤذيها.

---

(١) الطبقات (٨/ ٩٢ ـ ٩٤)، مسند أحمد (٦/ ٣٠٧)، مستدرك الحاكم (٤/ ١٩).

فلما مات، قلتُ من خير من أبى سلمة؟!!

فلما لبثتُ، وجاء رسول الله -ﷺ- فقام على الباب، فذكر الخطبة إلى ابن أخيها، أو ابنها، فقالت: أرُدُّ على رسول الله -ﷺ-، أو أتقدم عليه بعيالى؟

ثم جاء الغد فخطب، فقلت مثل ذلك، ثم قالت لوليها: إن عاد رسول الله -ﷺ- فزوج، فعاد رسول الله -ﷺ- فتزوجها[١] .

تقول أم سلمة -رضي الله عنها-:

سمعت أبا سلمة يقول: سمعت رسول الله -ﷺ- يقول:

«ما من أحدٍ من المسلمين يصاب بمصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم إنى أحتسبُ مصيبتى عندك، اللهم أبدلنى بها خيراً منها، إلا أبدله الله بها خيراً منها».

فلما توفى أبو سلمة قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم إنى أحتسب مصيبتى فى أبى سلمة عندك، اللهم أبدلنى به خيراً منه.

فجعلت أقول فى نفسى: مَنْ خيرٌ من أبى سلمة؟!

فجاء رسول الله -ﷺ- فخطبنى، فقلت: أنا مصبية[٢] ، وأنا غيورة، وأنا كبيرة السن؟!

فقال رسول الله -ﷺ-: «أما كبر السن فأنا أكبر منك، وأما الغيرة فأنا أدعو الله أن يذهبها عنك، وأما العيال فإلى الله ورسوله»[٣] .

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٨٨)، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٠٣).

(٢) مصبية: أى ذات صبيان.

(٣) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه أحمد (٦/ ٣١٣)، والترمذى (٣٥٧٨)، والنسائى (١٠٧٠) فى عمل اليوم والليلة، وابن ماجه (١٥٩٨).

فأمر عمر بن أبى سلمة فزوجنى إياه.

وبعد رحلةٍ طويلة فى ظلال بيت النبوة عاشتها أم سلمة، وعمرت حتى كانت آخر من مات من أمهات المؤمنين، رضي الله عنهن أجمعين.

وحزنت أم سلمة -رضي الله عنها- لوفاة النبى، الزوج المبارك -ﷺ-، وحزنت أم سلمة -رضي الله عنها- لوفاة صديق الأمة أبى بكر الصديق -رضي الله عنه-.

وحزنت أم سلمة -رضي الله عنها- لاستشهاد الفاروق عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-.

وحزنت لاستشهاد الإمامين الجليلين عثمان وعلى -رضي الله عنهما-، وعاشت أم سلمة -رضي الله عنها- حتى بلغها مقتل الحسين شهيدًا، فوجمت لذلك، وغُشى عليها، وحزنت عليه كثيرًا.

ولقد حملت عن النبى -ﷺ- فقهًا غزيرًا، وعلمًا كثيرًا، -رضي الله عنها وأرضاها-، ويبلغ مسندها ثلاثمائة وثمانية وسبعين حديثًا.

واتفق البخارى ومسلم لها على ثلاثة عشر حديثًا، وانفرد البخارى بثلاثة، وانفرد مسلم بثلاثة عشر.

وعاشت أم سلمة نحواً من تسعين سنة، والراجح أن وفاتها كانت فى سنة إحدى وستين[١].

فسلامٌ على أم سلمة مع الصحابيات الصالحات.

□□□

---

(١) لمزيد من التفصيل انظر:

طبقات ابن سعد (٨/ ٩٦)، المستدرك (٤/ ١٦)، الاستيعاب (٤/ ١٩٢٠)، أسد الغابة (٧/ ٣٤٠)، تهذيب الكمال (١٦٩٨)، العبر (١/ ٦٥)، مجمع الزوائد (٩/ ٢٤٥)، التهذيب (١٢/ ٤٥٥)، شذرات الذهب (١/ ٦٩).

صفية بنت حيى

حياتها قبل الإسلام:

صحابيةٌ جليلةٌ، دخلت إلى بيت النبوة فزادها ذلك شرفًا إلى شرفها.

كانت تحيا فى بيت أبيها على الديانة اليهودية، وأبوها سيد قومه.

فهى صفية بنت حُيىٍّ بن أخطب، وينتهى نسبها إلى نبى الله هارون ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

تزوجها قبل إسلامها: سلامُ بن أبى الحُقيق، خلف عليها كنانة بن أبى الحقيق، وكانا من شعراء اليهود، فقُتل كنانة يوم خيبر عنها، وصارت فى عداد السبى، فلما قسم السبايا صارت فى سهم دحية الكلبى، فقيل للنبى -ﷺ- عنها، وأنها جديرة بأن تكون تحت الرسول -ﷺ-، فعوضه عنها.

فقد كانت صفية -رضي الله عنها- شريفة عاقلة، ذات حسبٍ، وجمالٍ.

زواج الرسول -ﷺ- بها:

قد كان من الحكمة المؤثرة أن يتزوج بها الرسول -ﷺ- ليتضح كم هو الإسلام لا يضع من نسب، ولا حسب، بل يرفع الأقدار.

ولتتضح الصورة الحقيقية لرحمة الإسلام وإنسانيته، فها هى ابنة سيد اليهود الأسيرة لا تقتل، ولا يغتصب شرفها بل تصبح سيدة كريمة فى بيت النبوة.

فمن خلف كل زواج نبوى حكمة وعبرة، وليس كما يتصور أصحاب الأهواء، والقلوب المريضة.

يقول أنس بنُ مالك -رضي الله عنه-:

جُمع السبى ـ يعني بخيبر ـ فجاء دحية فقال: يا رسول الله، أعطنى جارية من السبى.

فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «اذهب فخذ جارية».

فأخذ صفية بنت حيى، فجاء رجلٌ إلى نبى الله -ﷺ- فقال: يا نبى الله، أعطيت دحية صفية بنت حيى سيد قريظة والنضير، ما تصلح إلا لك.

فقال: «ادعوه بها» فلما جاء بها، فلما نظر إليها النبى -ﷺ- قال:

«خذ جارية من السبى غيرها»[1] قال: وأعتقها وتزوجها.

فالرسول -ﷺ- بزواجه منها أبان عن صورة من صور الرحمة لعزيز قومٍ ذل، وبرهان لليهود الملاعين أن الإسلام لا يريد استعباد أحدٍ.

فالأمة صارت حرة، ونالت منزلة ومكانة بزواج الرسول -ﷺ- بها.

صفية فى بيت النبوة:

وعاشت صفية بنت حيى فى بيت النبوة، ودخلت فى الإسلام، وحسن إسلامها، إلى أن كان ذلك اليوم الذى يحكى لنا أنس ما حدث فيه، فيقول:

بلغ صفية أن حفصة قالت: بنت يهودى! فبكت، فدخل إليها النبى -ﷺ- وهى تبكى، فقال: «ما يبكيك؟» فقالت: قالت لى حفصة إنى بنت يهودى.

فقال النبى -ﷺ-: «إنك لابنة نبى، وإن عمك لنبى، وإنك لتحت نبى، ففيم تفخر عليك؟!».

---

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (٧/ ٣٦٠)، ومسلم (١٣٦٥)، وأبو داود (٢٩٩٧)، وأحمد (٣/ ١٢٣).

ثم قال: «اتقى الله يا حفصة»[١] .

فما أروع النبى زوجًا! وما أروع النبى شفيقًا حنونًا!

فالعامل الأساسى فى هذا الموقف هو الغيرة بين النساء، ولكن الرسول - ﷺ- أعاد الحق إلى أهله، واقتص للمظلوم من ظالمه.

غضب الرسول -ﷺ- لصفية:

وحدث وحجت نساء بيت النبوة فى العهد النبوى، فلما حج النبى -ﷺ- بنسائه برك بصفية جملها، فبكت، وجاء رسول الله -ﷺ- لما أخبروه، فجعل يمسح دموعها بيده وهى تبكى، وهو ينهاها، فنزل رسول الله -ﷺ- بالناس.

فلما كان عند الرواح، قال لزينب بنت جحش: «أفقرى أختك جملاً» أى: أعيريها وكانت زينب من أكثرهن ظهراً، فقالت: «أنا أفقر يهوديتك؟!».

فغضب -ﷺ-، فلم يكلمها، حتى رجع إلى المدينة، وظل على ذلك طوال شهرى المحرم وصفر، فلم يأتها، ولم يقسم لها، ويئست منه.

فلما كان ربيع الأول دخل عليها، فلما رأته قالت: يا رسول الله، ما أصنع؟

قال: وكانت لها جارية تخبؤها من رسول الله، فقالت: هى لك.

فمشى النبى -ﷺ- إلى سريرها، وكان قد رُفع، فوضعه بيده، ورضى عن أهله.

ما بعد وفاة الرسول -ﷺ-:

عاشت صفية بنت حُيى عابدة زاهدة بعد وفاة الرسول -ﷺ-، ومرت

(١) حديثٌ حسنٌ. أخرجه أحمد (٦/ ٣٣٧، ٣٣٨)، وابن سعد (٨/ ١٢٦، ١٢٧) فى طبقاته.

عليها خلافة أبى بكر الصديق، وخلافة الفاروق -رضي الله عنهما-.

وجاءت خلافة عثمان بن عفان -رضي الله عنه- وحدث ما حدث فيها من الفتن، وحصار الخليفة الصابر المحتسب ذى النورين، وكان لصفية بنت حُيى أروع المواقف فى أثناء ذلك الحصار.

يروى كنانة مولى صفية:

كنتُ أقود بصفية لتـرُدَّ عن عثمان بن عفان -رضي الله عنه- فلقيها الأشتر، فضرب وجه بغلتها حتى مالت، فقالت:

ذرونى، لا يفضحنى هذا!

ثم وضعت خشبًا من منزلها إلى منزل عثمان، تنقل عليه الماء والطعام[1].

هكذا تسعى أم المؤمنين فى تخفيف أثر الحصار على الخليفة المظلوم عثمان ابن عفان، فما أروعه! وما أعظمها!

تقدير الرسول -ﷺ- لصفية:

ولقد كان النبى -ﷺ- يجل صفية، حتى أنه ليخرج لها من المعتكف تكرمةً لها، فقد كانت تأتيه ليلاً فى معتكفه فتزوره، فحدثته، فلما خرج إليها مر رجلان من الأنصار، فلما رأيا الرسول -ﷺ- أسرعا، فقال لهما:

«على رسلكما، إنها صفية بنت حيى».

فقالا: سبحان الله يا رسول الله!

فقال رسول الله -ﷺ-: «إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم، وإنى

---

(١) أخرجه ابن سعد (٨/١٢٨) فى طبقاته، وسنده صحيح.

خشيت أن يقذف فى قلوبكما شرًّا»(١) .

وفى روايةٍ أخرى: فقالا: سبحان الله يا رسـول الله، وكبر عليهما، فقال -ﷺ-: «إن الشـيطان يبلغ من ابن آدم مـبلغ الدم، وإنى خـشيت أن يقـذف فى قلوبكما شيئًا»(٢) .

فصفية -رضي الله عنها- جاءت إلى رسول الله -ﷺ- تزوره فى اعتكافه فى المسجد فى العشر الأواخر من رمـضان، فتحدثت عنده ساعة، ثم قـامت لتنصرف فقام النبى -ﷺ- معها ليصرفها فحدث ما حدث، مما يدلل ويرشد على إكرامه لها.

وروت صفية -رضي الله عنها- عن النبى -ﷺ- عشرة أحاديث، منهـا واحد متفق عليه.

وفاة أم المؤمنين:

وتوفيت فى خـلافة معاوية بن أبى سـفيان -رضي الله عنه- سنة خمـسين، ودُفنت بالبقيع(٣) .

فسلامٌ على الشريفة الحليمة فى نساءٍ حول الرسول -ﷺ-.

وسلامٌ على صفية بنت حيى فى الصحابيات الصالحات.

□□□

---

(١) ، (٢) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (٣/ ٦٤، ١٥٦)، ومسلم (٢١٧٥)، والترمذى (١١٧٢)، وابن ماجه (١٧٨٠)، وأحمد (٣/١٥٦).

(٣) انظر: طبقات ابن سعد (٨ ـ ١٢٠، ١٢٩)، المستدرك (٤/٢٨)، الاستيعاب (٤/ ١٨٧١)، أسد الغابة (٧/ ١٦٩)، تهذيب الكمال (١٦٨٦)، تاريخ الإسلام (٢/ ٢٢٨)، العبر (١/ ٨، ٥٦)، مجمع الزوائد (٩/ ٢٥٠)، التهذيب (١٢/ ٤٢٩)، شذرات الذهب (١/ ١٢، ٥٦).

جويرية بنت الحارث

صحابية جليلة فى بيت النبوة، وكانت من أجمل النساء -رضي الله عنها-.

هى جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار المصطلقية، وكان أبوها مطاعًا فى قومه.

قصة زواج الرسول -ﷺ- بها:

ولكن كيف وصلت إلى بيت النبوة؟

تقص علينا ذلك أعلم النساء عائشة -رضي الله عنها-، فتقول:

لما أصاب رسول الله -ﷺ- سبايا بنى المصطلق، وقعت جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار فى السهم لثابت بن قيس، فكاتبته على نفسها، وكانت امرأة جميلة.

فأتت رسول الله -ﷺ- لتستعينه فى كتابتها، قالت عائشة: فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب الحجرة فكرهتها، وقلت: سيرى منها مثل ما رأيت.

فلما دخلت على رسول الله -ﷺ- قالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار سيد قومه، وقد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك، فوقعت فى سهم ثابت بن قيس، وقد كاتبت على نفسى، فأعنى على كتابتى.

فقال رسول الله -ﷺ-: «وهل لك فى خيرٍ من ذلك؟».

قالت: وما هو؟

قال: «أؤدى عنك كتابتك، وأتزوجك».

قالت: نعم يا رسول الله، قد فعلت. ففعل رسول الله -ﷺ-، فخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله -ﷺ- تزوج جويرية بنت الحارث، فقال الناس:

أصهار رسول الله -ﷺ-، فأرسلوا ما فى أيديهم من بنى المصطلق، فلقد أعتق بتزويجه -ﷺ- إياها مائة أهل بيت من بنى المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم بركةً على قومها منها[١].

وهكذا أصحبت جويرية المصطلقية من النساء اللواتى دخلن إلى بيت النبوة.

وكان اسمها أولاً «برة» فحوله رسول الله -ﷺ- إلى جويرية[٢]، وذلك لما فى الاسم الأول من معانى المدح والتزكية.

وقد قَدم أبوها الحارث على الرسول -ﷺ-، وأعلن إسلامه، وكانت ابنته يوم زواجها ابنة عشرين سنة.

حب العبادة والذكر:

وكانت المصطلقية -رضي الله عنها- تكثر من التسبيح، فحدث وأتى عليها الرسول -ﷺ- غدوةً، وهى تسبح، ثم انطلق لحاجته، ثم رجع قريبًا من نفس النهار، فقال:

«أما زِلْتِ قاعدة؟!» قالت: نعم.

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «ألا أعلمك كلمات لو عُدِلْنَ بهن عدلتهن، ولو وُزنَّ بهن وزنتهن ـ يعنى جميع ما سبحت ـ: سبحان الله عدد خلقه، ثلاث

---

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه أحمد (٦/ ٢٦٧، ٢٧٧)، وابن سعد (٨/ ١١٦) فى طبقاته، وأبو داود (٣٩١٢)، والحاكم (٤/ ٢٦)، والطبرى (٢/ ٦١٠) فى تاريخه، والطبرانى (٢٤/ ٦١) فى الكبير.

(٢) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه مسلم (٢١٤٠)، وأحمد (٦/ ٤٢٩، ٤٣٠)، وابن سعد (٨/ ١١٨) فى طبقاته.

مراتٍ، سبحان الله زنة عرشه، ثلاث مرات، سبحان الله رضا نفسه، ثلاث مراتٍ، سبحان الله مداد كلماته، ثلاث مراتٍ»[1] .

مرويات جويرية للسُّنة:

وحفظت جويرية عدة أحاديث، واتفق الشيخان على حديثين، وروى لها أبو داود، والترمذى، والنسائى، وابن ماجه.

وروى عنها: ابن عمر، وابن عباس، وعبيد بن السباق، ومجاهد، وغيرهم.

وفاة جويرية بنت الحارث:

وتوفيت فى المدينة فى ربيع الأول من سنة ستٍّ وخمسين، ودفنت فى البقيع[2] .

فسلامٌ على جويرية فى نساءِ حول الرسول -ﷺ-.

وسلامٌ على المصطلقية فى الصحابيات.

ونكمل المسير مع باقى نساء بيت النبوة، سائلين الله التوفيق والسداد.

□□□

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه مسلم (٢٧٢٦)، وأحمد (٦/ ٣٢٤، ٤٢٩، ٤٣٠)، وابن سعد (١/ ١١٩).

(٢) ولمزيد من التفصيل انظر:

طبقات ابن سعد (٨/ ١١٦)، المستدرك (٤/ ٢٥)، الاستيعاب (٤/ ١٨٠٤، ١٨٠٥)، أسد الغابة (٤/ ٥٧)، تهذيب الكمال (١٦٧٩)، تاريخ الإسلام (٢/ ٢٧٥)، العبر (١/ ٧، ٦١)، مجمع الزوائد (٩/ ٢٥٠)، صفة الصفوة (٢/ ٤٩، ٥٠)، التهذيب (١٢/ ٤٠٧)، شذرات الذهب (١/ ١٦).

ميمونة بنت الحارث

هى الصحابية الجليلة ميمونة بنت الحارث بن حزن الهلالية، زوج النبى -ﷺ-.

تزوجها فى البدء مسعود بن عمرو الثقفى قبل الإسلام، ففارقها، فتزوجها أبو رهم، ثم مات عنها، فتزوجها الرسول -ﷺ- بعد انتهائه من عمرة القضاء فى السنة السابعة.

وكانت أم المؤمنين الهلالية تقية، لا تخشى فى الله لومة لائم، يروى يزيد ابن الأصم فيقول: دخل ذو قرابةٍ لميمونة عليها، فوجدت منه ريح شرابٍ، فقالت: لئن لم تخرج إلى المسلمين فيجلدوك، لا تدخل علىَّ أبدًا[1].

ويقول ابن الأصم: تلقيتُ عائشة، وهى مقبلةٌ من مكة، أنا وابن أختها، وقد كنا وقعنا فى حائطٍ بالمدينة، فأصبنا منه، فبلغها ذلك، فأقبلت على ابن أختها تلومه، ثم وعظتنى موعظةً بليغةٍ، ثم قالت:

أما عَلِمتَ أن الله ساقك حتى جعلك فى بيت نبيه، ذهبت والله ميمونة، ورُمى بحبلك على غاربك.

أما إنها ـ يعنى ميمونة ـ كانت من أتقانا لله، وأوصلنا للرحم[2].

وقد روت أم المؤمنين عدة أحاديث، وجميع ما روته ثلاثة عشر حديثًا، رُوى لها سبعة أحاديث فى الصحيحين، وانفرد لها البخارى بحديثٍ، ومسلم بخمسة، وجملة مروياتها ستة وسبعين حديثًا.

---

(١) خبرٌ حسنٌ. أخرجه ابن سعد (٨/ ١٣٩) فى طبقاته.

(٢) خبرٌ حسنٌ. أخرجه ابن سعد (٨/ ١٣٨)، والحاكم (٤/ ٣٢).

ولم يختلفوا أن اسمها كان برة فسماها الرسول -ﷺ- ميمونة، وكانت قد انتهت من الحج، فلم تعش بعده طويلاً، فماتت عن طاعةٍ وعملٍ مبرور.

وفاة ميمونة بنت الحارث:

وتوفيت ميمونة -رضي الله عنها- بموضعٍ يسمى بسرف، وهو الذى تزوجها فيه الرسول -ﷺ-، وذلك سنة إحدى وخمسين.

يقول ابن الأصم: دفنا ميمونة بسرف فى الظُّلَّة التى بنى بها فيها رسول الله -ﷺ-، وقد كانت حلقت فى الحج، نزلت قبرها أنا وابن عباس.

وكان ابن عباس، وهى خالته، قد صلى عليها، ودخل قبرها هو وابن الأصم، وعبد الله بن شداد، وهم بنو أخواتها.

وكان ابن عباس -رضي الله عنهما- قد أمر فحُملت على الأعناق، وقال لهم:

إذا رفعتم نعشها، فلا تزلزلوها، ولا تزعزعوها، وارفقوا بها، فإنها أمُّكم[1].

فرضى الله عن أم المؤمنين الهلالية فى نساءٍ حول الرسول[2] -ﷺ-.

وسلامٌ على ميمونة بنت الحارث فى الصحابيات الصالحات.

❑❑❑

(١) خبرٌ حسنٌ. أخرجه ابن سعد (٨/ ٤٠)، والحاكم (٤/ ٣٣) من طريقين.

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٨/ ١٣٢ ـ ١٤٠)، المستدرك (٤/ ٣٠ ـ ٣٣)، الاستيعاب (٤/ ١٩١٤)، أسد الغابة (٧/ ٢٧٢)، تهذيب الكمال (١٦٩٧)، تاريخ الإسلام (٢/ ٤٣٤)، التهذيب (١٢/ ٤٥٣)، السمط الثمين (ص١٣٤ ـ ١٣٦)، شذرات الذهب (١/ ١٢، ٥٨).

زينب بنت جحش

إنها زوجةٌ من الزوجات التقيات، وصحابية جليلة من الصالحات.

وعُرفت بمحبتها لتقديم الصدقات.

كانت تكثر من فعل الخيرات إلى المساكين والفقيرات، والأرامل والمحتاجات حتى لُقّبت: بـ «أم المساكين» و«مأوى المساكين».

قصة إسلامها:

هى زينب بنت جحش القرشية، ابنه عمة النبى -ﷺ-، وزوجته الشريفة.

أمها: أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم عمة رسول الله -ﷺ-.

أسلمت مبكرًا، وهاجرت الهجرتين.

وكانت من خير النساء دينًا، وورعًا، وجودًا، ومعروفًا، وغلب عليها السخاء.

زواجها المبارك:

وما دخلت إلى بيت النبوة إلا بخبرٍ من السماء، وأى خبر؟!.

كان زيد بن حارثة حبيبًا إلى النبى -ﷺ-، يقال له: الحِبُّ، ولابنه أسامة يقال: الحب بن الحب، وما أرسله الرسول -ﷺ- فى جيشٍ إلا أمَّرَه عليه.

زوّج رسول الله -ﷺ- زيدًا من زينب بنت جحش، ولكن كان من قدر الله ألا تدوم العشرة بينهما، فيأتى زيدٌ يشكو امرأته إلى النبى -ﷺ-، فيقول له: «اتق الله، وأمسك عليك زوجك»[1].

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (٤٧٨٧)، والترمذى (٣٢١٢)، والنسائى (٤٢٧) فى تفسيره.

وكان من قدر الله وحكمته أن زينب ستصير زوجة لرسول الله -ﷺ-، فخشى أن يقول الناس: إن محمدًا تزوج امرأة ابنه، وكان النبى -ﷺ- قد تبنى زيدًا، واتخذه ابنًا على عادة العرب قبل الإسلام.

وأراد الله تعالى إبطال ما كان عليه العرب من عادة التبنى، فكون النبى -ﷺ- سيتزوج بامرأة من يُدعى ابنه أدعى إلى قبول المسلمين لهذا الحكم الشرعى.

ونزل قول الله تعالى: ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ [الأحزاب:٣٧].

فلما انقضت عدةُ زينب، قال رسول الله -ﷺ- لزيد بن حارثة: «اذكُرْهَا علىَّ» فانطلق زيدٌ، فقال: يا زينب، أبشرى، أرسل رسول الله -ﷺ- يذكرك، فقالت: ما أنا بصانعة شيئًا حتى أوامر ربى[١]، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله -ﷺ- حتى دخل عليها بغير إذن[٢]، فنزل قول الله:

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا[٣] زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾ [الأحزاب:٣٧].

وبالفعل فقد كان فى علم الله تعالى أن زينب بنت جحش ستكون من الزوجات اللائى يدخلن بيت النبوة، وقد كان.

وهكذا زوَّجها الله من فوق سبع سمواتٍ، ولها أن تفخر بذلك، وتقول: زوجكن أهاليكن، وزوجنى الله تعالى من فوق سبع سموات[٤].

---

(١) أى: استخير ربى.

(٢) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه مسلم (١٤٢٨)، والنسائى (٤٣٠) فى تفسيره.

(٣) الوطر: الحاجة والأرب، أى لما فرغ منها وفارقها زوجناكها.

(٤) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (٧٤٢١)، وابن سعد (٨/١٠٣) فى طبقاته، والنسائى (٤٣١) فى تفسيره.

التفاني في الكرم والجود:

ولقد كانت زينب تتفاني فـى تقديم الصدقات حتى صارت امـرأة تحب الصدقات حبًّا شديدًا، فهذه شهادة لهـا بذلك من امرأةٍ أخرى تشاركها في بيت النبوة، ومـا أصدق تلك الشهـادة الصادرة من زوجةٍ أخـرى تشاركهـا في البيت النبوى.

تقول أعلم النساء، عائشة الصديقة بنت الصديق -رضي الله عنها-:

لم أر امـرأةً قط خـيرًا في الدين مـن زينب، وأتقى لله، وأصـدق حديثًـا، وأوصل للرحم، وأعظم صدقـة، وأشد ابتذالاً لنفـسها في العمل الذى يتـصدق به، ويتقرب به إلى الله عز وجل.

كانت تعمل بيدها، وتتصدق في سبيل الله عز وجل[١].

وكانت امرأة صناعًا[٢].

أى عطاءٍ ذلك الذى تتسارع إليه تلك الزوجة الكريمة، والصحابية الجليلة!

إنها تصنع ما استطاعت من أشياءٍ تصنع في البـيوت، ثم تتصدق بما جمعت من أموالٍ ابتغاء مرضاة الله، ولسوف يرضى عنها.

وفي ذلك دعوة للنساء اليوم لـلتصدق بما استطعن إليه سبيـلاً، كما دعاهن النبى -ﷺ- فقال: «يا معشر النساء، تصدقن ولو من حُليِّكن، فإن أكثركن أهل جهنم يوم القيامة»[٣].

---

(١) خبـرٌ صحيحٌ. أخـرجه مسلم (١٦/٨)، (٢٤٢٢)، وأحـمد (٦/ ٥١)، والنسائى (٨) فى العـشرة، والبغوى (٣٩٦٤) فى شرح السنة.

(٢) صناعًا: يقال رجل صَنَع، وامرأة صناع إذا كان لهما صنعة يعملانها بأيديهما ويكتسبان بها.

(٣) حـديثٌ صحـيحٌ. أخرجـه البـخارى (١٤٦٦)، ومـسلم (٢/ ٦٧)، والتـرمذى (٦٣٥)، والنسـائى (٣١٨)، وابن ماجه (١٨٣٤).

فهلا دعانا ذلك إلى محبة تقديم الصدقات؟!

وزينب بنت جحش -رضي الله عنها- مع حبها لتقديم الصدقات فهى زاهدة فيما يأتيها من عطاء الدنيا، وكريمة بما فى يديها، وذلك لكمال ثقتها فيما عند الله تعالى، وما عند الله عز وجل خير وأبقى.

تروى لنا برزة بنت رافع -رضي الله عنها- فتقول:

لما جاء العطاء بعث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- إلى زينب بنت جحش بالذى لها، فلما دخل عليها قالت:

غفر الله لعمر، لغيرى من أخواتى كان أقوى على قسم هذا منى!

قالوا: هذا كله لك.

قالت: سبحان الله، واستترت دونه بثوبٍ، وقالت: صبوه، واطرحوا عليه ثوبًا.

فصبوه، وطرحوا عليه ثوبًا، فقالت لى:

يا برزة، أدخلى بيدك، فاقبضى منه قبضة فاذهبى إلى آل فلان، وآل فلان من أيتامها، وذوى رحمها، فقسمته حتى بقيت منه بقية، فقالت لها برزة:

غفر الله لك، والله لقد كان لنا فى هذا حظ!

قالت: فلكم ما تحت الثوب..

قالت: فرفعنا الثوب فوجدنا خمسة وثلاثين درهمًا، ثم رفعت يديها

فقالت: اللهم لا يدركنى عطاء لعمر بعد عامى هذا، فكانت أول نساء النبى -ﷺ- لحوقًا به[١] .

ألا يدعونا ذلك إلى التسابق فى تقديم الصدقات؟!

ألا يحضنا ذلك على ترك البخل، وحبس الأموال، والأنانية، وحب النفس؟!

يقول محمد بن كعب القرظى ـ رحمه الله ـ:

كان عطاء زينب بنت جحش -رضي الله عنها- اثنى عشر ألف درهمٍ، ولم تأخذه إلا عامًا واحدًا، حُمِل إليها اثنا عشر ألف درهمٍ، فجعلت تقول:

اللهم لا يدركنى قابل هذا المال فإنه فتنةٌ.

ثم قسمته فى أهل رحمها، وفى أهل الحاجة، حتى أتت عليه.

فبلغ ذلك عمر فقال: هذه امرأةٌ يراد بها خير، فوقف على بابها، وأرسل السلام، وقال: قد بلغنى ما فرقت، فأرسل إليها بألف درهمٍ يستنفقها، فسلكت بها طريق ذلك المال[٢] .

وهكذا ظلت مسيرة الصدقات فى حياتها متواصلة، وأعمال البر فى أوقاتها متتالية حتى وافتها المنية، فرضى الله عنها وأرضاها.

بشارة نبوية:

ولقد بشرها النبى -ﷺ- بفضلها فى تقديم الصدقات، وأبان عن كرمها،

(١) خبرٌ حسنٌ. أخرجه ابن سعد (٨/ ١٠٩)، وابن الجوزى (٢/ ٤٨) فى صفة الصفوة، وابن الأثير (٧/ ١٢٧) فى أسد الغابة.

(٢) طبقات ابن سعدٍ (٨/ ١١٠).

وعظمة سخائها، فقال لهن فى معجزة نبوية:

«أسرعكن لحاقًا بى أطولكن يدًا»(١) .

تقول عائشة -رضي الله عنها- فكُن يتطاولن أيتهن أطول يدًا.

فكانت أطولنا يدًا زينب، لأنها كانت تعمل بيدها، وتتصدق.

وفى روايةٍ أخرى: أنهن يقدرن أطولهن بالذراع، وهى تعنى أنهن فهمن من لفظ اليد الجارحة.

تقول أعلم النساء، عائشة -رضي الله عنها-:

كنا إذا اجتمعنا فى بيت إحدانا بعد وفاة النبى -ﷺ- نمد أيدينا فى الجدار نتطاول، فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش، وكانت قصيرة ولم تكن أطولنا، فعرفنا حينئذٍ أن النبى -ﷺ- إنما أراد بطول اليد الصدقة، وكانت زينب امرأة صناعة باليد، وكانت تدبغ، وتخرز، وتتصدق فى سبيل الله(٢) .

فهكذا علمت زوجات النبى -ﷺ- أن المراد: طول اليد فى الصدقة والجود، كما فى لغتنا العربية الجميلة يقال:

فلان طويل اليد، وطويل الباع إذا كان سمحًا جوادًا، وضده قصير اليد والباع.

ولقد كان لزينب -رضي الله عنها- عند النبى -ﷺ- منزلة ومكانة لتقواها، وصلاحها، وقيامها بالاجتهاد فى طاعة ربها.

مما جلب لها أحيانًا الغيرة من بعض الزوجات الطيبات فى بيت النبوة.

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (١٤١٩)، ومسلم (٢٤٥٣) كلاهما بنحوه.

(٢) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه ابن سعد (٨/ ١٠٨)، والحاكم (٤/ ٢٥) وصححه، وأقره الذهبى.

قصة المغافير:

تقول عـائشة -رضي الله عنها-: كان النبى -ﷺ- يمكث عند زينب بنت جحش، فيشرب عندها عسلاً، فتواضيتُ أنا وحفصة أيتنا دخل عليها النبى -ﷺ- فلتقل له: أكلت مغافير؟ إنى أجد منك ريح مغافير!

فدخل على إحداهما فقالت له ذلك، فقال: «لا، ولكنى كنتُ شربتُ عسلاً عند زينب بنت جحش، فلن أعود له، وقد حلفتُ لا تُخبرى بذلك أحدًا»[1] .

فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ إلى قوله: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ﴾ [التحريم:١ـ٤]: لعائشة وحفصة.

و«المغافير» شبيه الصمغ، يوضع فى ثوبٍ، ثم ينضح بالماء فيشرب، وله ريحٌ منكرة.

وقد كان النبى -ﷺ- يعجبه أن يوجد منه الريح الطيب، أو يجدها، ويكره الريح الخبيثة لمناجاة المَلَك.

والعسل طيب الريح، حلو المذاق، ومع ذلك بسبب الغيرة جعلت منه عائشة وحفصة -رضي الله عنهما- المغافير!!

ورضى الله عن الجميع، فقد كن حريصـــات على الفوز بمزيد محبة الرسول -ﷺ-، واكتساب مودته.

وليمة مباركة:

ومن مناقب المُحبَّـةِ للصدقـات «زينب بنت جحش» -رضي الله عنها-: أن وليمـتها

---

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (٤٩١٢)، ومسلم (١٤٧٤)، وأبو داود (٣٧١٤)، والنسائى (٢٠) فى العشرة.

كانت من الولائم المشهورة بين زوجات النبى -ﷺ- فى فضل طعامها، وشرابها، وبركته.

فقد كانت وليمة ذات سخاءٍ وكرم، كما قال أنس بن مالك -رضي الله عنه-:

«ما أولم النبى -ﷺ- على شىءٍ من نسائه ما أولم على زينب أولم بشاةٍ»(١).

«أولم رسول الله -ﷺ- حين ابتنى بزينب بنت جحش، فأشبع المسلمين خبزًا ولحمًا»(٢).

والوليمة هو الطعام الذى يُدعى إليه الناس بمناسبة البناء بالزوجة، وبحسب قدر حال الزوج، كثرة أو قلة.

وقد نظر بعض العلماء إلى سعة وليمة المحبة للصدقات زينب بنت جحش على أنه نوعٌ من التفضيل، وأن السبب فى تفضيل زينب فى الوليمة على غيرها كان الشكر لله على ما أنعم به عليه من تزويجه إياها بالوحى.

وقال بعض أهل العلم: إن ذلك لم يكن قصداً لتفضيل بعض النساء على بعضٍ، بل باعتبار ما اتفق وجوده، وأنه -ﷺ- لو وجد الشاة فى كل منهن لأولم بها، لأنه -ﷺ- كان أجود الناس، ولكن لا يبالغ فيما يتعلق بأمور الدنيا فى التأنق.

وظلت مُحِبَّةُ الصدقات على دأبها، فما تركت درهمًا ولا ديناراً، كانت تتصدق بكل ما قدرت عليه، وكانت مأوى المساكين.

---

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (٥١٦٨)، ومسلم (١٤٢٨).

(٢) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (٥١٧٠)، وأحمد (٣/ ١٠٥).

محبة الخير حتى الممات:

وظلت الخاشعة الراضية، الأواهة الداعية مُحبةً للصدقات حتى فى آخر اللحظات قبل الممات كما قص علينا القاسم بن محمد ـ رحمه الله ـ يقول:

قالت زينب بنت جحش حين حضرتها الوفاةُ: إنى قد أعددتُ كفنى، ولعل عمر سيبعث إلىَّ بكفنٍ، فإن بعث بكفن فتصدقوا بأحدهما، وإن استطعتم إذا دليتمونى أن تصدقوا بحقوى فافعلوا[1] .

وكأن زينب -رضي الله عنها- تتفرس فيما سيكون، وقد كان، لذا تقول التابعية الجليلة عمرة بت عبد الرحمن ـ رحمها الله ـ:

لما حُضرت زينب بنت جحش أرسل إليها عمر بن الخطاب بخمسة أثوابٍ من الخزائن يتخيرها ثوبًا، ثوبًا فكفنت فيها، وتصدقت عنها أختها حمنة بكفنها الذى أعدته لتكفن به.

«إذا دليتمونى» أى: أنزلتمونى إلى حفرتى، «تصدقوا بحقوى» الحقو، والحقوة، والحقاء، كلها بمعنى واحدٍ، وهو الإزار، الذى يشد به الجسد فوق الثياب.

حقًّا هذه امرأة يراد بها الخير، فحتى فى اللحظات الأخيرة، الشديدة الأليمة التى تُنسى المرء كل شىءٍ إلا ما يعانيه تتذكر الصدقات، وفعل الخيرات[2] .

فرضى الله عن الصوامة الصالحة، القوامة البارة، أم المساكين، ومأوى اليتامى، وعاشت كريمة، وماتت حميدة كما قالت أعلم النساء:

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ١٠٩).

(٢) طبقات ابن سعد (٨/ ١١٠).

ذهبت فقيدة، مفزع اليتامى، والأرامل(١) .

وفى سنة عشرين من الهجرة النبوية كانت وفاتها فى عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، وكان المسلمون يخرجون بالرجال فى الجنائز سواء، فلما ماتت زينب بنت جحش أول زوجة من زوجات النبوة تفارق الدنيا بعد وفاة الرسول -ﷺ- .

وهنا أمر عمر مناديًا: ألا يخرج على زينب إلا ذو رحمٍ من أهلها.

فقالت أسماء بنت عميس -رضي الله عنها- :

يا أمير المؤمنين، ألا أريك شيئًا رأيت الحبشة تصنعه لنسائهم؟

فجعلت نعشًا، وعشته ثوبًا، فلما نظر إليه عمر قال: ما أحسن هذا؟!! ما أستر هذا؟!

فأمر مناديًا فنادى: أن اخرجوا على أمكم.

فصلى عمر -رضي الله عنه- عليها، فكبر أربعًا، ثم أرسل إلى أزواج النبى -ﷺ- فقال: من تأمرننى أن يدخلها قبرها؟

قال عبد الرحمن بن أبزى: وكان يعجبه أن يكون هو يلى ذلك.

فأرسلن إليه: من كان يراها فى حياتها فيدخلها فى قبرها، بنو أخيها، وبنو أختها.

فقال عمر: صدقن(٢) .

---

(١) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه ابن سعد (٨/ ١١١) فى طبقاته.

(٢) طبقات ابن سعد (٨/ ١١١).

ويحدثنا القاسم بن عبد الرحمن ـ رحمه الله ـ:

لما تُوفيت زينب بنت جحش، وكانت أول نساء النبى -ﷺ- لحوقًا به، فلما حُملت إلى قبرها، قام عمر إلى قبرها، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال:

إنى أرسلت إلى النسوة، يعنى أزواج النبى -ﷺ- حين مرضت هذه المرأة: من يمرضها، ويقوم عليها؟

فأرسلن: نحن، فرأيت أن قد صدقن.

ثم أرسلتُ إليهن حين قُبضت: من يغسلها، ويحنّطها، ويكفّنها؟

فأرسلن: نحن، فرأيت أن قد صدقن، ثم أرسلت إليهن: من يدخلها قبرها؟

فأرسلن، من كان يحلّ له الولوج عليها فى حياتها، فرأيت أن قد صدقن.

فاعتزلوا أيها الناس، فنحاهم عن قبرها، ثم أدخلها رجلان من أهل بيتها.

وفى البقيع حُفر لزينب -رضي الله عنها- قبرها، وأنزلها إليه عمر بن محمد بن عبد الله بن جحش، وأسامة، وعبد الله بن أبى أحمد بن جحش، ومحمد بن طلحة ابن عبيد الله، وهو ابن أختها حمنة بنت جحش.

وفاة المحبة للصدقات:

وسُئلت أم عكاشة بن محصن -رضي الله عنها-:

كم بلغت زينب بنت جحش يوم توفيت؟ فقالت: قدمنا المدينة للهجرة وهى بنت بضع وثلاثين، وتوفيت سنة عشرين.

وكانت ابنة ثلاث وخمسين سنة، وبعد وفـاتها جعلت عائشة تبكى، وتذكر زينب، وتترحم عليها، فقيل لعائشة فى بعض ذلك فقالت:

كانت امرأة صالحة[١] .

فسلامٌ على زينب بنت جحش مع الصحابيات الصالحات.

وسلامٌ على المحبة للصدقات فى الجنات.

ونكمل المسير مع باقى النسوة اللـواتى عشن فى بيت النبوة، ومن الله تعالى العون والتيسير.

❑❑❑

---

(١) ولمزيد من التفصيل انظر:

طبقـات ابن سعـد (٨/ ١٠١، ١١٥)، المستـدرك (٤/ ٢٣)، الاستيـعاب (٤/ ١٨٤٩)، أسـد الغابة (٧/ ١٢٥)، تهذيب الكمال (١٦٨٣)، تاريخ الإسلام (٢/ ٣٤)، العبر (١/ ٥، ٢٤)، مجمع الزوائد (٩/ ٢٤٦ ـ ٢٤٨)، التهذيب (١٢/ ٤٢٠، ٤٢١)، شذرات الذهب (١/ ١٠، ٣١).

مارية القبطية

إنها صحابيةٌ جليلةٌ دخلت إلى بيت النبوة، فنالت شرف الدنيا والآخرة.

إنها «مارية» القبطية، أم إبراهيم.

قصة إسلام مارية:

وتبدأ أيام دخولها إلى بيت النبوة عندما بعث المقوقس صاحب الإسكندرية إلى رسول الله -ﷺ- فى سنة سبعٍ من الهجرة بمارية وأختها سيرين، وألف مثقال ذهبًا، وعشرين ثوبًا لينًا، وبغلته الدلدل، وحماره عفور، ويقال: يعفور.

وأرسلهم مع ابن عم لمارية شيخ كبير، وبعث بذلك كله مع حاطب بن أبى بلتعة.

فوهب رسول الله -ﷺ- سيرين لحسان بن ثابت، وأسلمت مارية وأختها.

حب الرسول -ﷺ- لها:

كان رسول الله -ﷺ- يحب أم إبراهيم القبطية، فأنزلها فى العالية فى مقدمة مدخل المدينة النبوية، فى الموضع الذى يقال له: مشربة أم إبراهيم.

وكان رسول الله -ﷺ- يختلف إليها هناك، وضرب عليها الحجاب، وكان يطأها بملك اليمين.

فلما حملت وضعت هناك، وقبلتها سلمى مولاة رسول الله، فجاء أبو رافع زوج سلمى فبشّر رسول الله -ﷺ- بإبراهيم، فوهب له عبدًا، وكان ذلك فى ذى الحجة من سنة ثمانٍ، وتنافست الأنصار فى إبراهيم، وأحبوا أن يفرغوا مارية للنبى -ﷺ- لما يعلمون من محبته لها.

وكانت أم إبراهيم فى دارها، وابن عمها يأوى إليها، ويأتيها بالماء والحطب، فقال الناس فى ذلك، علج يدخل على علجة!

فبلغ ذلك رسول الله -ﷺ-، فأرسل على بن أبى طالب فوجده علىٌّ، فلما رأى السيف وقع فى نفسه، فألقى الكساء الذى كان عليه، وتكشف فإذا هو مجبوب.

يقول أنس بن مالك -رضي الله عنه-:

كان رجلاً يتهم بأم إبراهيم أم ولد رسول الله -ﷺ-، فقال لعلى: «اذهب فاضرب عنقه».

فأتاه علىٌّ -رضي الله عنه- فإذا هو ركى يتبرد فيها، فقال له علىٌّ:

اخرج، فناوله يده، فأخرجه فإذا هو مجبوبٌ ليس له ذكر، فكف علىٌّ عنه، ثم أتى النبى -ﷺ- فقال: يا رسول الله، إنه لمجبوب!

أكون كالسكة المحماة أو الشاهد يرى ما لا يرى الغائب. فقال:

«بل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب»[1].

وهذا الرجل الذى أساء به البعض الظنون، هو ابن عم مارية، الذى جاء معها من مصر، فاطمأن رسول الله -ﷺ- إلى ذلك.

حزنٌ لوفاة الابن:

وعاشت مارية -رضي الله عنها- حتى حزنت لموت ولدها إبراهيم، وحزن معها الرسول -ﷺ-، وسائر المسلمين.

---

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه ابن عبد البر (٤/ ١٩١٢) فى الاستيعاب، وأبو نعيم (٣/ ١٧٨)، (٧/ ٩٢) فى الحلية، وغيرهما.

يقول أنس -رضي الله عنه-: قال رسول الله -ﷺ-:

«وُلِدَ لي الليلة غلامٌ فسميته بأبي إبراهيم».

ثم دفعه إلى أم سيف امرأة حداد بالمدينة، يقال له: أبو سيف، فانطلق إليه، فقال: ما شاء الله أن يقول، قال أنس:

فلقد رأيت إبراهيم بين يدى رسول الله -ﷺ-، وهو يكيد[1] بنفسه، فدمعت عينا رسول الله -ﷺ-، فقال رسول الله -ﷺ-:

«تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضى الرب، والله يا إبراهيم إنا بك لمحزونون»[2] .

سقطت دموع الرحمة من عينى النبى -ﷺ- شفقة، وكأنه أراد أن يقول: إن الذى يفيض من الدمع من حزن القلب بغير تعمدٍ من صاحبه، ولا استدعاء لا مؤاخذة عليه، إنما المنهى عنه الجزع وعدم الصبر، فمجرد البكاء، ودمع العين ليس بحرامٍ، بل هو رحمة، وإنما المحرم النوح، والندب، والبكاء المقرون بهما، أو بأحدهما.

وفى ذلك ترغيب فى الشفقة على الخلق، والرحمة لهم، والترهيب من قساوة القلب، وجمود العين.

ثم صلَّى عليه صلاة الجنازة، وأعلم المسلمين أن ابنه مات وهو فى سن رضاع الثدى، حيث تغذيته بلبن الثدى، ومن كرامته أنه صار له مَنْ ترضعه فى الجنة.

---

(١) يكيد: أى يجود ويحتضر.

(٢) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (٢/ ١٠٥)، ومسلم (٢٣١٥)، وابن أبى شيبة (٣/ ٣٩٣).

فإنه لما توفى إبراهيم ابن رسول الله -ﷺ- قال النبى -ﷺ-:

«إن له مرضعًا يُتم رضاعه في الجنة»[١] .

وفى روايةٍ أخرى: «إن له لظئرين[٢] تكملان رضاعه فى الجنة»[٣] .

وفاة مارية القبطية:

وعاشت مارية -رضي الله عنها- حتى توفى رسول الله -ﷺ-، فكان أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- ينفق عليها من بعده، حتى توفى.

ثم كان عمر -رضي الله عنه- ينفق عليها حتى توفيت فى خلافته، وذلك فى المحرم من سنة ست عشرة، وكان عمر يحشر الناس بنفسه لشهود جنازتها، وصلى عليها عمر بن الخطاب، ودُفنت بالبقيع بالمدينة النبوية.

فسلامٌ على أم إبراهيم فى نساءٍ حول الرسول -ﷺ-.

وسلامٌ على مارية فى الصحابيات الصالحات.

❑❑❑

(١) حديثٌ صحيحٌ. اخرجه البخارى (٦١٩٥)، واحمد (٤/ ٢٩٧، ٣٠٤)، وابن أبى شيبة (٣/ ٣٧٩).
(٢) الظئر: هى المرضعة لولد غيرها.
(٣) حديثٌ صحيحٌ. اخرجه مسلم (٢٣١٦)، واحمد (٣/ ١١٢).

زينب بنت خزيمة

لكثرة معروفها لقبوها بـ «أم المساكين».

هى زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله الهلالية.

قُتل زوجها عبد الله بن جحش فى غزوة «أحد» شهيداً فتزوجها النبى -ﷺ- ولكنها -رضي الله عنها- لم تمكث عنده إلا شهرين أو ثلاثة، وتوفيت.

فنالت شرف الدخول إلى بيت النبوة، وكان ذلك فى أواخر السنة الثالثة، وتوفيت -رضي الله عنها- فى بداية السنة الرابعة.

وكانت فى حياتها من أرق، وأرحم النساء للفقراء والمساكين فى الجاهلية والإسلام، فكانت تطعمهم، وتكسوهم، وتتصدق عليهم[1].

فسلامٌ على أم المساكين فى نساءٍ حول الرسول -ﷺ-.

وسلامٌ على زينب بنت خزيمة فى الصحابيات الصالحات.

□□□

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٨/ ١١٥)، المستدرك (٤/ ٣٣)، الاستيعاب (٤/ ١٨٥٣)، أسد الغابة (٧/ ١٢٩)، العبر (١/ ٥)، مجمع الزوائد (٩/ ٢٤٨)، السير (٢/ ٢١٨)، السمط الثمين (ص ١٣٠)، شذرات الذهب (١/ ١٠).

من أحكام بيوت النبى ﷺ

يقول الحق سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب:٥٣].

الحق سبحانه وتعالى يريد أن يعلم الناس الأدب مع رسول الله -ﷺ-، فإن رسول الله يعيش عيشة الكفاف، مطعمه، وملبسه، ومسكنه، مجرد غرفة واحدة لكل زوجة من زوجاته، يعيش فيها، ليس عنده صالون، وليس عنده كذا أو كذا.. من متاع الدنيا؛ فلابد أن يعلم أمته الأدب معه ومع بيوته.

فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خاطب الله المؤمنين لأنهم هم المكلفون، وهل يكلف الله من لا يؤمن به؟

وقوله تعالى: ﴿بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾، نحن نعرف أن كلمة بيوت جمع بيت، والبيت فى الأصل هو ما أعد للبيتوتة، والبيتوتة فى الأعم الأغلب هى محل السكون، والنهار محل الحركة، فهو يتحرك خارجًا ثم يفىء إلى بيته ويسمى سكنًا، ويسمون المرأة المتزوجة سكنًا لأن الزوج يأتى فيرتاح من عناء العمل، لكن هل البيت للبيتوتة فقط؟

قيل: البيتوتة فى كل شىء بحسبها، فالذين لديهم أعمال بالليل تكون بيتوتتهم بالنهار، فالأصل فى البيتوتة أن تكون ليلاً، ولكن الخبازين مثلاً أو الحراس ورجال الشرطة، هؤلاء وأمثالهم بيتوتتهم على حسب طبيعة عملهم، فمنهم من تكون بيتوتته بالنهار، ولابد أن نلاحظ هنا شيئًا هو: أن الذى بيتوتته

بالنهـار يجب ألا يعـمل بالليل، وكذلـك العكس وهناك مثـل عند الفلاحـين: «الذى يحرس لا يحرث» فلا تجعل من كـان يحرس بالليل يحرث بالنهار فإنه لن يصلح فى هذه ولا فى تلك.

❑❑❑

الأدب مع نساء النبى ﷺ

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٣]، إن العلماء عند حديثهم عن المشاعر والإدراكات والمواجيد والعقائد التى فى النفس قالوا المظاهر الشعورية ثلاثة:

آلة تدرك ووجدان يستقبل، إما بالمحبة، وإما بالكره، ونفس تنزع، نضرب لها مثلاً فنقول: هب أنك مررت ببستان به تشكيلة من الورود المتفتحة فنظرت فوجدت وردة جميلة وناضرة، فهذا إدراك، ثم استقر فى نفسك الإعجاب بها، وهذه هى المواجيد، فالأول الإدراك ثم الإعجاب ثم تمد يدك لتقطفها وهو النزوع.

فكم عملية فى الإدراكات؛ تدرك وهى وسيلة الحس، فتجد فى قلبك وهو الإعجاب بها والحب لها، فتمد يدك لتأخذها، الشرع لا يتدخل فى الإدراك الأول ولا فى الوجدان الثانى، ولكن يتدخل فى النزوع. رأيت الوردة فهل نهاك أحد عن رؤيتها؟ فاعجبت بها فهل قال أحد لك لا؟ إنما عندما تمد يدك إليها يقال لك: إنها ليست ملكًا لك.

إذن.. الشرع لا يتدخل فى الإدراكات ولا يتدخل فى المواجيد، وإنما يتدخل فى العملية النزوعية عندما تأخذ حقًّا ليس بحقك. وهو كما قيد حريتك فى أن تأخذ قيد حرية الآخرين فى أن يأخذوا منك.

إذن.. فقد أعطاك قبل أن يأخذ منك، وفى هذا مصلحة لك.

ولذلك على المؤمن ساعة يكلفه الله حكمًا يحدد شهوته فى الأشياء ألا يحزن لأنه عندما حدد شهوته فى الأشياء حدد شهوة الآخرين عنه فى أشياء فلا مجال لعدم الرضا.

إذن. . الشرع لا يتحكم فى الإدراك ولا الوجدان وإنما يتحكم فى النزوع، إلا فى شىء واحد وهو «المرأة وجمالها». فأنت إن رأيت امرأة جميلة ربما كانت أجمل من التى عندك، أو أنك ربما لم تتزوج بعد فأنت تعجب بها ولا يبقى إلا النزوع، وللنزوع شروط وهو أن تذهب من باب الحلال فإن لم يكن لديك القدرة للذهاب من باب الحلال إما أن تعف، وإما ألا تعف فتعربد.

فهنا يقول الله إن الإدراك والمواجيد والنزوع فيه كلام: «إلا مسألة المرأة».

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ فى أى شىء تؤذون رسول الله؟ بأن تدرك فتجد فى نفسك شيئًا وأنت لن تقدم بالطبع ولكن قلبك.

إذن. . مجرد خواطر القلب إيذاء لمكانة الرسول -ﷺ- لمجرد أنك فكرت فى شىء مما يتعلق به.

وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله فى أى شىء من الأشياء التى أمر بها وخاصة فى النساء بدليل أن الله تعالى قال فى آية أخرى: ﴿وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ [الأحزاب:٥٣]، لماذا جاءت هذه الآية؟ لأنه لا يجوز، فهناك من رأى السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها انبهر بها فقال: والله إن مات رسول الله -ﷺ- لأتزوجن هذه الحميراء، وإن كان كفر عنها وذهب للحج وأخذ يعتق حتى يغفر الله له هذه المسألة.

وقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ هذا الأمر ليس من أجلهن فقط، وإنما من أجلكم أنتما الاثنين، أطهر لقلوبكم أولاً وأطهر لقلوبهن ثانيًا. .

إذن. . تدخل الله فى مسألة الجمال فى المرأة من أول مرحلة الإدراك، فلم يدعك تدرك ثم تجد فى نفسك معنى من المعانى ثم يمنعك من الاقتراب، لكنه

من رحمته حرم البدايات المؤدية لذلك، وهى النظر، لأنك لو نظرت ستجد وإن وجدت يحـدث عندك شىء من النزوع، لأن الجسم فيه طاقـة وجوارح، أنت لا تملكها بعقلك، فـحدوث الهياج وغيره لا تملـكها لذلك يأتى الله فى هذه المسألة ويتدخل من أول الأمر حتى يسد الباب من أولها.

❑❑❑

تحريم زواج أمهات المؤمنين بعد رسول الله ﷺ

قال الله تعالى: ﴿وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ إذن.. فالمسألة ليس فقط تكريمًا لزوجات النبى فى حياته وإنما أيضًا بعد مماته لأنهن أمهات المؤمنين، وعادة فى طبيعة التكوين الإنسانى الرجل يكون عنده الخير فى شتى نواحيه عنده مال، وعنده أمتعة، وسيارات، ومواشى وغيرها. فإذا جاء واحد وسأله من خيره شيئًا فإن كان يحبه أعطاه من كل شىء إلا حوزة الرجل للمرأة، فهذه غير ممكنة أبدًا، ليس فقط وهى ملك له، ولكن حتى إن كرهها وطلقها وتزوجها شخص آخر بعده تجده غير مسرور.

إذن.. المرأة هى المتاع الوحيد الذى له هذه الخصوصية فلماذا؟ لأنها وعاء النسل، ويريد الله للأمة الكثرة فى النسل من طهر.

وقوله تعالى: ﴿وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ أى: من بعد انتقاله، وليس من بعد أن يطلقها لأن الله قال: ﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ [الأحزاب:٥٢]، لأنهن أمهات المؤمنين.

﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ ذلكم هى الأشياء التى أشار إليها فى قوله: ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ﴾، ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾، لأن الذى يؤذى رسول الله وقد جاء رسول الله ليحميه من الإيذاء من أى نوع من الإيذاء فى الدنيا، ومن الإيذاء فى الآخرة بالنار فما جزاء هذا، جزاؤه ألا نؤذيه أو نفكر فيما يضايقه، وبعد ذلك يؤكد الله فى قوله: ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ﴾ بقوله: وإياكم أن تسرقكم خواطركم فإن جاء الخاطر استغفروا الله عنه لماذا؟

قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٤].

إذن.. ففيه أشياء تخطر، فحتى هذه لا يريدها الله بالنسبة للرسول، لأنه من هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة[١] إنما هنا لا يجوز، لماذا؟ لتفريغ طاقة الرسول للمهمة التى أرسله الله من أجلها فى هداية العالم كله فإياكم أن تشغلوه بشىء من هذا ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا﴾ أى: شىء: ﴿أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ هل يعلمه ساعة وقوعه؟ لا.. وإنما هو كان يعلم من الأزل فهو تعالى يعلم ما يفعل كل واحد من خلقه قبل أن يعمله ولذلك ﴿كَانَ﴾ بالنسبة لله لا تحتمل زمانًا مضى لأن الزمن الماضى بالنسبة لنا نحن فعندنا ماض وحاضر ومستقبل، المسائل بالنسبة لله ليس لها ماض ولا حاضر ولا مستقبل، ولذلك تجد الشىء المستقبل يتكلم الله فيه على أنه مضى، قلنا عند قول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل:١]، أتى هذه فى عرفنا اللغوى فعل ماض، فكيف يقول بعد فعل ماض ﴿فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾؟ والاستعجال لا يكون إلا لشىء لم يأت وقته، فـ ﴿كَانَ﴾ أى ليس معناها للماضى بالنسبة لكم سيأتى، ولكن بالنسبة للحق أتى بالفعل.. لماذا؟ لأن ربنا ليس عنده زمان ماض ولا زمان مستقبل، ولا زمان حاضر، ولذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٩]، فهل هو كان فقط؟ نقول: بل كان ولا يزال هو الغفور الرحيم، لأنه مادام قد كان غفورًا رحيمًا وهو لا تتأتى فيه الأغيار، إذن لا يجوز القول بأنه لم يكن ثم سيكون.

وعند نزول قوله تعالى: ﴿مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ قال أقاربهن: حتى نحن يا رسول الله؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلا أَبْنَائِهِنَّ وَلا إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلا نِسَائِهِنَّ وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ﴾ [الأحزاب:٥٥] فكأن الله قد جعل عليهن حارسًا وهو تقوى الله.

---

(١) حديث صحيح. أخرجه البخارى (٧٥٠١)، ومسلم (١٢٨)، والترمذى (٧٦٤)، وأحمد (٢/ ٤١٤)، وابن حبان (١/ ٢٩٩، ٣٠٠).

قوله: ﴿لا جُنَاحَ﴾ أى: لا حرج ﴿فِى آبَائِهِنَّ﴾ لأن الأب يعرف البنت وشكلها، وهو «يحميها» ويعرف كل شىء فيها، ﴿وَلا أَبْنَائِهِنَّ﴾: الأبناء منها، ﴿وَلا إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ﴾.

فما معنى: ﴿وَلا نِسَائِهِنَّ﴾ نحن عندما نضيف شيئًا لشىء الإضافة لها ثلاثة معان، عندما نقول: «أردب شعير» أى: أردب من شعير، فالإضافة بمعنى «من» هذه واحدة، «مال زيد» أى: مال لزيد، «مكر الليل» أى مكر فى الليل.

إذن.. كل إضافة لها معان ثلاثة.

بمعنى: «من»، أو «ل» الملكية، أو الاستحقاق، والفرق بين الملكية والاستحقاق أن تقول: «المال لزيد» و «اللجام للفرس» فهل للفرس ملكية أم أنه اختصاص للفرس، إذن.. «ل» الملك و «ل» الاختصاص، «مكر الليل» أى مكر ظرفه فى الليل.

هنا: ﴿وَلا نِسَائِهِنَّ﴾ نساء لهن، أو نساء منهن، ولا تأتى «فما» منهن، ماذا تعنى؟ ما الجامع فى «منهن» هذه؟ هل قريباتهن مثلاً؟ لا «نساء لهن» فاللام للتبعية. هل تخدمهن نساء؟ نعم ولكن لابد أن يكن مؤمنات، لأن المؤمنة مأمونة على أختها المؤمنة، إنما كتابية مثلاً أو كافرة ربما تصفها لأهلها؛ ولذلك الدقة أتت هنا فى عدم ذكر الأعمام ولا الأخوال.

وهذا جعل البنت لا تبدى شيئًا لعمها ولا لخالها.. لماذا؟ إن عمها كأبيها قيل لا لأن له ابنًا، ومن الممكن أن يذهب فيصف البنت «ابنة أخيه» ليغرى بها ابنه فمن هنا جاء الاحتياط.

□□□

تم الكتاب بحمد الله

فهرس الكتاب

الموضوع — رقم الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب: ٢٠٠٤/٣٤٠١

الترقيم الدولي: 977-323-082-1